

السيرة النبوية

عند

الرواد المعاصرين

مناقشات وردود

و محمد رحمة البيومي

قضايا إسلامية معاصرة

١٠

السيرة النبوية

عند

الرواد المعاصرين

مناقشات وردود

و محمد حبيب البيهقي



مكتبة

المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة الكتاب

لا أحبّ لدى المسلمين من قراءة سيرة نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم . لذلك كثّر الكاتِبون - على مدّ العصور - لهذه السيرة المباركة ، وسُظِّل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مدداً صافياً للكتاب فيما سيأتى من الأجيال بإذن الله .

وإذا كان المسلمون قد اهتموا بسيرة نبيهم العظيم ؛ فإن كتابة عصر سابق لا تغنى عن كتابة معاصرة يقوم بها كتاب معاصرون يخاطبون الناس بأسلوبهم الطبيعي ، ويجذبونهم إلى قراءة آثارهم بما يستهوى عقولهم من الاتجاهات الفنية ذات التأثير ؛ لذلك نهض أعلام الأدب المعاصر لكتابة السيرة النبوية المطهرة في وقت مسّت فيه الحاجة إلى استجلاء نواحي العظمة في حياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - إذ كانت كتب الاستشراق قد أخذت تترجم إلى العربية ، ولها جاذبية خادعة في رونق العباد ، وعذوبة الخيال ، وتدفق الأسلوب ، وسلامة الحوار ، ولكن أكثرها يخفى السم في الدسم ، ومَن اتبع وجهة الصدق بينه وبين نفسه من المنصفين ؛ فإنه من هؤلاء الأجانب لا يستشعر عظمة الرسالة كما يستشعرها مسلم يؤمن بنبوّة محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيهم من يدركه الغرور فيعتقد أنه ناقد ممتاز يخضع أعمال هذا النبي لمنطقه ، فيطل على تاريخه

العظيم مستعليا ، وكأنه يتحدث عن إنسان مثله ، لا عن إنسان اختاره الله واجتباؤه لأداء أسمى رسالة في الحياة ! هذا الغرور الكاذب يجّره إلى اصطیاد شبه ملفقة يجهل حقيقة أحداثها ليزنها بميزان من لم يدرك الواقعة من جميع أطرافها ، هذا إذا كان الكاتب منصفاً. يجتهد ما وسعه الجهد في استجلاء الحقيقة ، فكيف به إذا كان في أعماقه حاقداً مضطغنا يتخذ من سيرة نبي الإسلام مجالا للتنفيس عن شعور عدائي يملك عليه آفاق نفسه ، ويدفعه إلى تبديل الحقائق ، وتشويه الأحداث ؛ ولذلك كان من الضروري أن تكتب سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأقلام مسلمة ترد الكيد ، وتطفئ النار المتوهجة في صدور قوم مغرضين ، ولا ننكر أن طائفة من أعلام الإسلام في الهند قد اندفعوا إلى كتابة السيرة المطهرة باللغات ، الأوربية ليصححوا أخطاء المستشرقين ، وليظهروا نبیهم الكريم في صورته الطبيعية التي تفيض إنسانية وتشع نورا ورحمة على العالمين ، ولكن ما كتبه هؤلاء المسلمون البررة قد ظلّ محجوبا عن قارئ اللغة العربية لا يدركون منه إلا شذرات تترجم في الصحف على أبعاد ، وقد ظهرت كتب مستقلة لبعض هؤلاء الأعلام مترجمة إلى اللسان العربي ، ولكن ظهورها قد تأخر كثيرا بعد أن كتب زوّاد الأدب المعاصر كتبهم اللامعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . !

وحين بدأت الحديث عن كتب الرواد المعاصرين من أبناء اللغة العربية - وحدهم - لم يغب عن خاطري أن مجال البحث

ذوسعة ، وأن الباحث الذى يريد أن يستطلع « تاريخ السيرة » النبوية فى هذا العصر الراهن عليه أن يمد بصره إلى ثلاث جهات لا إلى جهة واحدة ، إذ عليه :

أن يرصد ما قام به المستشرقون فى بحوثهم المتشعبة عن رسول الله - أولاً - ليرى مدى تأثيرها فيما كتب المسلمون المعاصرون .

كما عليه - ثانياً - أن يرصد ما كتبه إخواننا المسلمون من الهنود من صحف مباركة كان لها تأثيرها الواضح لدى قراء اللغات الأوربية من جهة ، ولدى من أفادوا منها من كاتبى اللغة العربية من ناحية ثانية .

ثم يخلص إلى كتابة ثالثة عن الرواد المسلمين من أبناء اللغة العربية ، ولكن هذا الجهد يتطلب تجزئةً تحدد مجراه ، وتحصره فى جداول مناسبة ، ولن يستطيع باحث مثلى أن ينهض به فى مجالاته الثلاثة على وجه يرضى الحقيقة ، وفى فترة محدودة ، كتلك الفترة التى حددها المؤتمر الإسلامى للفراغ من البحث ؛ لذلك وجدت من المفيد أن أقصر الآن على إيضاح جهد الرواد راجياً أن يوفق الله من يجد لديه المقدرة على ملء الفراغ الخاص بما كتبه المستشرقون ، وما سجله باحثو الإسلام فى غير اللسان العربى إلى إستيعاب البحث على وجهه الممتد العريض ، ثم إلى الحديث عن جيل آخر تلا جيل الرواد ، واقتفى آثارهم فى التأليف فاهتدى إلى خير كثير .

ونحن حين نستعرض ما كتبه الرواد المعاصرون في مصر نعلم أن أعمالهم الأدبية في مجال السيرة المطهرة قد لاقت تأييداً كبيراً من الأكثرية الناقدة ، كما وجدت معارضة شديدة من بعض من يحرصون على الكمال المطلق في كتابة السيرة المطهرة ، وهذا طبيعي في كل عمل أدبي أو علمي ينهض به صاحب قلم ، إذ لا يخلو بحث ما من فراغ يجب أن يملأ ، أو من خطأ يجب أن يصحح ، وقد تعرضنا لأخطاء هؤلاء الكبار حرصاً على إظهار الحقيقة في حياة أكرم إنسان أرسله الله ليخرج العالم من الظلمات إلى النور ، وبسطنا وجه الحقيقة فيما ندّعونهم من صواب ، ولكن بمنطق الدعوة الإسلامية الذي يدع إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فيجادل بالتي هي أحسن ، وليس بمنطق من يفتعلون الأخطاء ليتسربوا إلى السرائر فيحكموا عليها بالغل والضغينة ، ومن يتلمسون الأخطاء تأساً لينادوا بالويل والثبور على جماعة يصمونهم بالافتراء والغرض والهوى بغياً دون حق ، فالناقد الأمين من يشير إلى الخطأ بعيداً عن اتهام النيات ، والتدسس إلى السرائر المطوية يصمها بالعقوق والنكران !!

على أن الحق أبليج والباطل لجلج كما يقول المثل العربي ، وقارئ آثار الرواد من ذوى الإنصاف يلمس شدة الغيرة ، وصدق الحمية في الصفحات المتلألئة بسيرة أطهر الأنبياء ! فقيم اتهام الأبرياء ؟

إن الأجدر بمنطق النقد أن نصّح الأخطاء وحدها لا أن نكيل الاتهام !

على أننا لو تأملنا الظروف التي أحاطت بكتابة السيرة النبوية بأقلام هؤلاء الروّاد لرأينا فيها شفيعا لما وقع فيه بعضهم من التسرع العاجل ؛ إذ نذّت عن ذهنه حكمة مستترة ، أو علة خافية ، فقد تعالت أبواق المستغربين داعية إلى إلتباس الهداية الإنسانية في حضارة الغرب ؛ فلم تجد أذنا صاغية من الجمهرة المسلمة ثم أعقبتها دعوة صريحة إلى التبشير في مصر ، بلغت من وقاحتها أن ولجت على الفقراء بيوتهم لتصدّهم عن دينهم بمغريات المال والرفاهية ، وكان لهذه الحركة اللثيمة صدى رنانا في نفوس الملأ من المسلمين ، فنهضت الجرائد اليومية لمناهضتها ، وإفصاحا عن خطر هذه الحركة اللثيمة ننقل مما كتبه الأستاذ أنور الجندى تحت عنوان (معركة التبشير^(١)) .

وقد اعتمدت عدة ملايين للتبشير في الشرق عندما أبرمت معاهدة (لاتران) مع إيطاليا إذ ردّت إلى الفاتيكان الأموال التي كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها منذ سنة ١٨٧٠ .

وقد نشرت جريدة السياسة عشرات المقالات عن التبشير على هذا النحو :

١٩٣٣/٦/١٢ التبشير والسياسة التي توازره .

٦/١٣ حديث الأستاذ المراغى عن التبشير .

(١) الصحافة السياسية ص ٦٠٨ .

- ٦/١٤ التبشير بالتعذيب
 ٦/١٥ حديث عن التبشير .
 ٦/١٦ حول التبشير ، تصريح الحكومة عن التبشير
 ٦/١٨ انتشار مآسى التبشير
 ٦/١٩ رجال الدين والأزهر ومواقفهم من التبشير
 ٦/١٩ تغريب الشرق والتبشير
 ٦/٢٠ حوادث التبشير فى مصر حلقة من سلسلة الغارة على العالم الإسلامى
 ٦/٢١ حركة التبشير ، حملة على المبشرين ومؤيديهم
 ٦/٢٢ غزو العقيدة الإسلامية غاية التبشير
 ٦/٢٣ العذاب فى سبيل العقيدة ، حديث للأستاذ الأكبر عن التبشير
 ٦/٢٥ خطر الحركة التبشيرية وعقد مؤتمر إسلامى
 ٦/٢٦ تبعاتنا كمصريين عما يقع من التبشير
 ٦/٢٧ حديث عن التبشير مع إبراهيم الهلباوى
 ٦/٢٧ مسئولية الوزارة الحاضرة عن حوادث التبشير
 ٦/٢٩ ملايين الجنيئات للهيئات التبشيرية
 ٦/٣٠ التبشير والأقليات .

هذا ما كتبه عن التبشير جريدة واحدة هى جريدة السياسة فى شهر واحد هو شهر يونيه سنة ١٩٣٣ ، ولا نستطيع أن نحصى ما ذكرته هذه الجريدة فى أعوام مختلفة ، فضلا عن أن نحصى ما نشرته جرائد : «البلاغ» و«كوكب الشرق» و«الجهاد»

و«الأهرام» مما يَصُور خطورة الهجوم على الإسلام في بلد كبير ؛
لذلك نشطت الأقلام للتأليف عن أصول الدين الإسلامى
ورسالته فى الحياة ليعلم الناس كيف تشوّه الحقائق ، وتطمس
الوقائع بالمفتريات .

ومن زاوية ثانية اتجهت الأقلام المخلصة إلى تدوين سيرة
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنطق معاصر يجذب الانتباه
ويزيف الأراجيف ، وقد نشطت المجلات الإسلامية نشاطا
محمودا فى أداء رسالتها الفعّالة فاتسعت صفحاتها للرد على
المزاعم الملوّثة ، وتجلية الحقائق الصريحة عن إنسانية الإسلام
وواقعية تشريعہ ، وعظمة رسالته ، كما ظهرت مواقف الرسول
مسلسلة وفق أدوار حياته بأقلام الكبار من العلماء والشبان من
طلبة الأزهر والجامعة ؛ فكان من ذلك كله ثراء أى ثراء
للمكتبة الإسلامية لفت الأنظار لفتا قويا إلى محاسن الإسلام
وطهارة نبیه الكريم ، وقد أشار الأستاذ عباس محمود العقاد فى
مقال جيد إلى هذه الظاهرة البارزة فقال : (١) .

صدر نحو من عشرين كتابا عن الإسلام فى أقل من عام من
أشهرها «الإسلام والحضارة الغربية» لكرد على «وضحى
الإسلام» لأحمد أمين ، «وحياة محمد» للدكتور هيكى ،
و«الإسلام والتجديد فى مصر» لتشارلز آدمس وترجمة عباس

(١) من مقال نشر بجريدة روزاليوسف سنة ١٩٣٥ ولخصه الأستاذ أنور الجندى ص ١١١ فى كتابه

«أضواء على الأدب المعاصر» .

محمود «والشرق الإسلامى» لحسين مؤنس و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان و«حاضر العالم الإسلامى» ترجمة عجاج نويهض و«على هامش السيرة» لطف حسين ، وكتب أخرى عن حياة النبى لفريد وجدى و«رشيد رضا» وغيرهم من أفاضل العلماء ، وهذا عدا «مجلات إسلامية» كثيرة وكل أولئك ظاهرة اجتماعية أحق بالبحث ويزيدها استحقاقا أن معظم المؤلفين هنا من غير الدينين المتفرغين للمسائل الدينية الذين لا يستغرب منهم طرق هذه الموضوعات .

ثم تساءل الأستاذ العقاد عن سبب هذه الظاهرة فقال : إن السبب العالمى الأكبر لهذه الظاهرة هو فشل الفلسفة المادية فى إقناع العقول وإرضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد اجتياحها العالم زهاء قرن كامل ، واغترار الناس بها فى غير طائل وانتظارهم منها التعليقات والتفسيرات التى تعبوا فى البحث عنها والرجوع بها إلى الجامدين . . . وهم لا يفقهون بم يجيبون ، ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون .

أما السبب الشرقى فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التى تعيد ذكرى المجد القديم ، وتحمى أصحابها من غارات أعدائها فى العصر الحديث ، ففي الحجاز واليمن والعراق وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والصحارى الإفريقية ، والهند والجزر الآسيوية حديث دائم عن الإسلام والعرب ، ورغبة دائمة فى القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء المسلمين ، وما يرجى بعد اليوم للإسلام

والمسلمين ، ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية من أبناء هذه الأقطار المترامية فهو يشاق أن يرى الإسلام على هدى من هذه العلوم ، وأن يحكم الصلة بين زمانه وآرائه وبين ما سلف من الأزمنة والآراء .

ثم ختم الأستاذ العقاد حديثه بسببين آخرين هما : التبشير والشيوعية ، وليس لى أن أعلق على حديث الأستاذ العقاد هنا اكتفاء بما سأذكره عن بعض هذه الأسباب فيما أخص به كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل من تحليل ، والطريف أن الأستاذ العقاد قد رأى فيما بعد أن يقوم بأكبر مجهود في تفسير وقائع الصدر الأول من تاريخ الإسلام ، وحيوات أبطاله الأفاض ، فأبلى بلاء حميدا ستعرض إلى توضيحه حين نتحدث عن كتابه القيم : (عبرية محمد) وقد ثارت ثائرة المغرضين على الأستاذ العقاد حين أثمر هذه الفواكه الياقة في حقل التاريخ الإسلامى ، فرموه بالرجعية والتقهقر ، وهو أول من يعرف دواعى هذا الاتهام المغرض ، إذ أن الحديث عن خالد بن الوليد ، وحسان بن ثابت كان مصدر كيد حقيقى لمن يسوءهم أن تنتشر الصحائف الناضرة عن أبطال الإسلام ، ولم يستطيعوا أن يقولوا ذلك جهرة بل تعللوا بالسلفية والمستقبلية وقد دحض العقاد الكبير أراجيفهم المغرضة حين قال :

«إن الكتابة فى الموضوعات التاريخية ليست هى مقاييس السلفية أو المستقبلية ، وإلا كان المؤرخون جميعا سلفيين ؛

لأنهم لا يكتبون إلا عن التاريخ الماضى ، وإنما القياس الصحيح هو طريقة الكتابة فى الموضوعات التاريخية والأبطال التاريخيين ، وبهذا المقياس يُحسب الإنسان سلفيا رجعيا ، ولو كتب عن المستقبل الذى يأتى بعد مئات السنين ، إذ هو قد يكتب عنه بروح الجهل القديم والعصبية الرجعية ، وهى التى عشت فى دماغ ذلك الكاتب البيغوى فلا ينساها فى قديم ولا حديث^(١) .

وإذا كانت «طريقة الكتابة» هى المقياس الدقيق للعمل الأدبى بعامة ، ومنه ما يتجه إلى السير والتراجم والتواريخ بخاصة ، فإننا فى هذا الكتاب سنتحدث عن جهود الرواد من أدبائنا المعاصرين حديثا منصفاً يضع كل كاتب موضعه الصحيح كما نراه ، وإذا كان فيما نقوله ، ما يكون موضع النقد والملاحظة لدى بعض الدارسين ، فتلك طبيعة كل تأليف يحاول صاحبه أن يستقل برأيه فى الحكم على نفر من قادة الأدباء ، قد يكون لهم من علو الأفق ، وسعة النظر ما لا يحيط به كاتب يرى بمنظاره المتواضع ما تقع عليه عينه من الأشياء الواضحة ، ويغفل ما لا يستطيع أن يراه مما يحتاج إلى مجهود قوى الإشعاع ! وحسبه أن يبذل جهده المخلص قدر ما يستطيع ، مُرحباً بكل ما يخالف وجهة نظره إذا سلم ناقده من الغرض ، وخلص قلمه للحق الصريح فذلك سبيل المؤمنين .

(١) «يسألونك» للأستاذ العقاد ص ٣٤٨ .

وقد رأيت أن أبحث عن البذور الأولى للسيرة النبوية في فصل تمهيدى أبدأ به الحديث ، ثم ألم إلماما سريعا بالتأليف السلفى في فصل تالٍ ، وبذلك أمهد الأرض للبذور الجديدة التى غرسها أدباؤنا الأفاضل فآتت أكلها ضعفين ، ومدت الظلال الورافة على روض بهيج .

الجذور البعيدة

كتابة السيرة النبوية في هذا العصر المختلط بشتى الثقافات المتباينة ليست بالعمل السهل ، وقد كانت مهمة الذين كتبوا السيرة في العصور القديمة أسهل وأهون ؛ لأننا في زماننا هذا قد وجدنا سيلا من الكتابة الأوربية تتحدث عن سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، حديثا لا يخلو من الغرض ، وكان الظن بأبناء الاسلام جميعا أن يتقبلوا ما يكتبه المغرضون بما يستطيعون من الحذر الدقيق ، ولكن سيطرة الغرب السياسية في مطلع هذا القرن قد جعلت لكتابة المستشرقين منزلة كبرى لدى المخدوعين ببهرجة العلمى ، فأخذ نفر من دارسى الثقافة الأوربية يصطنعون من المناهج المريبة فى البحث ما يجعلهم يسرون مع المغرضين فى طريق واحد ، ومن فضل الله على السيرة النبوية أن قيض لها من ذوى الإخلاص من كتبها بنزاهة وحيدة ، ومن كشف دخائل من يحرفون الكلم عن مواضعه ، وتلك معجزة حقيقية للاسلام ، إذ هيا الله له فى كل عصر من ينافع عنه بالمنطق الحق ، ومن يدفع كيد أعدائه فى قوة وشموخ ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين !

ونحن نعلم أن الشك فى ما دونه القدماء عن أبطال التاريخ إن جاز أن يتطرق إلى شخصيات يكتنفها الضباب فلن يجوز أن يتطرق إلى سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهما بذل

المغرضون جهودهم في نسج الأراجيف ؛ إذ لا يوجد نبى من الأنبياء - صلوات الله عليهم جميعا - قد حفظت سيرته الكريمة في شتى أحواله كما حفظت سيرة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وإذا كانت التوراة والإنجيل وصحف أهل الكتاب لم تسلم من التحريف المقصود ؛ فإن بعض ما روى عن سير الأنبياء من السابقين في غير كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة لم ينج من التزيد والافتعال ، أما سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلدينا أصل صحيح لا يتقبل ذرة من شك فيما نزل به القرآن الكريم خاصا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وفيما دونه كتب الحديث الصحيح معزواً إلى رواته الأثبات ممن أطلالوا التدقيق في المتن والإسناد فمهما اصطنع المغرضون من وسائل الشك في بعض ما روته كتب السيرة مما لانجد دليله في كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإنهم لا يجدون شفاء لنفوسهم في توهين ما جاء به القرآن وما روته السنة المطهرة ، ونحن نعرف أن أكثر غزوات الرسول ومواقف جهاده ، وساعات حرجه وبلائه في الدعوة الإسلامية قد نزل فيها وحى من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما نعرف أن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا من شدة الحرص على أقواله وأفعاله بحيث رووا كل ما عرفوه من قول أو فعل ، وقد جمعت الأحاديث في مجلدات متعددة ، ووجد من نسق كل ما رواه المتقدمون منها في «جوامع الأصول من أحاديث الرسول» بحيث صار ما رواه البخارى ومسلم والترمذى

وأبوداود والنسائي وغيرهم مجموعاً في كتاب واحد ، تتعدّد أجزاؤه فيقرب البعيد ويدنى الشاسع ، وفي هذه المرويات الحافلة تفصيل دقيق لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم معزّو إلى كبار الصادقين المخلصين من صحابته رضوان الله عليهم فلو اقتصر باحث في سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما جاء بالقرآن الكريم معتمداً على ما قيل في أسباب النزول وعلى ما جاء في كتب الصحاح لوجد سيرة رسول الله كاملة لم تشب بنقص ، أو تزود بافتعال متكلف ، فالذين يحاولون أن يشككوا في أخبار السيرة النبوية لا يجدون لديهم دليلاً يشفى ما في صدورهم من الدّخل ، ولئن وجدت زيادات مختلفة في بعض ما كتب ابن إسحاق أو ابن هشام أو الواقدي أو الطبري فإنها كلها لا تتصل بشيء من صميم السيرة المدوّنة في كتاب الله وسنة الرسول ، وكان على الذين يريدون أن يجعلوا حوادث السيرة النبوية مجالاً للشك أن يعرفوا قداسة القرآن وطهارته ، وأن يعلموا قيمة السنة المطهرة لدى الدارسين الأثبات ، وإذا جاز لهم أن يعصفوا برواية مضطربة نقلها مؤرخ عن مؤرخ دون تحقيق فليس في ذلك ما يمسّ السيرة النبوية في شيء ، لأن أصلها الراسخ ثابت صحيح !

نحن نعرف أن السيرة النبوية لم تدوّن إلا في العصر الأمويّ ، إذ نهض المحدثون بتدوينها روايات متسلسلة ينتهي سندها إلى رسول الله ، وفي إكباب المحدثين بدءاً على تدوين السيرة النبوية ما يدلّ على أنهم وجدوا الروايات الصحيحة التي

تَمَدُّهُمْ بما يطلبون ، ولا نظن أن عالماً حفظ القرآن الكريم ودرس السنة المطهرة يميز لنفسه أن يفتعل حديثاً ينسبه إلى رسول الله ، وهو يعرف أن من كذب على رسول الله متعمداً فسيتبوأ مقعده من النار ، وإذا كان الدافع الحاث على تدوين هذه السيرة لديه هو حبه الخالص لصاحب السيرة فإن هذا الحب الأكيد يمنعه أن يخلط الحق بالباطل ، أو أن يأتي بما يكون لديه موضع شك فضلاً عن أن يخترق ما لم يكن ، وهكذا نهض عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم من كبار المتحرزين لجمع حوادث السيرة النبوية مما يحفظون من آيات القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة ، وفيهم مَنْ شاهد صحابة رسول الله والمخلصين من التابعين فعرف تفصيل المجل ، وتوضيح الغامض ، وسأل عما يجهل فجاءه السديد من الجواب مؤيداً بالدليل المائل حتى علم فاطمأن ، وفيما سجّل هؤلاء الكرام من أحداث السيرة ما أعان اللاحقين على تدوين التاريخ النبوي ، وفي مقدمتهم شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق ، ولا بدّ من وقفة لديه ، إذ كان كتابه أول أثر علمي مدوّن وصل إلينا مهذباً عن طريق ابن هشام فكان أصلاً أصيلاً لدراسة السيرة النبوية ، وما زال المصدر الأول لمن يحاول أن يتحدث عن رسول الله ، وإن كتاباً له هذه الريادة الأولى في التاريخ النبوي لجدير بالنظر الفاحص لنزيل عنه ما تكاثف من غبار حاول بعض المغرضين أن يثروه ناسين أن لكل أثر بشري في دنيا

التأليف محاسنه ومآخذه ، وأن الكمال المطلق لله رب العالمين .
نشأ ابن إسحاق بالمدينة بين قوم يتعبدون بذكر الله ورسوله
ومامنهم إلا محدث راوٍ يتلو كلام النبي ويروى سيرته ، وأبوه
وعثمّاه من رجال العلم أمثال القاسم بن أبي بكر ، وأبان بن
عثمان وعطاء ، والأعمش ، وعبدالرحمن بن هرمز ، ونافعا
مولى عبدالله بن عمر ، وقد كان أبان بن عثمان ذا أثر بارز في
توجيهه الكتابي ؛ إذ اهتم بجمع سيرة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - وتدوين ما يدور حول حياته المباركة من حديث وشعر
وأقاصيص وصار لما كتب ذكر في عهده ، وإن ضنت الأيام
علينا بما كتب ، فجعل ابن اسحاق يحذو حذوه ، ثم لم يقف
الأمر به عند المدينة ، بل رحل إلى شتى الأماكن ملتصقا برجال
الحديث ، وأئمة العلم في الإسكندرية والكوفة والجزيرة والري
وبغداد ، وكان من قدره أن يصطدم بالإمام مالك فيتهمه في
نسبه وعلمه ، ويثور عليه ابن اسحاق فيرميه بأكثر مما رماه ،
وتتوالى المآخذ المعزوة إلى ابن اسحاق فيدونها مؤرخوه دون
نقاش ، وأذكر أنى بسطت هذا الموقف فقلت فيه من كلام
متصل^(١) .

«كان ابن إسحاق ذا أصدقاء ينقلون فضائله ، وذا خصوم
يشهّرون به ، وكان الإمام مالك من أبرز خصومه ، وله في
الناس رأى مسموع ، وتوجيه قوى ، وقد هاجم ابن اسحاق
واتهمه ، ولم يسكت عنه الرجل فطعن هو الآخر في علمه وفي

(١) «مجلة كلية اللغة العربية» بالرياض «المعد السادس» ص ٢١٨ .

نسبه ، والمعاصرة كانت ومازالت غشاء يحجب كثيرا من اللألاء عن العيون ، وأشد ما تكون لذدًا بين العلماء وذوى المواهب الراقية من رجال الفنون ، وقد اعتاد جماعة من الكتاب أن ينقلوا أقوال الخصوم ويحاولوا تأييدها أو تنفيدها ، والأولى أن نترك هذه الأقوال إلى مؤلفات العلماء لنحكم عليهم من خلالها فهي الوثيقة الصادقة دون مرأ .

وكم اتهم فضلاء من العلماء بالزندقة زورا ، ثم قرأت ما كتبوه فما وجدت من أثر تشم منه رائحة الاتهام ، وإذا كان البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وابن ماجه قد رَوَوْا عن ابن اسحاق بعض الحديث فهذا كاف كل الكفاية فى تقديره ، وفى مقدمة كتاب السيرة النبوية نصّ لابن عدى نقله محققو الكتاب وفيه يقول :

« ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومبعثه ، ومبتدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما يتهى أن يقطع عليه بالضعف ، وربما أخطأ واتهم بالشئ بعد الشئ كما يحظى غيره ، ولم يتخلف فى الرواية عنه الثقات والأئمة ، أخرج له مسلم فى المبيعات ، واستشهد به ، البخارى فى مواضع ، وروى له أبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه^(٩) .

(٩) «مقدمة السيرة النبوية» لابن هشام ص (٤) ط س ١٩٣٦ م

وأنا لا أغفل ما اتجه إليه ابن إسحاق من سرد كثير للأساطير الموهومة فيما كتب من تاريخ ما قبل البعثة النبوية ، وفيما حشد من أمور قد لا تكون قريبة التصديق لدى الفاحص المتأمل ، ولكن ابن إسحاق في ذلك ليس شاذا عن لاهقيه ؛ فقد كان المفهوم العام لجامع الأخبار التاريخية أن يسرد كل ما انتهى إليه بإسناده ، إذ ليست مهمته حينئذ فحص الأخبار وتمحيص الأحداث ولكن مهمته هي تتبع كل ما يستطيع الحصول عليه من أنباء لدى من يثق فيهم ، ولا يمكن أن يؤاخذ ابن إسحاق بميزان عصر لاحق ، فالرجل متأثر ببيئته وبتوجيهها العلمي في التدوين والتبويب ، وإذا كان من تلوه من كبار المؤرخين من أمثال الطبري والمسعودي واليعقوبي ومن لا نستطيع أن نحصى من الكاتبيين قد سلكوا مسلكه في الحشد لجامع دون التفات في كثير من الأحيان إلى التصويب والتخطئة فإن لمن تقدمهم العذر إذا جعل الإسناد دليلا في تدوين الرواية ، وقد قال الإمام الطبري شيخ المؤرخين في مقدمة تاريخه : (إنه أدى ما وصل إليه من الأخبار كما وصل) لأن الأخبار لديه تعرف بالنقل لا باستنباط^(١) الفكر والحجج العقلية ، وقد تبرأ من عهدة ما ينقله من الأخبار المتهمة حين جعل العهدة على الراوي الذي نص عليه في الإسناد والطبري ومن نهجوا نهجه قد قدموا للباحثين شتى الآراء المختلفة لينتقوا منها ما يرجحون ، وليجعلوا منها لبنات تقيم تاريخنا ، ولا أجد في هذا المجال أصح

(١) الطبري ج ١ ص ٨ ط ٢ دار المعارف .

كما أشار إليه الأستاذ محب الدين الخطيب في بحث جيد حين قال : (إن مثل الطبرى ومَن في طبقته من العلماء الثقات المثبتين في إيرادهم الأخبار الضعيفة كمثل رجال النيابة الآن إذا أرادوا أن يبحثوا قضية ما ، فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه اعتمادا منهم على أن كل شيء يتقدر بقدره ، وهم يروون كل خبر معزوا إلى راويه ، ليعرف القارئ قوة الخبر أو ضعفه من منزلة راويه العلمية وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة^(١) .

لقد جمع ابن إسحاق كل ما عثر عليه من سيرة الرسول فرواه معزوا إلى من صدر عنه ، ومن يريد أن يحكم عليه فلا بد أن يزنه بميزان عصره ، وقد كنا نرى ذلك من الوضوح بحيث لا نحب أن نطيل فيه ولكن فريقا من باحثى الغرب يسرهم أن يلقوا الريبة على كل ما كتب ابن إسحاق ليجعلوا حياة الرسول مظنة الخفاء ، والإبهام ، وكأن ابن إسحاق - وحده - هو الذى سجل السيرة النبوية فإذا حامت الشبهة على كتابه فقد عصف المنطق بما قال ! وهؤلاء يتجاهلون أن فى القرآن الكريم والحديث الشريف ما ينهض بتبيين حياة الرسول على وجه لا يتطلب المزيد ، وما جاء به ابن إسحاق كمال يصل الأحداث ، وينظم حلقات السلسلة على نحو مطرد ، وليس جديدا مفاجئا لا أصل له سوى ما كتب ! حتى يشته فيه الناس إن انتحاه أحد بتوهين ، ومن العجيب أن نرى من الباحثين

(١) مجلة الأزهر صفر ١٣٧٢ هـ .

لدينا من يعتنقون هذا المذهب المفروض فيقول أحدهم في مقدمة بحث عن ابن إسحاق^(١) .

(لعل من العجيب حقاً أن ننظر إلى كتاب ابن هشام الذي يرويه عن ابن إسحاق نظرنا إلى كتاب تاريخ حقيقي يؤرخ لحياة الرسول تاريخاً يُراد منه وجه العلم والحقيقة وحدها فثمة أشياء تقف دون هذه النظرة وتجعلنا نحتاط قليلاً ونحن نحاول أن نضع هذا الكتاب في مكانه بين الكتب) . . ثم ! يقول : (فابن إسحاق ليس مؤرخاً بالمعنى العلمى لهذه الكلمة وإنما هو جامع ، ومبوب ، كانت السيرة قبله أجزاء متفرقة ، يروى كل من تناولها ناحية ، فجاء هو ليجمع هذه النواحي في نهج متسلسل تاريخي) .

ويتابع الكاتب مزلات المفرضين فيقول :
(الصورة التي تخرج بها عن محمد في كتاب ابن إسحاق أقرب إلى الصورة الأسطورية منها إلى الصورة التاريخية فهو يدعوربه فينزل المطر ، وحين يجلس تظله شجرة الأنبياء وحين يسير تمنع عنه الشمس غمامة . إلى آخر ما في الكتاب من معجزات ، وعذر ابن إسحاق أنه يجمع شتى روايات يروها أكثر من راوٍ وفيهم من يتعشق الأساطير وفيهم من يكتب الأساطير) .

وفي هذا الكلام وأمثاله مما تركناه تخبط حائر ، وشطط جائر ، وكنا نطمع من صاحبه ألا يقيس ابن إسحاق إلا بميزان

(٢) «الرواية العربية في أصل التجمع» للأستاذ فاروق خورشيد ص ٢٠٠ وما بعدها

عصره ، وقد قال عنه : أنه ليس مؤرخا بالمعنى العلمى لهذه الكلمة . وكأنه يطلب منه أن يصطنع من مذاهب التحليل مانصطنعه اليوم فى عصرنا الراهن !! ولئن نفى عن ابن إسحاق صفة المؤرخ فلا بد أن ينفىها عن الطبرى وتابعيه !! إذ جمعوا الروايات المختلفة كما جمع ابن إسحاق ، ومثل الكاتب فى ذلك مثل من ينفى الطب عن ابن سينا ؛ لأنه لا يلتزم فى الشفاء بما التزم به أطباء اليوم من أسباب العلاج المعتمدة على الاكتشافات العلمية الحديثة ! وما درى أن ما كتبه ابن سينا كان إحدى خطوات التطور العلمى فى طريق التقدم العلاجى ، تلك التى أخذ العلماء يتابعونها حتى اهتمدوا إلى أحدث الكشوف فهى إحدى اللبئات المتينة فى أساس الصرح ، وكذلك كان جمع الروايات المختلفة - لدى ابن إسحاق ومن تلاه - إحدى الوسائل الدافعة إلى انتهاج مذاهبنا المعاصرة فى التاريخ .

وإذا كنا نطلب من مؤرخى القرن الثانى أن يلتزموا بما التزم به مؤرخو القرن الرابع عشر . فليس لنا أن نخوض فى بحر لا نستطيع السباحة بين أمواجه ، وإنما علينا أن نعرف قدرتنا المحدودة لنقف عندها دون جموح ! وقد أراد الكاتب لنفسه أن يتابع المغرضين حين زعم أن صورة محمد - صلى الله عليه وسلم فى كتاب ابن إسحاق أقرب الى الصورة الأسطورية مرتكنا الى مادونه الرجل من معجزات نبي الإسلام ! ومن الطبيعى أن ينكر المعجزة أوربى لا يؤمن بالإسلام ، ولكن كيف

ينكرها مسلم يعرف أن الله قد خص نبيه بما يثبت نبوته لدى المنكرين !

وليت شعري هل كان موسى - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - لدى اليهود بطلاً أسطوريا حين ضرب البحر فانفلق ، وحين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین ، وهل كان عيسى - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - لدى النصارى بطلاً أسطوريا حين أحيا الموتى ، وأبرأ الأكمة والأبرص ، وتكلم في المهد ؟

أ يكون موسى وعيسى نبيين حقيقيين لدى من ينكرون نبوة محمد من باحثي الغرب مع اعترافهم بما أتيا من معجزات ، ويكون محمد - صلى الله عليه وسلم - أسطوريا لدى بعض المسلمين ؛ لأن مؤرخيه قد دونوا ما وقع له من المعجزات . إننا ندعو الذين يتباهون علينا باتجاههم المتحرر ، أن يكونوا متحررين حقا ! فلا يقلّدوا المغرضين .

لقد كان ابن إسحاق رائد عمل جاد في دنيا التاريخ العربي ، وإذا كانت طريقة التدوين التي التزمها واحتذاها سواه من بعد ليست هي الطريقة المثلى في هذا العصر ، فإنه بطريقته هذه قد حفظ صحفا حافلة بالأخبار أوشكت أن تضيع ، ومهما اقتفاه تابعوه فآثروا الرواية وأقلوا التمحيص فقد خدموا التاريخ العربي خدمة رائعة بما سجلّوه ، ولعل الأستاذ الدكتور أحمد أمين قد عني ذلك حين قال عن مؤرخي المسلمين - في حديثه التحليلي عنهم ، وقد أخذ عليهم ضعف النقد وإيجازه

وسداجته وتلوين التاريخ بلون العقائد حيناً ، وإهمال النواحي الاجتماعية حيناً آخر ، أخذ عليهم ذلك كله ، ثم قال - عنهم في حيدة وإنصاف^(١) .

(ولكن هذه العيوب تقلّ حدتها ، إذا نظرنا إلى ما رأينا من محاسنهم خصوصاً أننا عند تقديمهم يجب أن نقيس محاسنهم ومعاييرهم باعتبار زمانهم وبيئاتهم التي تحيط بهم ، لا بزماننا وبيئاتنا ، حتى يكون النقد أدق ، والحكم أصدق ، فمن من المؤرخين غيرهم عنى في عصرهم بتاريخ الحوادث بالشهر بل باليوم ، وبعض المؤرخين الأوروبيين يقول : إن هذا النمط من كتابة التاريخ لم يعرف في أوروبا قبل سنة ١٥٩٧ ؟

ومن من المؤرخين غيرهم عُنَى بالإسناد عنايتهم فينسب الرجل إلى أسرته وإلى أمته ، ويدور على الناس في أخبيتهم ومنازلهم يتلمس الأخبار ويطبّق ما يسمع على ما يشهد ؟ ومن من المؤرخين في مثل عصرهم يتشدد تشددهم في الرواية والسماع ، ولا يستجيز الأخذ عن الصحيفة إلا أن يكون ضعيفاً مطعوناً فيه .

ومن من المؤرخين في مثل عصرهم ، صبر على ما صبروا عليه من فاقة وبؤس ، ورحل من غانة الى فرغانة مع بعد الشقة ووعورة الطريق ، ثم قيّد كل ما سمع مع الإفلاس وغلاء القرطاس .

(١) دضى الاسلام، ج٢ ص ٣٦٠ لجنة التأليف والترجمة .

الحق أنهم على عيوبهم لم يدخروا جهداً ولم يعرفوا دعة) .
 وإذا كانت سيرة ابن إسحاق قد حفلت في بعض صفحاتها بما يصلح أن يكون موضع نظر ، كما حفلت صحائف التاريخ من بعده بما كان مجال نقد حقيقى ، فإن الله قد شاء لهذه السيرة أن تنال قسطها من النظر الناقد قبل أن تتداولها أيدي القارئین ، إذ لم يعرفها المسلمون في صورتها التي كتبها ابن اسحاق^(١) ، بل عرفوها بعد أن تولى ابن هشام عبد الملك بن أيوب الحميرى تنقيحها وتعديلها حذفاً وزيادة فانتقل بذلك بالسيرة النبوية المطهرة من مرحلة الجمع والتبويب تلك التي تمت على يد ابن إسحاق إلى مرحلة النقد والتعليق وهي خطوة مهمة كان لها أثرها في انتشار النقد التاريخي ، وقد رسم ابن هشام نهجه في عمله حين قال^(٢) : «وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم - من ولده وأولاده لأصلاهم الأول فالأول وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على جهة الاختصار إلى حديث سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه ذكر ، ولانزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ،

(١) عثر بالمقرب على أجزاء مما كتبه ابن إسحاق نفسه وخرج منها مجلد واحد ، ونسأل الله - سبحانه - أن يتم العثور على باقيها ... الخطيب

(٢) «السيرة النبوية» ج ١ ص ٤

ولا تفسير له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من ذلك الاختصار
وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ،
وأشياء بعضها يشفع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس
ذكره .

هذه العناية النقدية الكبرى من ابن هشام قد جعلت سيرة
ابن إسحاق قريبة للنفس شافية للمصدر حقاً ، وكأن الله - عز
وجل - قد شاء أن يفقد الأصل لتكون السيرة بعد صنع ابن
هشام أتم وأكمل وأوفى ، وعلى الذين ينقلون شذرات سيئة مما
قاله بعض معاصري ابن إسحاق في ثلمه أن يعلموا أن كلام
الرجل قد وكل إلى ناقدٍ صقيل يتولى جلاء غيمه ، ونزع
شوكه ، كما عليهم أن يعرفوا أن كبار أهل العلم من الأثبات لم
يسلموا من ناقلين يضعون الكتب في تزيينهم دون أن يكون
لذلك أثر ما في مكانتهم العلمية ، وقد قام الخطيب البغدادي
بتدوين ما وُجه لابن إسحاق من نقد ثم شفع ذلك بتنفيذ عادل
يضع الميزان بالقسط دون إسراف ، ونحن في حلٍّ من أن نترك
ما قيل مادام قد وجد الرد المأخوذ ، لنذكر لابن إسحاق فضيلةً
كبرى هي تمسكه بأسلوب الرواية التاريخية التي ينقلها عن
أساتذته العلماء ، فلم يشأ أن يغير في أكثر ما كتب ، واجتهد في
رعاية العبارة الأسلوبية اجتهاداً حفظ لنا أنصع التعبيرات
وأوجزها إشارة ، وأصدقها دلالة ! وهو في ذلك رائد للطبري
في تمسكه بالعبارة الجزلة فأصبحت كتابة التاريخ لديه مجالاً
للتماسك الفكري والأسر التركيبي في غير جملعة مفتعلة نجدها

لدى المتكلمين ثمن يريدون أن يقنعوا قراءهم بأنهم كتّاب كبار
فيتشدقون في غير مجال !

لن ترى عند ابن إسحاق مع هدوئه المطبوع غير اللفظ
المحدّد والأسر المتناسك ، والتسلسل المطرد في إيجاز معتدل
يعرض أطايب البلاغات المعهودة لدى فرسانها الأقدمين ، نحار
حين نريد التمثيل ، ولكننا ننقل كما اتفق مما تحدث به عن
رضاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بني سعد ، ليكون
مثالا صادقا لبعض ما نريد .

قال ابن إسحاق : (وحدثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث
بن حاطب الجمحي عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب
أوعمن حدثه عنه قال^(١) .

كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - التي أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها
مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن
بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا
شيئا ، فخرجت على أتان لي قمراء^(٢) معنا شارف^(٣) لنا ،
والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا
من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا
ما يغذيه . (قال ابن هشام ويقال يغذيه) ولكننا كنا نرجو الغيث
والفرج ، فخرجت على أتانى تلك فقد أدمت^(٤) بالركب حتى

(١) «السيرة النبوية» ج١ - ص ١٦١ - (٢) ذات خضرة - (٣) الناقة المسنة - (٤) أطلت عليهم

شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأباه إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك إننا كنا نرجو المعروف من أبي الصبى ، فكنا نقول : يتيم ، وماذا عسى أن تصنع أمّه وجده ، فكنا نكرهه لذلك ، وما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى أكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبنّ الى ذلك اليتيم فلاخذه قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت اليه فأخذه ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما أخذه رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي - حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمةً مباركة ، قالت : فقلت : والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ، أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى خرجت عليها ، فأقول لهن ، بلى والله ، وإنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها لشأناً ، ثم :

قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله
أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً
لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يجلب إنسان قطرة لبن ،
ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون
لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ،
فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى
شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت
ستته وفصلته ، وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ
سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(١) فقدمنا به الى أمه ، ونحن
أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا
أمه ، وقلت لها لو تركت بنى عندى حتى يغلظ ؛ فإنى أخشى
عليه وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

هذا غلط من سرد السيرة الرائع الذى رواه ابن إسحاق ،
وقد حرصنا على تسجيله لندل على شيئين هما : خسارة التأثير
النفسى الذى فقده من تنكب فى تدوين السيرة بالروايات البليغة
كما تعورفت ، واكتفى بسرد المعنى فجاء هيكلًا عظيمًا دون لحم
ودم ! وثانيهما : ما نلاحظه من تأثر بعض المعاصرين اليوم بهذا
الأسلوب فيما كتبه من قصص نبوى ذاع واشتهر ! وقد غفل
الناقدون عن الكشف عن نواته المستترة لدى ابن إسحاق بعد
أن باعدت بيننا وبينه الأحقاب ! وما تزال فى روايات الرجل
روائع لم تمسّ بتصوير ! فهيا أيها المبدعون .

(١) جفرا : شديدًا .

وقد كان ابن هشام حريصاً كل الحرص على تتبع ابن إسحاق في كل ماكتب ، وقد كانت ثروته اللغوية أكثر من ثروة صاحبه فأخذ عليه أمورا هامة كما نفى كثيرا مما رواه من الشعر ؛ لأن ابن إسحاق قد توسع في ذلك توسعاً كان مدعاة التهكم من قوم يناوءونه ، ولم يقل أحد : إن ابن إسحاق ناقد أدبي حتى نجعل روايته للشعر مصدرا من مصادره الصحيحة ، وكان ابن سلام الجمحي في طليعة من شهّروا به عن حق ، وإذا كان التاريخ النبوي هو مجال ابن إسحاق الذي ولج منه دنيا العلم والتأليف ، فقد كفانا ابن هشام كثيرا مما وقع فيه ابن إسحاق من عثرات تاريخية نجد نظائرها لدى كل مؤلف ! .

وأى مؤلف في القديم والحديث قد سلم من التعقيب ؟ وكانت معرفة ابن هشام بتاريخ الرجال أبصر وأنفذ ، فله من الغوص في سيرهم مظهر أثره جليا في تتبع ابن إسحاق ونكتفى بأن نمثل لذلك بشواهد منها .

١ - ذكر ابن إسحاق قتلى بدر من المشركين فجعل من بينهم السائب بن أبي السائب بن عابد بن عبدالله بن عمر المخزومي ، فقال ابن هشام : السائب بن أبي السائب شريك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي جاء فيه الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (نعم الشريك السائب ، لا يشارى ولا يمارى ، وكان أسلم فحسن إسلامه فيما بلغنا والله أعلم .

وذكر ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس أن السائب بن أبي السائب بن عابد ممن بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قريش وأعطاه يوم الجعرانة من غنائم حنين^(١) .

٢ - ذكر ابن إسحاق فيمن عدّ من المنافقين ثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، فقال ابن هشام تعليقا على ذلك . (معتب بن قشير وثعلبة والحارث أبناء حاطب وهم من بني أمية بن زيد من أهل بدر ، وليسوا من المنافقين ، فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم ، وقد نسب ابن إسحاق ثعلبة والحارث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بدر)^(٢) .

هكذا قال ابن هشام ، وفي نفسي مما علق به شيء ؛ لأن أكثر المفسرين ، يذهبون إلى أن قول الله عز وجل في سورة التوبة^(٣) : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) قد نزل في ثعلبة بن حاطب وذكروا من قصة ثرائه بعد افتقار ، وتضرّعه لرسول الله كي يسأل ربه له الخير ، وتدفع المال لديه ، وضنه بالزكاة ، ذكروا من ذلك ما هو معلوم مشتهر ، وقد قال الله - بعد هاتين الآيتين : (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا

(١) السيرة النبوية، ج٢ ص ٣٧٠ - (٢) السيرة النبوية ج٢ ص ١٦٩ .

(٣) سورة التوبة (٧٧) ، (٧٨) .

يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله
علام الغيوب^(١) فقطعت الآية صريحا بنفاق ثعلبة وأصحابه !
ولا وجه لابن هشام في تعقيبه إلا أن يكون قد رأى الآية ليست
في حاطب ، وهو رأى يتطلب الترجيح .

٣ - ذكر ابن إسحاق فيمن بايع من الأنصار عامر بن حديدة بن
عمرو بن غنم بن سواد ، فقال ابن هشام «عمرو بن سواد»
وليس لسواد ابن يقال له غنم^(٢) وقد كرر ذلك ابن إسحاق في
موضعين فعقب عليهما ابن هشام بما قال^(٣) .

لقد تلقى ابن إسحاق كتابه عن أئمة المحدثين في عصره ،
وحشد فيه ما مال إلى تصديقه من أخبار العرب والأقدمين ، ثم
جاء ابن هشام فوقف من الكتاب موقف الناقد النزيه حتى جعل
منه نصا تاريخيا ممتازا بالنسبة لزمناه التأليفى ! فإذا جاء من
يقول : إن الكتاب يتسم بطابع أسطورى فعليه أن يعلم أن
سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتاب ابن هشام
قد برئت من الأسطورة !

وأن المعجزة لن تكون أسطورة إلا عند قوم لا يؤمنون
بمعجزات الأنبياء ! أما ما مهد به ابن إسحاق من قصص ظاهرة
الشطط عمن سبق رسول الله في التاريخ العربى البعيد فلن
يضير السيرة النبوية فى شىء ؛ لأن الكتاب فى أصله قد كان
تاريخ العالم بأجمعه كتبه ابن إسحاق بتوجيه أبى جعفر المنصور ،

(١) سورة التوبة آية ٧٧ ، ٧٨

(٢) «السيرة النبوية» ج٢ ص ٧٢ - (٣) «السيرة النبوية» ج٢ ص ٣٥٦ ، ص ١٠٥

وإنسان يكلف بكتابة سيرة العالم من لدن آدم لا بد أن يكتب في زمنه البدائي ما يتطرق إلى سمعه مستندا الى رواية ، وما وُجد في بيئته من علماء المسلمين من يهتم بتحقيق ما قيل في هذا الزمن البعيد ؛ لأن اهتمام هؤلاء الشيوخ كان منصبا إلى حديث الرسول وسيرته ، وما نزل عليه من آيات الذكر الحكيم ، وما جاء في سيرة ابن إسحاق عن ذلك صحيح وثقه الرواة ، وتداوله النقد التاريخي حتى تركه في مكان مطمئن من القبول الوثيق .

وقد شاء الله لهذه السيرة المباركة التي كتبها ابن إسحاق ، ونقحها بان هشام أن تصبح الأصل الأول لكتابة التاريخ النبوي فقد تضمنت من آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، وأقوال الصحابة والتابعين ما انتظمت منه هذه السيرة على نحو متسلسل ليسهل استيعابه في غير جهد لدى الباحثين ، وقد ظهر أثرها واضحا في جُل ما قيل عن رسول الله سواء كان ذلك في كتب التاريخ العام ، أو في كتب السيرة المتخصصة ، أو في كتب الطبقات الخاصة بصحابة رسول الله ، أو فيما وُضع من الموالد النبوية التي تقرب أحداث السيرة للعامة في نسق عاطفي مسجوع ، وإن كتابا هذا مكانه لجدير أن يكون في كل منزل ، وقد لقي من احتفاء المسلمين في كل عصر ما يناسب مكانته فتعددت شروحه واختصاراته ، ووُجد من نظم وقائعه في شعر تعليمي ينتسب الى الرجز ، وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ مصطفى السقا وزميلاه في صدر الكتاب ما يوضح ذلك مما يغني

عن إعادته وقد ختمت هذه المقدمة بما نختم به هذا البحث
حيث قال كاتبها المفضل :

(فابن إسحاق - في الحقيقة - هو عمدة المؤلفين الذين
اشتغلوا بوضع السير من بعده ، حتى يمكننا أن نقول : ما من
كتاب وُضع في السيرة بعد ابن إسحاق إلا وهو غرفة من
بحره ، هذا إذا استثنينا رجلا أو اثنين كالواقدي وابن
سعد^(١))

(١) «مقدمة السيرة النبوية» لابن هشام بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري .

ما قبل الرواد

منذ ظهر نبي الاسلام ، وذكره يتردد على الأفواه ، إذ كان شغل العرب الشاغل في حياته ، فالمسلمون يؤمنون به ، ويبدلون أرواحهم فداء ما جاء به من دين نبيل ، والمشركون يحشدون جهودهم لمقاومته بالقول والعمل ، لذلك كان حديثه شغل الفريقين الشاغل ، وقد مضى رسول الله الى ربه ، وبقي صحابته من بعده يتحدثون بمآثره ويتناقلون فضائله ، ويعملون على نشر دينه في الآفاق ، فإذا امتد الإسلام الى ارض جديدة ، جعل دعاة الدين الجديد يتحدثون عن نبي الإسلام وما قام به من نضال ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وليهديهم الى صراط الله الحميد ، وإذا كان عصر الراشدين ، وأمد متسع من عصر الأمويين لم يعرفا التدوين الكتابي لغير القرآن ، وعدة أحاديث نبوية جمعها بعض الصحابة فيما يرجحه الباحثون ، فإن أول مادون من الآثار كان حديث رسول الله الذي يجمع في غصونه ، فنونا من حياته التاريخية ، ثم انتقل التدوين الى سيرته الكريمة التي لم يجد كاتبوها عناء في تسطيرها ؛ إذ كانت تتردد على أفواه المسلمين في حب وإجلال وكأنما أراد الله - عز وجل - أن يحفظ تاريخ نبيه ، فجعله مشتركا موزعا بين علوم مختلفة ، فاذا وجدته مضموماً ملتئماً في كتب ابن إسحاق ومن حاذاه ، فإنك تجده مضمونا ملتئماً كذلك في كتب التاريخ العام

التي خصصت عهد النبوة بتفصيل تام ، ليكون مقدمة لما يليه من العصور الاسلامية المباركة ثم متفرقا في كتب الحديث ، وكتب التفسير ، وكتب الأدب ، وهذه الكتب جميعها مازال تتوالى على مرّ السنين حتى كونت تراثا موسوعياً هائلا ، يحار القارئ في استيعابه ، ولسنا نلقى القول جزافاً دون تدليل ، فأمامنا فهارس المكاتب العلمية تزخر بموسوعات شاملة لحياة الرسول منها ما اختص به وحده ، وما امتد منه الى سواه :

ففى مجال التاريخ العام أولا ما يتضمن من السيرة الخاصة للنبي مستقلة ومنذجة ، نجد كتاب ابن إسحاق فى السيرة النبوية ، ونجد كتاب تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبرى ، وجوامع السيرة للإمام ابن حزم ، ومغازى رسول الله للواقدي ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، ومروج الذهب ، والتنيه والإشراف للمسعودى ، والبدء والتاريخ للمقدسى ، وتاريخ اليعقوبى ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية ، والفصول فى اختيار سيرة الرسول لابن كثير ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، وإمتاع الأسماع للمقرئزى ، وإنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون للحلبى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وتاريخ أبى الفداء ، وعيون الأثر لابن سيد الناس ، والمحرر لابن حبيب ، وغيرها مما ينحو منحاهما وفى جمع السيرة مستقلة فى كتاب ، أوفاتحة لتاريخ الإسلام .

وفى مجال التراجم والطبقات ثانيا نجد مثل طبقات ابن سعد ، وطبقات خليفة بن خياط ، والمعارف لابن قتيبة ،

وصفوة الصفوة لابن الجوزى ، وشذرات الذهب لابن العماد ، والاستيعاب لابن عبد البر ، والإصابة لابن حجر ، وأسد الغابة لابن الأثير ، وكثير من هذا النمط نشير إليه ، ولا نستطيع احصاءه .

وفى مجال كتب الشئائل النبوية ثالثا نجد دلائل النبوة لأبى نعيم ، وزاد المعاد لابن القيم ، والخصائص الكبرى للسيوطى ، والشئائل للترمذى ، وأخلاق النبى وآدابه لابن حيان الأصفهاني ، والشفاء للقاضى عياض ، ومختصر زاد المعاد للإمام محمد بن عبد الوهاب ، والمختصر فى الشئائل المحمدية وشرحها لمحمود سامى وغيرها .

أما كتب التفسير وكتب الصحاح رابعا فأشهر من أن نشير إلى أسمائها فى هذا المجال ! فإذا كان لدينا هذا الطوفان الزاخر فى حياة الرسول وما اتصل بها من حيوات أصحابه الذين شاركوه جهاده ، وأتموا نشر رسالته فى ربوع جديدة سعدت بالإسلام بعد وفاته فإننا نجد مهمة كاتب السيرة النبوية فى عصرنا الحاضر سهلة شديدة السهولة من ناحية ، وصعبة شديدة الصعوبة من ناحية ثانية ، فهى شديدة السهولة لمن يجمع دون تمحيص فيسطر كل ما يعثر عليه دون تحقيق أو مراجعة !

وقد وُجد لدينا من نحا هذا النحو فجمع إلى الصحيح المخطئ ، وأضاف الى الطيب الخبيث ، والى السمين الغث ! وهى صعبة شديدة الصعوبة لمن يعرف أنه يعيش فى عصر

يزدحم بشتى الثقافات والمعارف ، وقد جدّ فيه مناهج الكتابة التاريخية ما يتطلب خبرة وافية بشتى الدراسات الإنسانية من نفسية واجتماعية وفلسفية مع ندرة قادرة على البصر النافذ ، والاستشفاف اللامع ، وفهم دلائل التطور ، وامتزاج الأحداث ، وطبيعى أن تكون الطريقة السهلة فى كتابة السيرة هى الطابع العام لأكثر ما وصل إلينا من كتب التراث ، فأنت تقرأ هذه الأسفار المتعددة ، فتجد الخلف ينقل عن السلف فى أكثر ما يسطر ، فإذا كانت هناك زيادات فإنها بعض إضافات من الموضوع من الأحاديث والأحداث ، إذ أخذ القصاص يضيفون للأحداث النبوية ما لا نجد أصلاً له فى الكتاب أو الحديث المعتبر ، أو فيما رواه الثقات الأول من المؤرخين ، وإذا كان بعض هؤلاء القصّاص يرتزقون بما يذيعون من أخبار النبوة بخاصة وأخبار الفتوح الإسلامية برجالها من الصحابة والتابعين بعامة ، فقد مالوا إلى التساهل فى بعض ما يقولون ، وقد صدقوا كل ملفق مما ادعاه المغرضون ، وجاء من وليهم من الكاتبتين فجمع كل ذلك دون تمحيص ، وهكذا مازالت أخبار السيرة النبوية تزيد وتتنسّع وتمتد إلى أبعد نطاق ، وبخاصة فيما يعرف بالخوارق والكرامات ، حتى احتاجت السيرة إلى غربال دقيق يبعد الدخيل ويؤيد الأصيل .

وقد زاد هذه الخوارق الموهومة تمكيناً ورسوخاً ما عُرِف باسم «المولد النبوى» إذ ظهر فى أوائل القرن السابع الهجرى غلط من التأليف القصصى يجمع أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فى

قصة متصلة السرد لتلقى في المحافل العامة على الجماهير المحتفلة بالمولد النبوى ، وقد أراد واضعو هذه القصص أن يستولوا على نفوس السامعين بمؤثرات كثيرة منها الترقيم الموسيقى فيما ينشد من الأشعار ، وفيما يقرأ من الأسلوب المسجوع ذى الفواصل المتفقة ، وهذا أهون ما يجلب الانجذاب المؤثر ، أما أصعبه أثرا في منطق السيرة فهو ما أضيف من الخرافات الموهومة التى تتعلق بحياة الرسول مما لا نجد له أصلا فى نص صحيح !

أجل لقد صادفت هذه الموالد ارتياحا لدى الساذجين من العوام على توالى العصور ؛ فاتجه إلى تأليفها نفر من العلماء حرصوا على استهواء السامعين بالغريب العجيب ! وكان الظن بهؤلاء المؤلفين ، وأكثرهم من العلماء الدارسين أن يكتفوا بالثابت الصحيح فى كل ما ينسب الى رسول الله ، ولكن اللاحق من هؤلاء وجد السابق يتساهل فى الرواية فيكثر من الخوارق صحيحة ومنتحلة دون تحرز ، فلم يجد حرجا فى أن يتتبع كل رواية ضعيفة فيروىها لتحديث تأثيرها فى النفوس ! وظلت هذه الموالد تتوالى بخوارقها الواهية ، وظل مؤلفوها يواصلون كتابتها فى كل عصر لتجذب العامة إليها بما تذكره من خيال ، وما يجدته إلقاؤها المنعم ، وأسلوبها المسجوع من أثر عاطفي يدفع إلى الإعجاب وطلب المزيد ! حتى كاد الصحيح من روايات التاريخ النبوى يضيع فى المختق الموهوم ، وحتى اضطرت وزارة الأوقاف المصرية أن تدعو الوعاظ فى مصر الى

توضيح ما في هذه الموالد من أباطيل حين يلقون دروسهم بالمساجد ليعرف العامة من السامعين أنها تجمع الغث والسمين ، يقول الدكتور زكى مبارك^(١) : «والذى يراجع الموالد النبوية يجدها مملوءة بالخرافات والأضاليل ، وقد احتمل الناس لغوها زمنا طويلا ؛ لأنها لم تكن تتلى إلا في البيئات العامة التي تصدق كل شيء ، ولكن وزير الأوقاف السابق سعادة محمد نجيب الغربلى باشا أذاع في شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ هـ كتابا فى الصحف يبين فيه أن الصيغ التي وُضعت للمولد النبوى صيغ قديمة كانت تتفق فى روحها وأسلوبها وألفاظها مع العصور التي وضعت فيها ، ولكنها لا تتفق مع العصور الحالية ، وأنها حشيت بقصص ضعيفة السند ، لا تصوّر المعروف من مولد الرسول وحياته فى صورته الصحيحة ، ثم دعا أهل العلم الى وضع صيغة جديدة للمولد النبوى يُراعى فيها أولا تحرى الأخبار الصحيحة الثابتة عن مولد الرسول وحياته ، وثانيا اتفاق الصيغة فى روحها وأسلوبها مع العصر الحاضر ، ثم وعد بتقديم مائة جنية لمن يقدم أفضل صيغة للمولد النبوى .

وقد قوبل كتاب وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية ، ولكن الدكتور طه حسين عارضة بمقال قال فيه : إن هذه الموالد تثير العاطفة وترضى الذوق ، ومن الأوفق ألا يحرم

(١) المداخل النبوية للدكتور زكى مبارك ص ٢٥٠ ط دار الكتب

الناس من خيال لا يخالف الدين ، ولا يفسد على الناس أمراً من أمور الإيمان ، وأى بأس - في رأى الدكتور طه - أن تتحدث إليهم قصص المولد بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبى ، وكلها يريد أن يكفله ولكنها رُدَّت عن هذا ؛ لأن القضاء سبق أن رضاع الرسول سيكون إلى حليلة السعدية ، وأى بأس على المسلمين فى أن يسمعو أن الجن والإنس والحيوان والنجوم استبشرت بمولد الرسول ، وأن الشجر أورك لمولده ، وأن السماء دنت من الأرض حين مسَّ الأرض جسمه الكريم^(١) .

هذا بعض ما قاله الدكتور طه حسين ، وإذا كان لا يرى بأساً فى إضافة خوارق لم تأت فى الآثار الصحيحة لتشعل عاطفة المسلمين فإننا نرى فى ذلك بأساً أى بأس !! لأن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ، ويأخذونه بكل ما فى كتب السيرة والدين من أقوال باطلة ! ثم يحكمون عليه بأنه يصادم العقل ويغل التفكير ، وهذا ما كان فعلاً حين وقع الشرق الإسلامى فى نير الغرب المستعمر ، واندفع المبشرون من المستشرقين ينقبون عن هذه الخرافات وأمثالها فى كتب التراث الإسلامى ليظهروا غيبة الفكر الدينى وغفلته ، وليقولوا : إن الإسلام لا يركز على أدلة صحيحة تجدد نصيرها فى الفكر السديد ، ولقد كانت السيرة

(١) مقال الدكتور طه حسين ، جريدة «الوادي» ، اول اغسطس سنة ١٩٣٤ م

النبوية بما وُضع فيها من الأباطيل مسرحا لهجوم هؤلاء المناوئين ، وكان نبي الإسلام موضع التشكيك لديهم حين يصطنعون البحث التزيه ليلصقوا به ما هو برىء منه من هذه الأباطيل ، ولا ننسى ما قام به الأستاذ محمد عبده في القرن الماضي من ردود حاسمة على هؤلاء حين أكثروا القول في مسألة الغرائق ، واتخذوا منها أداة لتوهين الإسلام ، وحين تحدثوا عن زواج زينب بنت جحش برسول الله ، وطلاقها من زيد بما يدل على افتراء كاذب متعمد مبعثه الغلّ الدفين ! فجاءت ردود الأستاذ الشيخ محمد عبده كاشفة كل شبهة يحوكمها الخراصون في هذا النطاق ، ولولا ما ترددّ في صحف السيرة في الروايات المدخولة والأخبار العليّة ، ما استطاع المبشرون من كتاب الاستشراق أن يضعوا السّم في الدسم بما يأفكون ! ولقد تضافرت جهودهم على هذا الكيد منذ قرن ونصف ! حتى تنبّه العقلاء إلى ضرورة كتابة السيرة النبوية ، والبحوث التشريعية على نحو صادق عاقل ، يتجه إلى تمحيص الحقائق لإثباتها ، وتفنيد الأباطيل كيلا تكون عبئا على الإسلام والمسلمين ! وقد بدأت كتابة السيرة النبوية في هذا العصر على نحو ينتظر ولا يستغرب ، إذ عمد المتقدمون في زماننا هذا إلى كتب المتقدمين لينقلوا منها مطمئين ، وكتاب رفاعة رافع الطهطاوى أول ما نعرفه في السيرة النبوية المعاصرة ، وهو خلاصة طيبة لحياة المختار - صلى الله عليه وسلم - قليلة الحشو بادية الاختصار من حيث الأفكار ، وإن اتسمت بطابع العصر من

حيث الاسلوب ، فكتبت بميل إلى التكلف الإنشائي بعض الميل مما يباعد بينها وبين قارئ اليوم ، ثم جاء السيد أحمد زيني دحلان مفتي السادة الشافعية بمكة فوضع ما سماه (السيرة النبوية والآثار المحمدية) وصادف كتابه حظوة لدى معاصريه ، وقد طبع على هامش السيرة الحلبية المعروفة بـ (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) لعلي بن برهان الدين الحلبي ، ولا أدري أراج بروجها أم راجت برواجه ؟ إلا أن مطالعه يراه قد اعتمد كثيرا على كتب المتأخرين دون المتقدمين ؛ فنقل بعض ما كان يجب التوقف دون سرده ، وجاء الشيخ يوسف النبهاني فاختصر كتابه : (الأنوار المحمدية) عن مواهب القسطلاني ؛ إذ يبدو ذلك واضحا لمن يقرأ الكتابين مع امتياز القسطلاني بطبيعة تميل إلى الاعتدال دون الاعتداد المفرط الذي تراه فيما خلف النبهاني من آثار ، وله كتاب (جواهر البحار في فضائل النبي المختار) وكتاب : (الفضائل المحمدية) والثاني في رأيي تكرار للأول حتى ليغني أحد الكتابين عن أخيه ، وقد راجت مؤلفات النبهاني فساعدت على انتشار إضافات موهومة ، ليست في صميم السيرة المطهرة ، ثم ازدهرت المطبعة العربية فنشرت فيما نشرت كثيرا من كتب الخوارق دون تعليق كاشف ، في وقت طغى فيه بغى الاستشراق ، وزاد تتبعه لشواذ الروايات يجعل منها هدفا للطعن والتجريح ، وتطلب الموقف كتباً معتدلة تعرض النصّ الصحيح للسيرة النبوية دون تزيّد مغرض ، وفي كتاب رفاعة

الطهطاوى : (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) تقريب معتدل للأحداث دون بسط ، وهو خطوة أولى تلتها فى مصر خطوات موفقة ؛ إذ حاول نفر من الدارسين الممتازين بما سلسلوه من أحداث السيرة أن يشبعوا به ربة القارىء العازف عن المبالغات ، وكان فى طليعة هؤلاء الأستاذ الشيخ محمد الخضرى رحمه الله حين كتب مؤلفه الشهير «نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين» فكان كتابه أقوى سرد معاصر يكتفى بعرض الأحداث بعيدا عن التعليق المسهب من ناحية ، وبريثا من شطط المبالغين من ناحية ثانية ، وقد رزق (نور اليقين) حظوة بالغة حيث بلغت طبعاته خمسا وعشرين طبعة ، وهو رقم لا نعرفه لغير الكتب الدراسية التى توزع على طلاب المدارس فتتكرر طبعاتها بتكرر الأعوام ! وهذه الشهرة الممتدة لكتاب الشيخ الخضرى تجعلنا نعدّه أول اتجاه صحيح لتقريب السيرة النبوية من المعاصرين على نحو يشبع غلة القارىء المتوسط دون أن يضيق به القارىء المثقف إذ جرد الأحداث ممّا أرهقها من المبالغات ، ومهّد تمهيدا طيبا لمن جاء بعده كى يشبعوا هذه الأحداث الصادقة تحليلا وتعليلا ، وحسبه أن اختار فأحسن ، ولا بد أن نقف لدى نور اليقين وقفة تعطيه حقّه العلمى وقد منحه الله مزيد القبول .

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه : أنه كان يجد فى نفسه منذ النشأة الأولى ارتياحا لقراءة تواريخ السالفين ، ويجدها أحسن مذهب لعقل الانسان ، وكان يرى فى تاريخ نبي الإسلام - وهو

المجاهد الصابر الداعية للحق القويم - أعظم مرب لأفكار المسلمين ، فيجد في قراءة سيرته ارتياحا عظيما ، على حين يأسف لترك المسلمين إياها لتطويل الكتب الخاصة بها على نحو لا يسعف بالفهم المباشر الجامع ، يقول الأستاذ رحمه الله .

(فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم القاضي بمحكمة (المنصورة المختلطة) فوجدت منه علما بدينه تقف دونه فحول الرجال ، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم - صلى الله عليه وسلم - فعنده منه الخبر اليقين ، وكنت كثيرا ما أسمعته يتشوق لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين ، فقلت : يا لله ، لقد وافق السيد الكريم ما في نفسي ، ولكني كنت أرى في عزيمة قصورا عن تلبية رغبته وتتميم أمنيته ، فإن المقام عظيم ، وصعوباته أعظم ، ولكن لم أر من الأمر بدءا تلقاء ما كنت أسمع من كبار رجال (المنصورة) فإنهم أكثروا من الأمان لعمل هذا الكتاب العميم النفع ، الجزيل الفائدة فقامت معتمدا على الله راجيا منه أن يوفقني لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى فجاء - بحمد الله - سهل المنال ، عذب المورد تنتفع به العامة ، وترجع إليه الخاصة ، وقد كان موردى في تألفيه ، القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم ، ولم أخرج عنها إلا فيما لا بد من تفهيم العبارات ، فكان يساعدني (الشفاء) للقاضي عياض ، و(السيرة

الحلبية) ، و (المواهب اللدنية) للقسطاني ، و (إحياء علوم)
الدين للغزالي (١) .

لقد وضع المؤلف هدفه من تأليف كتاب في السيرة النبوية
يخلو من الحشو والتعقيد ، يكون سهل المنال عذب المورد
بحيث تنتفع به العامة وترجع اليه الخاصة ، وقد جعل القرآن
الكريم وما رواه الإمامان البخاري ومسلم معتمده في سيرة
رسول الله ! لا يخرج عن ذلك إلا ليفهم ما بالقرآن والحديث
الصحيح من عبارات ، وفي سبيل هذا الفهم المحدد بدائرتي
الكتاب والسنة فحسب رجع الى الشفاء والسيرة الحلبية ،
والمواهب اللدنية وإحياء علوم الدين ! لقد حدّد الكاتب
غايته ، وضيق محاسن اتسع من المراجع ليلبغ غايته من وجه
قريب ! ثم كتب مؤلفه فماذا صنع ؟

لم يذكر الخضرى (سيرة ابن هشام) في مصادره ، ولكن
وجهها يلوح ساطعا في أكثر ما كتب ، لأن ما رجع إليه مما ذكر
قد استقى منها ، فظهرت بطريقة غير مباشر ، ظهرت في
تسلسل أبواب الكتاب على نحو يقرب من تسلسل السيرة
الأولى وإن اتسعت لكثير مما ضاق عنه (نور اليقين) ، لأن
مؤلفه أراد اللباب الخالص من السيرة دون الحواشي
والأطراف ، فبدأ الكتاب متحدثا عن نسب الرسول من جهتي
أمه وأبيه وقد وقف به عند عدنان قائل (٢) : (انه النسب المتفق

(١) المقدمة ص ٢

(٢) «نور اليقين» ص ٥

على صحته من علماء التاريخ والحديث ، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق ، غاية الأمر أنهم اجمعوا على أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتهي الى اسماعيل بن ابراهيم) وهو تعليق موجز يصيب الهدف دون استرسال .

ومضى يتحدث عن زواج عبدالله بآمنة وعن مولد الرسول ورضاعه في بني سعد راوياً شق صدره الشريف ، وأوجز كثيراً في الحديث عن وفاة آمنه وكفالة عبدالمطلب لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم وفاته وكفالة أبي طالب إياه ، لأن ذلك كله جاء في عشرة سطور ، ولكنه أطل بعض الشيء في حديثه عن حرب الفجار وحلف الفضول ، ثم انتقل الى رحلة الرسول الى الشام في تجارة خديجة - رضى الله عنها - ليعقبها بزواجه منها في إيجاز لامح ، أما بناء البيت فقد احتاج الى أبسط أوفى كبسطه الحديث عن معيشته عليه السلام وسيرته في قومه قبل البعثة وما أكرمه الله به قبل النبوة من بشائر تدل على رسالته ، وللخضري تعليقات خاصة تتخلل حديثه المطرد ، وهي على إيجازها النسبي تنبئ عن بذرة المؤرخ التي ستتمو عند الكاتب فيما يلي من حياته حين يدرس التاريخ الاسلامي العام بالجامعة المصرية ، ويؤلف ما عرف بمحاضرات (تاريخ الأمم الاسلامية) في ثلاثة أجزاء تشمل صدر الاسلام ، والدولة الأموية ، والدولة العباسية ، ومن هذه التعليقات ما ذكره تحت عنوان (معيشته عليه السلام قبل البعثة) إذ أشار الى يتمه وفقره

واشتغاله برعى الغنم وعلق على ذلك بقوله^(١) (ووجود الأنبياء في حالة التجرد عن الدنيا ومشاغلتها أمر لا بد منه ؛ لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا ، وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ، ولذلك ترى جميع الشرائع الالهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها ، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ، فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا ، وكذلك كان موسى وإبراهيم ، وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة ، بل كلهم سواء ، تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ، ليكونوا نموذجا لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها ، وذلك سبب البلايا والمحن ، وكذلك رعاية الغنم فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث البخارى) .

وهو تعليق أقرب الى الوعظ منه الى تحليل التاريخ ، وسرّ ذلك أن المؤرخ الفاضل قد كتب السيرة المطهرة مرشدا وهاديا ، لا محلا متفلسفا ، ولكل وجهة هو موليتها .

ويتابع الحديث عن بدء الوحى وفترته وعودته ، وعن الدعوة السرية للدين الخفيف ذاكرة من سبقوا إلى الخير مستجيبين لنداء الإسلام من الأغنياء والفقراء معا ليختم المؤلف موضوعه بقوله^(٢) .

(١) «نور اليقين» ص ١٥

(٢) «نور اليقين» ص ٣٥

«ولم يكن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (في بدء الدعوة) سيف يضرب به الناس ليطيعوه ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ، ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه - عليه السلام - كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد ، والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول ، بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالأ ، وأنعم عيشة ، اللهم ليس ذلك إلا هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة ، وما عليه رسول الله من الهدى .

وهو تعليق أوفق إصابة من سابقه ، ولو أجاز المؤلف لنفسه أن يعلق على كل موقف لجاء بخير كثير ، ولكنه وضع الهدف أمامه لا يكاد يتعداه حين عزم على أن يقدم سيرة خالية من الحشو والتعقيد ، لنقف أمام المجلدات الغاصة بما يقبل وما يرفض معا!

ثم مضى يتحدث عن الجهر بالدعوة ، وإيذاء قريش للمسلمين في إسهاب معتدل ناصع ، وعن إسلام حمزة واشتداد الأذى على المستضعفين ، وهجرة الحبشة الأولى ، وما كتبه في هذا المجال جليّ متسق كأنه قصة متسلسلة لم يتعمد الكاتب تأليفها ، ولكن راعى سير الأحداث فتم له اتساق الإسلوب واطراده مع تأثير عاطفى ينفذ إلى القلوب ! وإذا أراد القارئ أن يقف على نموذج من سرده الهادىء للواقع التاريخي مما وعى

مضمونه من كتب السابقين كما وقف من قبل على نموذجين من
تعليقه الذاتى - فليستمع إلى ماكتبه الخضرى تحت عنوان
(إسلام عمر) حيث قال^(١) :

«وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب
العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهة المسلمين وشدة
أذاهم ، قالت لىلى - إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع
زوجها : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى
إسلامنا ، فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة ،
إذا أنا به ؛ فقال لى : إلى أين يا أم عبدالله ، فقلت ، آذيتونا
فى ديننا : نذهب إلى أرض الله حيث لا تؤذى ، فقال :
صحبكم الله ، فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقة
عمر ، فقال : ترجين أن يسلم ، والله لا يسلم حتى يسلم
حمار الخطاب ، وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على
المسلمين ، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى - صلى الله
عليه وسلم - إذ قال - قبيل إسلامه : (اللهم أعز الإسلام
بعمرو) وكان إسلامه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم التى كان
المسلمون يجتمعون فيها ، وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه
- عليه السلام فقد قال عبدالله بن مسعود - من رواية
البخارى : (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر) فإنه طلب من رسول
الله أن يعلن صلاته بالمسجد ففعل ، وقد أدرك الكفار كآبة
شديدة حينئذ رأوا عمر قد أسلم ، وكانوا قد أرادوا قتله حتى

اجتمع جمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمي ، وهو من بني سهم حلفاء بني عدى قوم عمر ، وعليه حلة حبرة ، وقميص مكفوف بحرير ، فقال لعمر : ما بالك ؟ فقال : زعم قوم أنهم سيقتلونني إن أسلمت ، قال : لا سبيل إليك فأنا لك جار ، فأمن عمر ، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد هذا بن الخطاب الذي قد صبا ، قال : لا سبيل إليه ، فرجع الناس من حيث أتوا .

هذا نموذج مما كتبه الخضرى عن إسلام عمر ، وبمراجعة المصادر الأولى نجد أنه لم يقتصر على رواية واحدة ، بل نظم مما تناثر من الروايات المختلفة حديثا متماسكا يتضمن : بدء إسلامه ثم إعلانه بالمسجد ، وما أعقب ذلك من هياج عليه ، وتدخل للعاص بن وائل دافع به عن جاره ، فكان الموقف الوحيد الذى يحمد - وحده - للعاص ، كما أنه ترك مشاهد مهمة فى قضية إسلام عمر ، فلم يتحدث عن موقفه مع أخته (فاطمة بنت الخطاب) وزوجها (سعيد بن زيد) ، وحديثه مع (نعيم بن عبدالله) حين حرضه على صهره وأخته ، ثم استكانته حين أخذ الصحيفة ليقراً آيات كريمة من سورة طه (واتجاهه إلى مجلس) رسول الله ، كى يعلن إسلامه ، وعزم (حمزة بن عبدالمطلب) على منازلته إذا أراد سوءا بالمسلمين ، إلى آخر ما اشتهر أمره فى إسلام عمر ، ولعل الكاتب قد عرف اشتهار ذلك كله عن عمر فاكتفى ببعض عن بعض ؛ ليكون

ما قاله مذكرا بما لم يقل ، بدليل أنه سجل موقف العاص بن وائل عند إسلام عمر ، وهو موقف مجهول لغير الخاصة ! فكان النص عليه مما يقدّم الجديد .

تابع المؤلف نهجه ، فتحدث عن الرجوع من الحبشة ، وكتابة صحيفة المقاطعة ونقضها ، منتقلا إلى عام الحزن حين ماتت خديجة وأبو طالب ، وله تعليل جيد لمتنع أبي طالب عن الإسلام حيث رأى في ذلك حكمة مسترة ؛ إذ لو بادر عم الرسول والهاشميون جميعا باتباعه لقليل : إنهم قوم يطلبون السيادة القبلية فجاءوا بدعوى النبوة ، وتعاهدوا جميعا على نصرتها ، أما وأكثر تابعيه من الغرباء عن عشيرته ؛ بل من أعدائها أحيانا كعثمان بن عفان الأمويّ ، فإن ذلك يمنع كل شك في حب السيادة الأسريّة ، وقريب من هذا التعليل ما ذهب إليه المؤلف في التعليق على هجرة المسلمين مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة ؛ إذ رأى أن قريشا لو طاولت النبي فرضيت جميعها بالإسلام ، ولم تقاومه هذه المقاومة التي اضطرتّه إلى الهجرة مع أصحابه ، لو طاولت قريش رسول الله وأسلمت مختارة لقال المغرضون : إن قريشا أرادت ملك العرب ؛ فعمدت إلى سيد سادتها ، وأوعزت إليه أن يدعى النبوة لتصبح بابا لسيادتها العامة ، أما وقد قاومت قريش الدعوة ، وضيقّت عليها حتى وجدت منفذها الفسيح في المدينة ؛ فإن ذلك لحكمة بالغة وبتقدير رشيد ، ولا نريد أن نكتب فهرسا لكل ما خطّه المؤلف ، فالرجل قد تابع أحداث

السيرة المطهرة متابعة أمينة من مبتدئها إلى وفاة نبيها الكريم ، وله جهد خاف إلّا على ذوى البصر الناقد ، حين يرى فى التراث السالف للسيرة النبوية عدّة روايات تتفق وتختلف فيقرؤها ويوازن بينها موازنة مستأنية ، ثم يختار منها ما يرجع لديه وقوعه ويقدمه للقارئ فى تسلسله المطرد ، وكأنه لم يبذل عناء فى الترجيح والاختيار ، وقارئ (نور اليقين) عليه أن يدرك ذلك فلا يطالب كاتبه بتسجيل رواية تحطّاه دون إشارة ، أو يؤاخذ على الاهتمام بحادثة لم يهتم بها أكثر سابقه ، فالرجل سلفى نقى يتوجّه فى حديثه الوجهة الملائمة لفطرته الواضحة فى سهولة تنأى به عن التكلف ، وتواضع لا يعرف الشموخ !

وإذا كان قد أعرض كثيرا عن شبهات المتخرصين مؤثرا ألا يشغل الأذهان بضباب حائر لا يلبث أن ينقشع تلقائيا دون جهاد ، وكأنه اكتفى بما قاله معاصروه فى تبديد هذه الأراجيف .

إذا كان المؤلف قد أعرض كثيرا عن هذه الشبهات فقد خالف نهجه السردى حين ناقش (أسطورة الغرائيق) فنقل عن (القاضى عياض) فى (الشفاء) أن سند الحديث المزعوم لم يخرج من أحد من أهل الصّحة ولا رواه ثقة مأمون ، وأما المتن المختلق فباطل الهراء إذ لا يعقل أن يسمع أصحاب الرسول والمشركون معا مديح الأصنام بأنها الغرائيق العلا وأن شفاعتها لترتجى ، ثم يسمعون عقب ذلك قول الله عز وجل : (إن هى إلا أسماء

سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يقول الخضرى^(١) (فالكلام غير منتظم ، ولو حصل ذلك لاتخذ الكفار حجة عليه يحاجونه بها وقت الخصام ، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه ؟ وليس هذا القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة ، وقد قالوا فيه ما قالوا حتى ساهم الله سفهاء ، وقال فيهم : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) كما أدلى المؤلف بدلوه في الدلاء حين تعرض إلى زواج الرسول بابتنة عمته (زينب بنت جحش) فجاء باختصار شديد يبدد ما زعمه الأفكون من أن رسول الله رأى وجهها مصادفة حين كشفته الريح ف وقعت في قلبه ، فقال الخضرى^(٢) (وما يكذب هذه الدعوى أن نساء العرب لم تكن حينذاك تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته وقد أسلمت قديماً - ورسول الله بمكة - فكيف لم يرها وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات إلا حين رفعت الريح لثامها عن وجهها مصادفة ! وهو الذى اختارها لزيد ، وزوجها إياها ، بمشيئته ! ولو كان يحبها لاختارها زوجة له دون أن يمانع أحد .

هذا وقد ختم المؤلف كتابه بفصل قوى يتحدث في تفصيل واضح عن شمائل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الفاضلة ،

(١) «نور اليقين» ص ٥٩

(٢) «نور اليقين» ص ١٧١

واحداً من النبيلة معترفاً في الهامش أن جل ما ذكره في الشئائل والمعجزات مختصر من (كتاب الشفاء) للقاضي عياض - رحمه الله - وقد مهّد لهذه الشئائل بمقدمة هادئة تتحدث عن خصال الكمال البشرى ، وتقسمها إلى ضرورية محتومة ، ومكتسبة يُسعى إلى إيجادها ، ومضى يفصل هذه الصفات ليدخل فيها ما اشتهر من أخلاق الرسول حسياً ومعنوياً ، وقد أحسن فيما كتبه كل الإحسان ، إذ قدّم درساً خلقياً نافعا لكل من يريد أن يخطّط في حياته خطة الكلمة المهتدين من أصحاب الرسالات ، أما ختام الكتاب فحديث متّئد عن المعجزات المحمدية يجمع ما تعرف منها في سهولة وتبسيط .

وللشيخ الخضرى حديث عن حياة الرسول في (مقدمة الجزء الأول) من محاضراته التاريخية التي أَلَمَعْنَا إليها من قبل ، وقد سلك فيه مسلك الإيجاز دعاية لمنهج الطلاب الذي يشمل مسائل كثيرة في سنة واحدة ، وإن كان الأستاذ قد اختص التشريع الإسلامى بمكة والمدينة في محاضراته التاريخية ببسط شاف دقيق ، إذ رأى من كمال السيرة النبوية أن تلحق بما جاءت به من تشريع على وجه الإجمال لتكون تعاليم الإسلام واضحة لدى مَنْ يطالع تاريخ نبيّه الكريم ! وفى بعض ما ذكره في المحاضرات مواقف لم يشر إليها في (نور اليقين) مثل مناظرة جعفر بن أبى طالب لعمر بن العاص أمام النجاشى بالحبشة^(١)

وغيرها مما يؤكد أن عمله في المحاضرات متمم لكتابه (نور اليقين) بل أنه تراجع عن بعض ما ارتآه في نور اليقين مثل تفسيره النسيء بإضافة شهر على رأس كل ثلاث سنوات لتكون السنة القمرية شمسية مختاراً أن يكون معنى النسيء : إحلال شهر من الأشهر الحرم وتحريم ما بعده ليستطيعوا القتال في شهر حرام فيواطئو عدة ما حرم الله ليحلوا ما حرم ! وقد أشار الى مراجعته^(١) مدعنا لما اتضح له من الحق الصريح .

لقد جاء نور اليقين خطوة عملية لتقريب السيرة المطهرة على نحو تهش له النفوس ، وقد تتابعت من بعده عدة كتب تنحو منحاه مثل (مورد الصفا في سيرة المصطفى) للشيخ أحمد الحملاوي ، و(النبي محمد) للشيخ محمد حسين الأزهرى و(خلاصة السيرة المحمدية) للسيد رشيد رضا ، ولكنه حظى دونها برواج ممتد ذائع ، وبه وبما تلاه أصبحت سيرة رسول الله في تناول كل قارئ ، ويمكننا أن نقول : إن الخضرى بالتزامه الوقوف عند الوقائع والأحداث دون اتساع في التفسير ، يذكرونا بفريق مضاد من الدارسين ، يأتي للحادثة الواحدة فيجعلها أساساً لاستنباطات كثيرة ، ويبنى عليها ما يستطيع أن يقوم به ذكاؤه من آراء تتقارب وتتباعد ، وهذا الطراز من الباحثين يغالى في مذهبه مغالاة إن دلت على حسن الاحتيال ، وبعد النظر ، فقد شطت بالقارئ عما يجب أن ينتهى لديه من الحدود المعقولة ! وإذا كان صنيعه مما يرضى حاجات الخاصة

العقلية فإنه من وجهة مقابلة يوصد منافذ الشعور بما يعرض من
حجاج قد تصطدم فيه الآراء على نحو متعب ، والأولى أن نتأد
في السردون اعتساف ، وسنرى فيما يلي هذا الفصل نماذج شتى
لما اتجه إليه كاتبو السيرة النبوية في عصرنا الحديث .

محمد المثل الكامل

(محمد المثل الكامل) اسم لكتاب جديد وضعه المغفور له
الاستاذ محمد أحمد جاد المولى عن رسول الله - - صلى الله عليه
وسلم - قبل أن يبدأ قادة الفكر الأدبي في مصر كتابتهم عن نبي
الإسلام ، وقد رجعوا إليه فيما رجعوا من مصادرهم المختلفة ،
كما طبع الكتاب عدة طبعات ، وترجم الى الفارسية وغيرها فيما
نعلم ، وهو - بذلك - ذو أثر واضح في الكشف عن النواحي
الخلقية الممتازة من صفات رسول الله - عليه الصلاة والسلام .
ومؤلف الكتاب عالم مفضل من علماء الأخلاق درس في دار
العلوم ، وأتم دراسته في أوروبا ، ورجع إلى مصر ليشغل عدة
وظائف علمية وتعليمية بارزة ، وكانت حياته العملية مثالا
يحتذى لزملائه ، إذ نفعته دراسته المثمرة في علم الأخلاق ،
فاكتسب هدوء النفس ، وسكينة الروح ، ومال إلى السلام
الهاديء مع رؤسائه ومرؤوسيه ، والمودة الطيبة مع أصدقائه
وعارفيه ، فإذا كنا نجد انفصاما شاسعا لدى بعض أساتذة
الأخلاق بين ما يقولون وما يعملون ، فإن مؤلف (محمد المثل
الكامل) لم يكن من هؤلاء ، إذ حاول أن يأخذ نفسه بما يأمر به
الناس من شمائل الإنسانية الملهّبة ، وهو مسلك صعب المرتقى
لا يتسنى ذروته غير من يتمسك بالعزم والحزم حتى يتغلب على
الضعف النفسى الذى لا يكاد ينجو منه أحد .

وقد كتب الأستاذ محمد أحمد جاد المولى مؤلفاً ضخماً في أربعة أجزاء كبار تحت عنوان «الخلق الكامل» شرح فيه آراء علماء الإسلام مقارنةً بآراء أساتذة الغرب في مسائل التربية الخلقية ، والسلوك القويم ، واعتبر القرآن الكريم ميزاناً دقيقاً للحكم على الاخلاق عالية وهابطة ، واستضاء بأحاديث الرسول ، وسير القادة من الصحابة والتابعين ، وتحدث عن العواطف والغرائز والانفعالات حديث الدارس المستوعب لثقافة عصره ، المطلع على ما كتبه أعلام ملته في مطويات مؤلفاتهم التي لم يقدر لها ما يستحق من الذبوع ، ولكي لا نحسب مبالغين في الحديث عن كتابة الخلق الكامل ، فإننا نقل ما قاله عنه باحث منصف محاييد هو الأستاذ (محمد كرد علي) بمجلة الرسالة العدد ١١٠^(١) «يتألف من كل باب من الأبواب التي عاجلها «الخلق الكامل» رسالة جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها ، وقد قال : إن فلاسفة العرب ، وإن كان يرجع إليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل ، فهم لم يبينوا مناهجها ، ولم يضعوها لها حداً فاصلاً بين ما يحقق الفضيلة وما لا يحققها ، فإنهم لم يذكروا متعلق العفة ولا أي شيء تكون ، ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه المرء وقع في الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقفه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ؟ وكذلك الشجاعة فأفاض «المؤلف» في الفلسفة الخلقية ، وينابيعها والعواطف والانفعالات والعادات والبيئة ووسائل تقويم الخلق ، ووجوه

(١) السنة الثالثة سنة ١٣٥٤ هـ والموافق سنة ١٩٣٥ م .

الخير ، ومظاهر التربية في الأمم الغربية والشرقية ، ومظاهر الأخلاق الإسلامية ، ومظاهر الأخلاق الفردية ، ومظاهر الخلال الاجتماعية الى غير ذلك من الأبحاث التي خاض عابها ، وجزأها أجزاء ، ومزج فيها الكلام في القديم والحديث على النحو الذي تقبله النفوس ولا يكون مثالا غير حتى لا ينتفع به قارئه لبعده عن مستوى عقله وخلقه وعادته وحاجته .

هذا العالم الأخلاقي الكبير أراد أن يقدم للناس صورة مثالية لإنسان كامل ، تكون موضع القدوة بأخلاقها العالية فتصبح تطبيقا عمليا لما دعا إليه في بحوثه العلمية ، وواقعا ملموسا بأحداثها الحقيقية يشير الى نهج امل يجب احتذاؤه ، فكان محمد - صلى الله عليه وسلم - هو المثل الكامل حقاً !

ولقد عاش الكاتب بروحه وعقله مع الرسول الكريم فتتبع حياته حلقة حلقة تتبع الراصد اللامح ، وإذا كان الله - عز وجل - قد قال - في نبيه الكريم : « وإنك لعلی خلق عظیم » وإذا كان الرسول قد قال عن نفسه إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، فإن إيمان المؤلف بقول الله وكلام الرسول لم يحل دون أن ينقب عن البراهين الدالة على تحقيق النص القرآني ، والحديث النبوي ، مستضيئاً بدراسته الواسعة في علمي النفس والاجتماع ليستكشف عناصر الأسوة الحسنة في أكمل سيرة عُرِفَت في التاريخ ، حتى إذا وجد الذخيرة الكافية من وقائع السيرة النبوية بدأ يخطط كتابه على نهج خلقى يجعل من التاريخ

الصادق دليله القوى وبرهانه الوطيد ، وقد كشف المؤلف عن هدفه التأليفى حين قال فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابه .

فقد طالعت ما أدى إليه البحث من المثل الكاملة التى صورتها العقول البشرية جيلا بعد جيل فألقىتها مظهرا لبيئة الحكماء الذين تمثلوها ، وأمزجتهم وعقائدهم وطرق تفكيرهم ، وأنها على الدوام فى تدرّج وتحوّل وفقا لمقتضيات الزمان والمكان ، وتحقيقا للأمانى التى تجول فى صدور بنى الإنسان ، وأن أحدا منها لا يصلح لذلك أن يكون هداية عامة لبنى الإنسان جميعهم على اختلاف زمانهم ومكانهم ، ولما كانت سيرة محمد - صلى الله عليه وسلم - من مولده الى مماته ثبوتا لا مرية فيه ، فجميع أعماله مدوّنة ، وأحاديثه مسطرة شاملة لما يحتاج اليه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم ، وحياته ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض بنى الانسان من تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم وإصلاح شئونهم كان هو المثل الكامل^(١) .

لقد حدّد المؤلف هدفه فى أول صفحة من كتابه ! هذا الهدف الذى يوجب رسم صفات مثالية أهلت صاحبها للقدوة النموذجية للإنسانية ، ولا بد أن تصوّر هذه الصفات فى أبواب متصلة ، يجمع كل باب وقائع مسلّمة معروفة لا يمتري فيها عدو أو صديق تدل على صفة عالية من الصفات ! فالكتاب إذن لا يعرض سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عرضا تاريخيا من المولد الى الوفاة كما يكتب مؤلفو السيرة ، ولكنه يعرض

(١) مقدمة الطبعة الأولى . ص (ش)

أحداثاً مرتبة تدل على أكمل الصفات الإنسانية الرائعة في
فصول تتابع ، وهذا ما بينه المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة
حيث قال :

(وليست طريقة هذا الكتاب بسبيل مما جرى عليه من ألفوا
في السيرة على تباين كتبهم الكثيرة ، فهم إنما يؤرخون حياته
الشريفة بحسب زمانهم ، وما يتبعها من الوقائع ودورائها ،
وإنما رأيت أن أعدل عن ذلك الى طريقة أخرى يصبح النفع بها
أتم ، والفائدة أيسر ، والجدّة فيها أظهر) .

هذا ما قاله المؤلف ، وأما الآن كتابه الهادف نطالعه لنرى
إلى أى أمد أصاب حظه من التوفيق ؟ لقد بدأ باباً الأول بعنوان
(إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ترد الفضائل جميعها) فوازن
موازنة سريعة بينه - صلى الله عليه وسلم - وبين من ساسوا
الشعوب وترأسوا الدول ، حين مالوا الى النفع السياسى ، وإن
جانب الخلق ، واعتصم نبي الإسلام بأخلاقه الرفيعة وإن
عوقت نصره الى أمد ، وأشار إلى أثر البيئة في ظهور عظمائها حين
نراهم جميعاً يترجمون عن آمال قومهم فتسهل عليهم قيادتهم ،
فكل عظيم من هؤلاء روح عصره ، ولكن رسول الله لم يحىء
جارياً على هذه السنة ، فما كانت بيئته الجاهلية لتسمح بظهور
مصلح مثله ! لقد جاء والعرب في جهل مطبق بالعلاقات
الاجتماعية والسياسية ، فلم يكونوا يعرفون شيئاً عن العلاقات
الدولية ، وكانت كل قبيلة كأنها أمة قائمة بنفسها ، تتحفز لشن
الغارة على جارتها ، فكيف يظهر من بينها من يضع أرقى

الأسس لسيادة الناس ، و يقيم دينا ويكوّن دولة ، ويحيى أمة إلا أن يكون مبعوثاً من السماء ! وإلا أن يكون ذا مقومات خلقية نادرة تجعله ذا صوت مسموع ورأى مطاع .

هذا إجمال أوجزه مؤلف (المثل الكامل) ، ليردّ على نفر من باحثي الغرب أرادوا أن يهونوا من أثر صاحب الدعوة الإسلامية فزعموا أن العرب لعنده كانوا يتطلعون لمصلح يقودهم إلى ما ينشدون من رفعة إنسانية ، إذ أحسوا بهوانهم السياسى ، وضعفهم الاجتماعى ، وسموا بنفوسهم الى منزلة سياسية ذات مستوى مماثل للفرس والروم ، وجاء الرسول ليجد الثمرة دانية القطوف فيسرع الى اقتطافها فى سهولة ويسر !

هذا ما حاول بعض المستشرقين أن يروّجه ليجعل الدعوة الإسلامية نتيجة محتومة لتطلعات قوية كانت تتحفز للوثوب ! ولو كان الأمر كذلك لما حورب رسول الله من أهله وقومه محاربة ألجأته إلى الهجرة من مكة حفاظا على دينه ! ثم ما استهدفت لمؤامرات اليهود والمنافقين فى المدينة ! ولكنه قرع الأسعاع بما يعدّ غريبا مدهشا على الناس ، فسمعوه حائرين مبهورين ، ولو كان العرب متوثبين الى النهوض لتلقائيا لتقدمهم الحضارى كما يزعم هؤلاء لما جاهد الرسول ثلاثة وعشرين عاما متصلة دون هدوء حتى بلغ رسالة السماء .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى : (إذا كان هذا صحيحا فلا تكون الرسالة المحمدية قد أخرجت العرب من الظلمات الى

النور ، ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ما كانوا يعرفونها ، ولا ثبت فيهم من الأخلاق والآداب ما كانوا في أشد الحاجة إليه ، ولا آتتهم دستوراً أفضى بهم السير عليه إلى تبوء خلافة الله في العالم قروناً كثيرة غيروا فيها وجه الأرض ، ونشروا علماً وحرية ومدنية قضت على كل ما كان متحجراً غير صالح للحياة في العالم كله^(١) .

وإذا كان الباب الأول خاصاً بفضائل الرسول فقد قسمها المؤلف قسمين : قسم الفضائل الذاتية ، وتشمل مولده من أكرم عنصر وحسن صورته وكمال عقله وقوة منطقته ونجدته الشجاعة وزهده واحترامه لنفسه ، وقسم يتحدث عن فضائل الاجتماعية وتشمل كرمه وحسن معاشرته وعفوه عند المقدرة وحسن سياسته ، وثباته على مبدئه ، ويخيل أن الحدود غير فاصلة بين القسمين فاحترام الرسول لنفسه لا يظهر أثره إلا في الاندماج في جماعة ، والثبات على المبدأ قد يكون من الفضائل الذاتية ، والأمثلة التي ذكرها المؤلف لتدل على تأصل هذه الصفات معروفة لقراء السيرة النبوية ، وجهد المؤلف مقصور على ترتيبها تحت عناوين محدّدة ! وقد رجع إلى الجاحظ في جل ما قال عن قوة بيانه وفصاحة منطقته ، أمّا ما ذكره عن نجدته وشجاعته وزهده وكرمه فموضع القدوة حقاً ، وليس من شأن المؤلف أن يثقل على قارئه بمقدمات علمية تدل على اطلاع

(١) مجلة الأزهر المجلد السادس ص ٦٨٨ سنة ١٣٥٤ .

وغوص كعادة من يتحدثون عن الصفات المحتدأة ، ولو شاء أن يفعل لفعل فمؤلفه (الخلق الكامل) يمدّه في هذا المقام بوافر الزاد ، ولكنه أحب أن ينتفع كل قارئ من كتابه مهما تواضع مستواه ، فلجأ إلى بساطة السرد ، وسهولة التعبير ، كأن يقول عن رسول الله (لم يكن بالجافى ولا الهين ، وسع الناس بسطة وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، يعطى كلاً من جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، يصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسأله ، ومن جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف منه ، يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يكاد يواجه أحداً بما يكره ، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم لديه أحسنهم مواساة ومؤازرة ، كان إذا رآه الناس لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك ، وإذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس^(١)

ومع أن المؤلف قد سرد معجزات الرسول في باب خاص ، فلم يجعلها وحدها دليل نبوته ، بل جعل من استقامة سلوكه ، وقوة حجته ، وصحة ما جاء به من تشريع دليلاً واضحاً على صدقه ، وأوضح الحكمة في ذلك فقال : (قد تم له النجاح ، ولم يكن سبيله الفذ فيه الالتجاء الى ما هو فوق مقدور الإنسان

(١) من الخلل الكامل ص ٢٨ ط ٣ .

كما فعل مَنْ قبله من الأنبياء ، إذا أعوزتهم الحيل جاءتهم المعجزات لإنقاذهم ، ولو أنه التجأ إلى المعجزات في كل أمر حزه أو كربه ، لتعذر على مَنْ يجيئون بعده أن يتخذوه مثلاً يُحتذى لانقطاع صلتهم بالمعجزات ، ولكنه قد اتخذ من الوسائل أنبلها ، ومن الذرائع أشرفها وأوضحها ، وبذلك كانت حياته الشريفة درساً بينا ، وعظة بالغة لمن يجيئون بعده^(١) .

هذا إجمال فصله الكاتب بما ضرب من أمثلة واقعية تشهد بشات محمد - صلى الله عليه وسلم - على المبدأ وكفاحه عن الحق ، وقد أطال فيما استشهد من حوادث التعذيب للمسلمين ، والمضايقة للرسول ليثبت أن الدنيا تحتاج إلى نضال الأحرار ، وثبات الدعاة حتى يقودوا الإنسانية إلى شط النجاة ، وليقول : إن ما يصيب المجاهدين الآن من الإعانات ضريبة مفروضة وواجب محتوم ، لأن القيادة الصحيحة عبء ذو إرهاق ، وراحة صاحبه في تحمّله ، كما يرتاح الضعيف في تركه والابتعاد عنه ، وكلما عظمت المحنة في الحياة عظم حظ صاحبها من النضال ؛ لأن المحنة تدريب عملي للرجولة على الصبر ، وتخليص للأخلاق من شوائب الخور والضعف ، يقول المؤلف :

(إن الأخلاق إذا تعاورتها الشدائد والأهوال سبكتها ، وأخرجت منها خلقاً قويمًا ثابتاً ، وكان مثلها مثل الذهب

المصطفى ، فالشدائد تظهر ما هو كامن في الإنسان ، فإما أن تجعل منه خلقا عظيما يظل مدى الدهر نبراسا يستضاء به ، وإما أن تقضى عليه فتجعله أثرا بعد عين ، من أجل ذلك وجب على من يطمحون إلى الظفر ، وبلوغ المقاصد العظيمة أن يعدوا أنفسهم لركوب متن الأهوال ، واحتمال الشدائد ، ويتخذوا من هذا النبي أسوة في ثباته وسائر أخلاقه^(١) .

على أن القلم في يد المؤلف قد يخرج إلى استطراد وعظي يستحيل أكثر مما يقنع ، وقد يلجأ الى تكرار يعيد شجوننا مما تقدم ! وتلك سمة لا يكاد ينجو منها كتاب تربية ، إذ ترى المؤلف داعية أكثر منه عالما ، وإذا وجد المربي الموجز المدقق فإنه مع منطق الدقيق لا يورث قارئه حماسة لما يدعو إليه ، ويحتاج إلى شارح يتبنى آراءه لينفخ فيها من روحه ! وكتب الأخلاق التي صيغت بمنطق علمي جاف قد انحصرت في أيدي أفراد قلائل ككتاب (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لابن مسكويه ، أما كتب الأخلاق التي توهجت بالعاطفة ككتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي فقد امتدت الى آلاف القراء ! ولعل هذا ما عناه الأستاذ محمد احمد جاد المولى حين أثر أسلوب الداعية في كثير مما قال .

وفي الباب الثاني جاء الحديث تحت عنوان : (محمد - صلى الله عليه وسلم - بين الرسل) وقد أبتدىء بمقدمة تفرق بين

(١) محمد النمل الكامل ص ٤٦ .

صاحب الأقوال وصاحب الأعمال ؛ فذكر المؤلف أن رسالة الأنبياء لو اقتصرَت على إلقاء المواعظ والنصائح دون أن يكافحوا في سبيل إنهاض بنى الإنسان وتقويم أخلاقهم ما استطاع أحد أن يفهم الحاجة الى الرسالة والرسول لأن المواعظ والحكم تحيىء على السنة العلماء ممن لم يدعوا الرسالة ، وفى بعض ما قالوه ما يرتفع الى ذروة من الحكمة والرقى ، ولكن الانتفاع بالأقوال - وحدها - قليل ، أما الأعمال فمحك اختبار النجاح ، والقاعدة فى اختيار الهداة هى الأعمال إذ لا دليل على أن الانسان يستشعر ما يدعو إليه من الفضائل إلا اتصافه التام بما يقول ، وقد نجح نبي الإسلام لأنه كان النموذج لما يدعو اليه من الفضائل ، وقد بعث كل رسول ممن تقدموا محمداً - صلى الله عليه وسلم - لتهديب معشره فحسب فكان مثل هؤلاء مثل المصابيح التى يوضع كل منها فى حجرة لاتضىء سواها أما محمد - صلى الله عليه وسلم - . فقد جاء لتهديب الانسانية ، وتنمية الفطرة الصحيحة واستخدام ملكاتها فامتألت حياته الكريمة بالمثل الصالحة لهذا التهديب العام .

هذه المقابلة بين الرسول ومن سبقه ذات مغزى دقيق ، وقد تكرر أمثالها فى كثير من صفحات الكتاب وأبوابه ، ففى الباب الثالث - مثلاً - يتحدث المؤلف عن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى اقتضت بعثة الرسول فيسهب بعض الشيء فى توضيح هذه الأسباب ؛ وأكثرها معلوم مشتهر ، فإذا أوفى على

الغاية مما يريد تعرض للموازنة بين الرسول وسابقه من الأنبياء
فذكر أن عصور السابقين لم تبلغ من الظلام ما بلغه العصر
الجاهلي في شتى بقاع العالم حين البعثة النبوية فموسى - عليه
السلام - مثلاً قد أرسل لتحرير بنى اسرائيل ، وجلّى أن
المصريين في عهده كانوا ذوى ثقافة وحضارة وفن ، وحين ظهر
(المسيح) كانت الدولة الرومانية على جانب عظيم من التقدم
في الطب ، ولها حضارتها المزدهرة ، أما القرن السادس - قرن
الرسالة المحمدية - فكان منقطع النظير في تدهوره ، وكان يحلّ
لِلناظر أن الفساد المنتشر في كل مكان يتطلّب عدّة رسل
لا رسولاً واحداً إذ عدمت الشرائع الالهية في شتى بقاع
الأرض ، وجاءت النصرانية لهدم الوثنية فلم تلبث أن أصبحت
فريسة لها ! لذلك كان ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً
الى العالم كافة أمراً فريداً في بابه !

هذا إلماع موجز لما جاء بالباب الثالث من موازنة بين الرسول
وزملائه السابقين ، فإذا انتقلنا إلى الباب الخامس وجدنا تنظيراً
بين الرسول وسابقه بصدد المعجزات ، ونصل الى الباب
السادس فنجد مقابلة موجزة بين دين الاسلام وما سبقه من
الأديان في طريقة الاستدلال العقلي والحجاج الفكري ، فإذا
طالعنا الباب الثامن وجدنا بسطاً يسيراً لما أوجز في الباب
السادس حيث يذهب المؤلف الى أن رسل الله قبل محمد - صلى
الله عليه وسلم - قد اقتصروا على النصيح السديد والموعظة
الحسنة ، أما محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد فصل

ما استكن فى العقل الانسانى صغيره وكبيره ، ووضع للغرائز الحيوانية نظاما يكفل الهيمنة عليها وتوجيهها لمنفعة الانسان ، وقد انفرد الذكر الحكيم باشتماله على استكنائه العقل الانسانى وبيان ملكاته وصفاته . فقد خرج الانسان عند الدعوة الاسلامية من الاكتفاء بالقضايا البراقة التى لايدعمها دليل ولابرهان !

وكنا نؤثر أن يجمع المؤلف هذه الموازنات المتفرقة فى أبواب شتى فى باب واحد ، وأن يسلط عليها أضواء التحليل الكاشف لتكوّن بحثا متماسكا يمنع التكرار ويطرد السأم ! فالموازنة بين الدعوة الاسلامية وما قبلها من دعوات المرسلين لاتساق هكذا على أبعاد متناثرة يطغى عليها ما حولها من العناصر المختلفة كما تحتاج الى استقراء مطمئن لما نعرف من أقوال النبيين والمرسلين مقارنة بما جاء به الرسول ، وفى القرآن الكريم نماذج لأقوال هؤلاء صلوات الله عليهم جميعا !

وقول المؤلف : إن من سبقوا رسول الله قد اقتصروا على النصيح السديد والموعظة الحسنة قد يوحى بأنهم لم ينهجوا المسلك العقلى فيما جاءوا به من الدعوات ، بل اكتفوا بالنصح الواعظ ، وهو رأى تورط فيه من يزعمون أن الانسان الأول لم يكن فى زمنه السالف ذا عقل كامل يستضيء بنوره ! وقد ارتقى تفكيره بمرور السنين ! ولكننا نجد أنبياء الله قد لجأوا الى المنطق العقلى فى حجاجهم الجدلى ، فنوح عليه السلام يقول فيما روى القرآن عنه

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾
 يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْهِ وَيَجْعَلَ
 لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٤﴾
 وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
 طِبَاقًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٧﴾
 وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
 إِخْرَاجًا ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

و ابراهيم عليه السلام يحاج قومه بالمنطق الواضح فيدعوهم الى
 النظر في ملكوت السموات والارض ويجادل والده فيقول :

﴿ يَتَأْتِ
 لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتِ
 إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
 سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

(١) سورة نوح : الآيات ١٠ - ١١ .

(٢) سورة مريم : الآيات ٤٢ ، ٤٣ .

ويقول لأبيه وقومه :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ ۖ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كَيْفٍ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْإِلَهِ الْعَلِيمِ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١)

ولا نطيل في ذكر ما جاء على لسان هود وصالح وموسى وشعيب فأيات القرآن ناطقة بما قالوه مجادلين مقنعين ؛ فيقول الأستاذ جاد المولى : إن السابقين قد اكتفوا بالقضايا التي لا يدعمها دليل وبرهان مما يحتاج الى تصحيح !

نعود الى متابعة الكاتب في مؤلفه فنذكر أنه تحدث في الباب الرابع عن (مراحل الدعوة واستقرارها) فليخص ما هو معروف منذ اعتزال الرسول ، وبدء الوحي وانقطاعه ، والبدء

بالدعوة سرا والجهر بها بعد ذلك مستشهدا بآيات القرآن في وضوح خالب لينتقل الى الباب الخامس فيذكر الأدلة القاطعة على صدق نبوته ، وقد قسمها الى عقلية كاحتمال صنوف الأذى ، واشتهاره بمكارم الأخلاق في نشأته ، وانتشار الاسلام بسرعة ، وحرصه - صلى الله عليه وسلم - على هداية الخلق وإخباره بالمغيبات ، وتجرده من الحظوظ البشرية ، وعجز العرب عن معارضة ما جاء به من القرآن ، أما الأدلة الحسية فهي المعجزات التي توالى على يديه ، وأولها القرآن الكريم واستجابة الله لدعوته ، والإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وتيسير الماء لقومه على يده وما يجرى هذا المجرى ، وقد نرى أنه أوجز في الأدلة العقلية إيجازا كان يتطلب البسط ، ولعل عذره في ذلك أنه لا يسجل أحداث السيرة النبوية إلا بقدر ما تدعو الى القدوة والاحتذاء ، ولكن القدوة هذه تتجلى أحسن ما تتجلى فيها يذكره عن احتماله - صلى الله عليه وسلم - الأذى واستشهاده بمكارم الاخلاق وحرصه على هداية الخلق ، ولدى المؤلف من مواقف الرسول ما كان يمدد بالفيض الزاخر لو أراد ، ويمكن أن يقول : إن دلائل هذه الصفات الكريمة من حياته تُجمع من فصول الكتاب جمعا يدركه القارئ المستمع ، ولكن الأولى لدينا أن تندر في أبواب محدّدة ليسع نورها بأكثر قدر استطاع ، وحديثه عن ضرورة المعجزة وتعريفها وكيفية وقوعها وأنواعها حديث المؤمن الواثق بربه ونبئه ! وقد ختمها بحديث طويل عن الإسراء والمعراج اقتبسه من الأستاذ يوسف

الدجوى . كما اقتبس مقالا طويلا في إعجاز القرآن من الدكتور هنرى اسبت ، وأنا لا أرى أن يعتمد مؤلف ما الى اقتباس موضوعات بأكملها من سواه يتجاوز الواحد منها عشر صفحات مهما بلغت أهميته ؛ لأن الكاتب الكبير لا يعوزه أن يعالج الموضوع بأسلوبه الخاص فيقرأ ما يستطيع العثور عليه في نطقه ثم يصوغ ذلك كله بأسلوبه الخاص . فإذا احتاج الى استشهاد من سواه فليكن في نطاق صوغه ممهدا له بتقديم ، ومقنيا عليه بتعقيب ! وأرى أن تواضع المؤلف النفسى هو الذى دفعه الى هذا الاستشهاد الطويل ، إذ أراد أن يقدم نماذج عقلية أعجبه وانتفع بها دون أن يستطيل بأبداع ينسب إليه ، ولكن هذا شيء ، ومرمى الناقد الأدبى شيء آخر حين يتطلب في فصول الكتاب الواحد تجانسا متشابها بحيث لا يختلف لون الماء في موقع من مواقع الجدول المترقق الممتد فإذا انتقلنا الى ما كتبه المؤلف في الباب السادس تحت عنوان محمد - صلى الله عليه وسلم - أقوى الناس حجة فإننا لا نستطيع أن نسكت عن ملاحظة مهمة يجب تسجيلها حول ما جاء في هذا الباب ، إذ لو كان عنوان الموضوع (القرآن أقوى الكتب حجة) ما اختلف الحاصل في شيء عند الكاتب ، فقد استعرض نماذج من آيات الكتاب الكريم في البعث الأخرى وشرحها شرحا واضحا ، ثم آيات ثانية في خلق الانسان ذات برهان حاسم خصها بالشرح ، وآيات ثالثة تتعلق بخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح ، وجريان

الأنهار وأوضح مكان الاحتجاج بها في قوة !
 ما جاء به المؤلف في ذلك حق لا شبهة فيه ! ولكن الحديث
 عن قوة الحججة لدى محمد لا عن قوة الحججة في كتاب الله ،
 فكان على المؤلف أن يستشهد بأحاديث النبوية الدالة على قوة
 اقناعه وصحة منطقته ، وأن يأتي بشذرات من حوار المحكم
 بينه وبين معارضيه أو موافقيه ليتضح صحة منطقته وقوة برهانه
 على نحو خاص به وحده ! ونحن نعلم أن القرآن نزل عليه ،
 وأنه بلغه للناس بما يتضمن من إعجاز عقلي لا يرتاب فيه
 منصف ! ولكن براهين القرآن العقلية وحججه القوية تحسب
 لمن أنزل القرآن لا لمن نزل عليه ! وهذا ما يجعلنا نشعر بأن
 المؤلف قد خرج عن موضوعه حين تحدث في فصول متسعة عن
 مقاصد الإسلام في الباب الثامن فأفاض في الكلام عن إعداد
 الفرد في ذاته ، وعن إعداده ليكون عضوا نافعا في المجتمع ،
 وعن إنصاف المرأة ورفع شأنها . موازنا بينها وبين الرجل ،
 وعن إباحة تعدد الزوجات لدى المسلمين بعامة ولدى رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - بخاصة ، وعن الطلاق والحجاب
 والاسترقاق في الأمم القديمة والأزمة الحديثة ، وعن العمل في
 الإسلام ، وحسن المعاملة ، وإقامة العدل ومحق الظلم ،
 ووحدة الرياسة الإسلامية وطبقات الناس ، هذا الباب الحافل
 الذي امتد من ص ٢٢٥ الى ص ٣٧٧ اعتبره خاصا بالإسلام
 باعتباره ديننا نزل القرآن بتفصيله ، ولا يمكن ان اعتبره مما يجوز
 أن يندرج تحت عنوان «محمد المثل الكامل» لأنه مفهوم يتحدّد

بعنوانه ، وليس كل حديث عن القرآن أو الاسلام حديثا عن
سيرة رسول الله !

ويظهر أن المؤلف لم يجعل من همه التقيد بوحدة الموضوع
حين شرع في تخطيط كتابه ؛ لأنه قال في مقدمة الطبعة الثالثة^(١)
(وقد جعلت من همى في هذه الأبواب أن أدير الحديث في كثير
من خصائص الاسلام ، وأفصل القول في سياسة هذه الشريعة
الغراء في إصلاح البشر ، ولا سيما المسائل التي تثور فيها عجاجة
البحث في هذا الزمن والشبهات التي تتقاذفها أقلام المعاصرين
الكتاب) ومهما قصد المؤلف الى تمحيص الشبهات حول
الاسلام ! فليس المجال مجال سيرة خاصة بحياة نبي الإسلام !
وكان عليه أن يلتزم بالعنوان .

وقد خصّ الباب التاسع بالحديث عن أفضلية الرسول ،
وما خصّه الله به من صفات الكمال ، وهو فصل جيد على
إيجازه ، وكان في مقدرة الكاتب أن يبسطه بسطا ، ولكنه دون
عناصره في أرقام متوالية إن جازت في كتاب إحصائي ففى رأى
الخاص أنها تجعل السياق جافا مقتضبا في كتاب تربوى صيغ
بأسلوب أدبي مسترسل ، وقد أحسن المؤلف غاية الإحسان فيما
استشهد به هنا من آيات الكتاب الكريم الدالة على فضل
رسول الله ؛ إذ حرص على جمعها بتسلسل مرتب ترتيب السور
القرآنية مبتدئا بالبقرة إلى آل عمران وما تلاها ، حتى انتهى الى
سورة الكوثر ، وهو جهد شاق لا يحسّه إلا من كلف بهذا

الاختيار فعكف على كتاب الله ليختار من آياته ما يفي بموضوعه !

وهذه الآيات في رأيي في حاجة الى بحث مستفيض يتفرغ له كاتب مؤمن يعيش في نطاقها ، ويحرص على احتواء معانيها في ألفاظها المحددة دون أن يتيح لعاطفته أن تضيف شيئا مما يتصور ليكتب بحثا عميقا جدا تحت عنوان «صفات الرسول في القرآن» وما كان أخرى المؤلف بكتابة هذا البحث الجيد ، فهو قادر على استيعابه لو نجا من الاسترسال المتنقل من حياة صاحب الرسالة الى أصول الرسالة نفسها ! وقارئه العام قد كسب كسبا وفيرا بقراءة ما كتب ، ولكن قارئه الناقد لا يجد بداً من أن يعترض !

وللمؤلف إيمان كبير تترقق لوامعه في سطور كتابه بعامة ، وفيما كتبه في الباب العاشر تحت عنوان (محمد - صلى الله عليه وسلم - أجدر الناس بالايان به) إذ تحدث في سر محب عن وجوب الايمان بالرسول وطاعته ومحبته ، وأفاض في الاستشهاد بوفاء صحابته له ، وهيامهم به فذكر طرائف محبة عن ثوبان وبلال وزيد بن الدثنة ، ولم ينس أن يقوم مقام الارشاد التوجيهي للقارئ ، فذكر ما يجب أن يقوم به كل مسلم صادق من نصرة الاسلام بالقول والعمل ، والعطف على الأمة الاسلامية في شتى البقاع ، وتعظيم سيرة الرسول والافتداء به ومحبة صحابته والإكثار من ذكره ، وحب القرآن وإيثاره .

فإذا انتقلنا إلى الباب الحادى عشر فإننا نجد موضوعا رائعا
حقا ! ممتازا حقا هو موضوع (محمد - صلى الله عليه وسلم -
أوفى مظهر للقرآن) إذ أصاب الكاتب إصابة رائعة حين
استعرض حياة الرسول ليصطفى منها ما يدل على امتثاله التام
لما جاء به القرآن ، وتخلقه الرفيع بأخلاق الذكر الحكيم ، وقد
جعل من دأبه أن يستعرض (الخلق القرآنى) كالصبر والعدالة
والأمانة والصدق والوفاء بالعهد والرحمة والإحسان والتعاون
لينتقى من أخلاق الرسول العملية وأقواله اللفظية ما يكون
تطبيقيا راسخا لتعاليم القرآن الكريم كما استعرض (الزواجر
الرادعة عن المنكرات) فى كتاب الله ليقربها بما قاله الرسول فى
تقبيح هذه الزواجر مثل النهى عن الخيانة والربا والخمر
والمغامرة والمهاطلة والمنّ وتتبع سوءات الناس والنفاق والظلم
والغضب والسرقة واللجاج فى الخصومة والسخرية بالناس
والتناذب ! ولا يستكثر القارئ إلا فاضة فى هذه الصفات محبوبة
ومذمومة ؛ لأن الكتاب فى صميمه دعوة الى الخلق الأمثل فى
سيرة أشرف الناس فمجال القول ذو سعة حقا ، والمؤلف عالم
أخلاق ، وقد رأى بعد الفحص الدائب أن مثله الخلقى الأعلى
هو رسول الله . عليه الصلاة والسلام - فلا عليه إذا توسع
وأفاض ، وإخالفنى كنت أطالب منه المزيد فى هذا النطاق .

ولم يحرم المؤلف قارئه من خلاصة يسيرة للسيرة النبوية .
جعلها خاتمة كتابه ، لتقدم فكرة عامة لمن لم يلم بحياة نبي

الإسلام ، وطبعي أن يقتصر المؤلف على الذائع المشتهر من حياة الرسول دون تحليل ، وأكاد أقول : إن القارئ كان في غنية عن هذا الموجز فسيرة الرسول على هذا النحو الموجز من الإشهار بحيث لا تحتاج إلى هذا الضرب المقتضب من التنويه ، وكأني بالمؤلف وقد توقع أن يقرأ كتابه من غير المسلمين من لم يلم بمجمل السيرة النبوية المطهرة فرأى أن ييسر له ما قد يتعسر عليه إذا طلبه في المؤلفات المبسطة وهي وجهة نظر لها موضوعها من الاعتبار.

هذا لباب ما يقال في كتاب « محمد المثل الكامل » فهو كتاب قدوة وسلوك ، وله عنوانه المتعدد في أكثر من تصنيف فهرسي للكتب إذ تجده في كتب السيرة كما تجده في كتب التربية كما تجده في كتب الدعوة والدعاة ! وقد جاء من بعده من اقتنع بفكرته الصحيحة وتباعد عن جمعه المختلط ، فكتب كتابين مختلفين يضمنان ما جمعه كتاب محمد المثل الكامل في نسق أقرب إلى الكمال التأليف المتخصص ، إذ قام المغفور له الأستاذ (عبد الرحمن عزام) الأمين الأسبق للجامعة العربية بتأليف كتابين أولهما بطل الأبطال^(١) وثانيهما (الرسالة الخالدة) وقد قصر الكتاب الأول على بطولة رسول الله في مواقفه الرائعة ، وهي بطولة عامة تشمل بطولة الرأي ، وبطولة القلب ، وبطولة الجهاد وتضع القدوة المثلى لهذا البطل المعلم ، وقد تناول المؤلف

(١) طبع سنة ١٩٣٩ للمرة الأولى وتكررت طبعاته .

الكبير أبرز صفات محمد - صلى الله عليه وسلم - فتكلم عن شجاعته ووفائه وزهده وقناعته وعفوه وسياسته بما يجعله النموذج الأعلى لمن اتصف بهذه الروائع المثالية ، وقد قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تقديم الكتاب : إن مؤلفه قد أحسن إذ تناول السيرة النبوية من الجانب الخلفى ؛ فإن الناس فى حاجة ماسة إلى أن يهتدوا بأخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كل عصر ، وزاد المؤلف إحساناً فوق إحسان حين استخلص هذه المواقف النبوية من الحادثات الصحيحة والوقائع الثابتة ، فلم يرسل قوله دون حجة قاطعة أو برهان سديد !

أما الكتاب الثانى فقد قصره الأستاذ عزام على الدعوة الإسلامية ووضعه تحت عنوان « الرسالة الخالدة » وبذلك نجا من الخلط المتسرع الذى ارتضاه الأستاذ محمد أحمد جاد المولى فى كتابه حين جعل عناصر الدعوة الإسلامية ، وآيات القرآن فى الهداية والتشريع مما يجوز أن تندرج فى كتاب يعنون بـ (محمد المثل الكامل) وقد وضع الأستاذ عزام كتاب الرسالة الخالدة أثناء الحرب العالمية الثانية ، حين رأى حضارة الغرب المادية تنهار فجأة لتحطم أصحابها بقنابلها المبيدة ، وقواصمها المهلكة ، ورأى أن الإسلام يقدم طوق النجاة لمن غرق فى لجج الحضارة المادية ذات التناحر المبيد ، وهو يهيب بأبناء الإسلام أن يكونوا أهلاً لحمل أكمل حضارة عرفها الإنسان ، ويوضح مذهب الإسلام فى الإصلاح الاجتماعى ؛ إذ يقوم على التطهير

الخلقى للفرد ، والتكافل بين الجماعة ، والبر الذى يطارد الفقر والترف والربا ، والعدالة والحرية اللتين تضعان ميزان الاستقرار ، ثم أفاض فى تحليل كل عنصر من هذه العناصر بما لا يتطلب المزيد حقا ! وأوضح رأى الإسلام فى العلاقات الدولية بما أضاف الجديد إلى مفهومات سابقة يجب أن تكون موضع نظر دقيق ، ثم شرع يحلل أسباب الاضطراب العالمى وما قام عليه من تناحر واغتصاب وجشع ، وصراع متباغض لا يهدأ ، ورأى العلاج الحاسم فى تحقيق رسالة الإسلام الخالدة مناشدا ذوى الغيرة الإنسانية على تلمس أسباب الصلاح والإصلاح .

أقول : إن كتاب (محمد المثل الكامل) بمحاسنه ومآخذه قد وجد صداه لدى من اقتنع به على الاستضاءة بهديه راضيا بخطته فى التأليف ، ولدى من رآه فى حاجة إلى تعديل منهجى ، فكتب كتابين مختلفين يجمعان ما تضمنه الكتاب الواحد لينجو مما توسع فيه دون تحديد !! حسب الأستاذ جاد المولى أن وضع نموذجاً عالياً للمقدوة الإنسانية بما كتب ! وحسبه أن كتابه لا يزال فى زحمة المؤلفات اللاحقة يجد مكانه المستريح .

(حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل

سعدت المكتبة النبوية بهذا الكتاب حقاً ، لأنه أعظم تاريخ للنبوة صدر باللسان العربي في عصره ، وقد جذب الأنظار جذباً قوياً لأمر لم تكد تتوفر لسواه ، إذ كان صدوره عن الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل أحد زعماء الأدب البارزين في زمنه . كافيا لأن يشد إليه انتباه العازفين عن حياض السيرة المطهرة ممن أولعوا بأعلام الأدب الأوربي ، وما أكثر ما تحدث عنهم المتحدثون ونقل آثارهم الكاتبون ، أما الذين أحبوا التراث الإسلامي ، وأكبروا الأدب العربي فقد كان صدور حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - بهجة لنفوسهم ، ومسرّة لقلوبهم ، وموردا عذبا يستقون من سلسله الدافق فيسعدون .

لقد أحدث صدور كتاب (حياة محمد) . هذا الدوى الرنان لأسباب شتى تتعلق بمؤلفه الكبير ، وبموضوعه الخطير ويمنجه الفكرى السديد ، ولا بدّ لنا أن نقف أمام هذه الأسباب بعض الوقت لنسلط الأضواء قدر الطاقة على هذا العمل الجيد ، فندعو الشبيبة إلى قراءته واستيعابه ليكون طريقهم الممهّد إلى استرواح عبر السيرة المطهرة ، ثم إلى اطراد السير في مراجعة تاريخ السابقين الأولين من أبطال الإسلام . وما منهم إلا الصادق الأمين .

أما المؤلف الكبير الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد كان ذا صوت جهير بين أعلام الأدب المعاصر ، رأس تحرير جريدة سياسية كبرى ، وجريدة أدبية أسبوعية ، هى الأولى فى اتجاهها الفكرى بين الصحف الأدبية المعاصرة ، إذ كانت تجمع صفوة الصفوة من بلغاء الكتاب ، ونوابغ المفكرين ، وكان لها ولرئيس تحريرها اتجاه فكرى ينحو منحى الاتجاه الغربى ، وينحى باللائمة على بعض المسلمات المتعارفة فى الأدب العربى ، وكم شنت المعارك الفكرية على صفحات السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية داعية إلى تطور سريع ، ومتحدية رغبات الكثرة الكاثرة ممن يرون فى اتجاه جريدة السياسة الأدب تسرعا غير مطمئن ، حتى ركن القراء جميعا إلى اعتقاد قوى فى أن جريدة الدكتور هيكل اليومية ومجلته الأسبوعية تفقد الفكر إلى غير الوجهة الإسلامية ! ولكن هذا الاعتقاد يتزلزل فجأة وعلى غير انتظار حين نهض الدكتور (هيكل) ، وكأنه شخص آخر غير الذى كان ، حين ينهض إلى مقاومة التبشير المسيحى فى عنف ، وحين يكشف خداع الداعين إلى التحرر الفكرى وهم عبيد الغربيين وصنيعة المستعمرين ، لقد دهش الناس دهشة خطيرة لهذا التحول القافر غير المنتظر ، ثم زادت دهشتهم حين وجدوا الدكتور هيكل يبدأ بترجمة حياة محمد لمؤلف فرنسى ؛ فيوالى هذه الترجمة فى حلقات متصلة يتلهف عليها القراء تلهفا لم يعهد من قبل ، ثم يترك الترجمة إلى التأليف المباشر ؛ فيخط كتاب (حياة محمد) من ابتكاره

الخاص في أكثر أبوابه على نحو خالب حبيب .
لم يكن الدكتور هيكل مصانعا يبغي استهواء القراء بحديثه
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما حاول بعض خصومه
أن يظهروه . إذ عزّ عليهم أن ينضمّ إلى رجال البيان الإسلامي
زعيم من أكبر زعماء الأدب في عصره ؛ فيكون قوّة دافعة نحو
الإصلاح الحقيقي في الفكر العربي الحديث كما كان سابقا لمن
تابعوه في الكتابة النبوية من أعلام الأدب المعاصر متابعة جعلت
السيرة النبوية المطهرة مورد بيان عذب لمن أراد أن يرد غير السير
الإنسانية في أصفى المناهل ، وأعذب الحياض ، ولم يكن
الدكتور هيكل في ذلك التطور الرائع غير إنسان أخذ يبحث عن
الحقيقة الخالصة منذ نشأ في دنيا الكتابة الأدبية حتى اهتدى إليها
بعد تعثر طويل .

لقد كتب الدكتور خطوات حياته ليبين في صراحة تامة كيف
سافر إلى فرنسا لإكمال ثقافته . مخدوعا بتفوق الغرب ، ومبهورا
بروائع أعلامه المعاصرين والغابرين ، فوجد من الحرية الفكرية
ما شدّ انتباهه ، وكان حديث التجربة في شبابه البادئ فبهره
كل ما رأى ، وقارن تأخر مصر الفكرى بتقدم باريس الثقافي
فانفرج أمامه الفرق الشاسع بين دولة صغيرة مستعمرة أرهقتها
الاحتلال بفقره واستبزازه وتنكره للثقافة الصحيحة ، والعلم
المستنير ووقوفه أمام التربية الناهضة بالعقول إلى مشارق النور ،
وآفاق الهداية ، ودولة رائدة كبيرة هي أرقى دول أوروبا إذ ذاك
كافة في دنيا الأدب والنقد والتحرر السياسى ، والاستقلال

الفكرى فاستوعب ثقافتها استيعاباً جيداً ، وحمل أرقى شهاداتها العلمية ، وجاء إلى بلده ناقماً على مشاهد التأخر وداعياً إلى حضارة أوربا المزدهرة ، ووجد من ذوي اتجاهه أناساً رأوا مارأى ، واقتنعوا بما اقتنع فكتب معهم شتى المقالات المتحررة ؛ وجعل الحضارة الأوربية كما جعلوا مطمح أنظارهم ، ومهوى أفئدتهم ، ثم فاجأتهم الحرب العالمية الأولى بما لم يكونوا يتصورون ، إذ رأوا هذه الحضارة تنهار إنهاراً إنسانياً أليماً تحت نزوات المطامع ، وشهوات الأهواء ، فإذا أصحابها ذئاب تتصارع في غابة ، وإذا التقدم الإنسانى الأوربى خرافة ! هذا التقدم الذى ساعد على اكتشاف المبيدات المهلكة من القنابل والصواعق والدبابات والطائرات كى تفتى الجموع الغفيرة فى لحظات ! فإذا انتهت الحرب بكابوسها الرهيب فإن دول التقدم المزعومة تترك مادعت إليه من المساواة والحرية والإخاء لتشب على الشعوب الضعيفة وفى مقدمتها مصر وأكثر البلاد العربية سالبة مستعمرة ، ومستنزفة ما تراه من الثروات الأرضية والبشرية معا ، فإذا ارتفعت أصوات المناوئين تنشد الحرية والاستقلال قوبلت بالقمع القاصف ، والردع العاصف !! لقد فكر الدكتور هيكل فيما تراءى لعينه من فاجع الأحداث وفيما انهار أمامه من صروح الآمال ، فرأى أن يهجر الدعوة إلى ثقافة الغرب ولكن إلى أين ؟ لقد اتجه إلى التراث الفرعونى يستلهم الآثار الماثلة ويرى فى عزة مصر القديمة مبعثاً للنهضة المرتقبة حين يتذكر أبناء وطنه أمجاد : خوفو ، وخفرع ،

وتحتمس ، ورمسيس ، ومنفتاح ، وآمون ، وكان متسرعا في اتجاهه الجديد ، فلم يلبث أن شاهد عزوف الكثرة الكثيرة عما يتجه إليه في يومه . كما عزفت كثرتهم الكاثرة عما دعا له في أمسه ، ومثله في تفكيره الدائب ، وعقله النشيط لا يقر على بأس ، فتأمل تأمل المستدرك المراجع حتى عرف أن العزة كل العزة في تراث الإسلام ، وأجداد نبي الإسلام ، ومن هنا سارع إلى الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسارعة من يرى في سيرته الهادية طوق النجاة ! وقد اعترف الرجل الصادق بذلك كله في كثير مما كتب ، وإذا أراد القارئ خلاصة موجزة لما أشرنا إليه فليسمع هذه الفقرات منقولة عن مقدمة كتابه الرائع (في منزل الوحي)^(١) .

« لقد حاولت أن أنقل إلى أبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لأي أني أضع البذر في غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موثلا لوحى هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعنا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة ، ورويت فوجدت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ،

ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين» .

هذا بعض ما يتعلق بالمؤلف الكبير من أسباب دفعته إلى إتجاهه الإسلامى المستنير ، أما اختيار تاريخ نبي الإسلام قبل الحديث عن مزايا الإسلام الرائعة ، وهى الثمرة المشتهة لما جاء به رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقد كان ضروريا لإنسان كالدكتور هيكل ؛ عاش زمنا طويلا يقرأ تهجما كاذبا من أعداء الإسلام على نبيه الكريم ، ويلمس صدى هذا التهكم الكاذب فى نفوس لا تقدر على أن تميز بين الخبيث والطيب ، لأن الاستشراق فى بحوثه الإسلامية لم يكن خالص النية فى البحث العلمى ! ومن سوء الحظ أن كتابة المغرضين من المبشرين قد وجدت الزواج كل الزواج فى بيئات خدعت بمظهرها العلمى المموه ، وغفلت عما تستر من تدليس ، وكان أكثر المتحدثين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كتاب الغرب لا يكادون يسترون غرضهم الفاضح فى تشويه السيرة النبوية المطهرة ، وكثرتهم الكاثرة لا تصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أعلنه من النبوة ، وتراه منتحلا حاول السلطان الدنيوى بادعاء النبوة ، لاستحالتها فى تحقيقهم العلمى ، ولو كان هؤلاء ينكرون النبوة بنوع غام ، ويرون استحالة اتصال السماء بالأرض لقلنا : إن عقولهم قد وقفت عند ذلك فلا تتعداه ، فهم صادقون فى نياتهم وما عليهم أن ضلوا الطريق معذورين ، ولكن هؤلاء يؤمنون بنبوة موسى

وعيسى عليهما السلام ومنهم المبشر الذي يخلق المعجزات الموهومة ليصلها بمعجزات عيسى أو موسى عليهما السلام المتحققة . فكيف جاز لديهم أن تتصل السماء بزيد دون عمرو؟ ومنهم أناس راعهم أن يقوم نبي الإسلام بهذه الأجداد الضخمة حيث استطاع أن ينقل الناس من الظلمات إلى النور ، فماذا عسى أن يصنعوا وهم يرون بأعينهم ثمار الدعوة الإسلامية وأثرها في إنشاء حضارة أظلت الأرض وشعت بالهداية على الدنيا حين كانت أوربا تنه في دياجير الظلمات ؟ يقولون إنه تمّوه كاذب ، وهم يرون من آثاره الحية ما لا يأتي به غير صادق أمين ؟ إنهم يفتقون أذهانهم في احتيال جادّ ليقولوا إنه ليس كاذبا ولكنه كان يتوهم توها أنه نبي فهو صادق بينه وبين نفسه ! وإن كان في حقيقته غير مبعوث !! ولا أدرى كيف يصدر نبي مصلح أنقذ البشرية عن وهم متخيل !! إلا أن يكون قائل ذلك عابثا يحاول أن يخرق على قرائه بما يأفك دون احترام لمنطق أمين ! ثم إن هؤلاء المغرضين رأوا في المسلمين ضعفا وتأخرا ، فلم يرجعوا بهما إلى أسبابهما المعقولة . ولكنهم جعلوا الإسلام سرّ هذا الضعف ، ومضى قائلهم الجريء يعلن أنه لا صلاحية للمسلمين إلا بتحررهم من الإسلام !! هذا الافتيات الجائر على نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - من أناس يدعون سلامة المنهج ، وبراءة الغرض ، والإخلاص للعلم ، والتعمق في البحث على أحدث الأساليب العصرية المستنيرة ، قد دعا الدكتور هيكل إلى أن يكتب السيرة النبوية

المطهرة على نحو علمي نزيه ، يكشف الضباب المتراكم مما كتبه
المغرضون ! كما دعاه أن يمتد ببحثه إلى تمحيص ما وقع فيه
المغالون من أبناء الإسلام حين نسبوا إلى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ما لم يقله أو يأت به جريا وراء روايات ضعيفة
لا تعتمد على إسناد صحيح ، وهكذا جاء كتاب (حياة محمد)
ليحق الحق ويبطل الباطل .

أما منهج الكتاب الفكري ، وأسلوبه التعبيري فما شفى
صدرور المؤمنين وأهلب أكباد الجاحدين ، إذ أن الكاتب الكبير
قد رزق فيضاً إسلامياً دافقاً يجيش في خاطره لينقله القلم إلى
قرائه في استرسال ناصع مكتمل الحلقات لا ترى فيه ثغرة توحى
بضعف أو نتوء يدل على نشاط ، ولا يرجع ذلك إلى قدرة المؤلف
على الألفاظ ، بل يرجع إلى قوة اقتناعه بما يقول ، وشدة إيمانه
بما يسطر ، فالرجل قد قرأ وهضم ووازن وناقش ، واستمع إلى
الأنصار والخصوم ، وغرق في العباب الزاخر ليلتقط ما يطوى
البحر الزاخر من درر في القاع ! حتى إذ اتسقت فكرته جليلة
واضحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شرع في كتابته
وكأن غيثاً دافقاً ينهل من يراعه ليحى موات القلوب ، وليرى
الناس كيف كانت سيرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - أروع
مثال للنضال في سبيل الحق ، وتحدى العقبات مهما امتدت
جذورها في الأرض ، ونهضت قممها في السماء ، ولسنا
نستفيض هنا في مدح عاطفي ، لأن معنا الدليل المقنع في كل
صفحة مما كتب .

تقدم المؤلف بكتابه الفذ إلى القراء ، وفي صدره مقدمة تحليلية كتبها إمام عصره الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى - شيخ الجامع الأزهر ! - ومن غير المراغى من أعلام البيان الدينى يكون جديرا بكتابة مقدمة تحليلية لمثل هذا الكتاب ! وموضوعه أسمى موضوع تتجه إليه العيون ، وكتبه فى الصف الأول بين كبار الكتاب ! وقد أحسن الدكتور هيكل حين طلب من الأستاذ الأكبر أن يقدم كتابه للناس ، إذ أن خطه السابق بعيد عن الفكرة الإسلامية مما يوحى بالصدود لبعض من يتقيدون بالماضى دون نظر إلى تبدل الحاضر ، وكان الأستاذ الأكبر ميزانا دقيقا للحكم النزيه ، فقد وضع الكتاب موضعه الصحيح حين حكم بقوة أسانيده ، وصحة استنباطه .

إذ كان المؤلف فى رأيه عامر القلب بما فى الوحي المحمدى من هدى ونور . وبما فى سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جمال وعظمة وعبرة ، مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة ، وينتشلهم من ظلمة المادة ، ويبصرهم بنور الإيمان ويوجههم إلى النور الإلهى فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شئ ، وعظمة مجده الذى تسبح به السموات والأرض وكل شئ فىهما ، وعزته التى تتضاءل أمامها الموجودات ، كما وفق الكاتب فى تنسيق الجوادث وربط بعضها ببعض فجاء كتابه عقدا منضدا وسلسلة متينة محكمة الحلقات ، وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض بيانا قويا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضى القلب

ليستمتع بما يقرأ ، ويشلج صدره ببرد اليقين ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث^(١) ومقدمة الأستاذ الأكبر مثال يحتذى ، لأنها لم تكن موافقةً تامة لكل ما في الكتاب ، بل سلكت مسلك النقد لما يخالف فيه الأستاذ الأكبر صاحبه ، وهذا ما يجب أن تنهجه المقدمات العلمية في كل كتاب ، فقد وقف الأستاذ المرازى عند قول المؤلف : (ولعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت بأنى بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة ، وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد - عليه الصلاة والسلام - والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية ، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك ، كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في تحرير الفكر ، وهاهى ذى مع ذلك طريقة محمد - عليه الصلاة والسلام - وأساس دعوته) .

(١) مقدمة «حياة محمد» للأستاذ المرازى ص (ن ، س) .

أقول : وقف الأستاذ المراغى عند هذه الفقرات ليعقب عليها بقوله : (أما أن هذه الطريقة ، طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكما ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين وأنبأ من يتبع الظن . . . وأما أن هذه طريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه ، وقد سائر الدكتور غيره من العلماء في هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء السلف من المسلمين ، انظر كتب الكلام تجدهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا . إن أول واجب هو الشك ، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان ؛ وهو وإن كان نوعا من القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية أو منتهية إلى الحس أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام كما هو معروف في المنطق ، وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان ، ثم قال الأستاذ الأكبر :

طريق التجريد طريق قديم وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء وليدا للملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا ، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمى والعمل فى الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رحنا نأخذها عنهم ، ونراها طريقة فى

العلم جديدة^(١) .

وجاءت مقدمة المؤلف ليتحدث عما دعاه إلى تأليف الكتاب ، فأشار إلى ما لمسه من محاولة استشراقية للقضاء على الروح المعنوية في بلاد الإسلام ، والهجوم على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بشتى المفتريات والادعاءات متسرلة بثياب البحث المحايد مع تعنت ظاهر هو حجة العاجز حين لا يجد الدليل الواضح ، فيلجأ إلى التكلف والافتعال ، وكانت الطريقة العلمية هى سبيله الوحيد فى دحض الحجة الباطلة وتأييد الحق الثابت ، وحسبه - كما يقول : أن يمهّد بعمله السبيل إلى كتابة صحيحة وتاريخ نزيه لصاحب السيرة - صلى الله عليه وسلم - لأن التعمق فى هذا المجال يكشف أسرار كثير من نواحي علم النفس تؤكد صلة الإنسانية بالكون الأعظم ، وتزيد المؤمنين استمتاعا بظواهر الطبيعة ، ووسائل القوة والحركة فى الحياة .

يقول الكاتب : ومن أجل ذلك كان خليقا بكل من يتصدى للبحث فى مثل موضوعه أن يتوجه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم ، فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما قد يظن بعضهم ، بل الغاية الصحيحة أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دُها محمد - صلى الله عليه وسلم - على طريقه وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذ لم يهتد

(١) مقدمة حياة محمد للأستاذ المراهى ص (ل) .

الإنسان إلى هذا السبيل بمنطق عقله ، ونور قلبه ، راضى النفس بهذا المنطق ، منشرح الصدر إلى هذا النور ، لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح^(١) .

وإذا كانت الغاية من الكتاب - لدى المؤلف - أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلتها محمد - صلى الله عليه وسلم - على طريقه ، فهو فى مخاطبة الإنسانية جميعها - لا المسلمين فقط - يميل إلى الاستدلال بالمنطق العقلى وحده فيترك الاسترسال فى حديث المعجزات الكونية لا لأنه لا يؤمن بها ، بل لأنه يخاطب من لا يؤمنون بالإسلام بمنطق العقل الذى يأبى التسليم بالخوارق ! وإذا كان القرآن وحده هو الحجة العقلية أمام من يفكرون . فإن الاكتفاء به فى مواجهة غير المسلمين مما يلزمهم كل إقناع صادق متى سلمت النفوس من الأكدار ، وتعترت العقول عن غشوات الأغراض ! واللجوء إلى الحجة العقلية وحدها أمام من لا يدينون بالإسلام هو أقرب طريق للإقناع .

وحين ظهرت الطبعة الأولى من (حياة محمد) . أخذ بعض الناقدين على المؤلف اقتصراره على المعجزة العقلية دون المعجزة الكونية ! وكان هذا المأخذ مدعاة أخذ ورد بين الناقدين ، وقد أشار إليه المؤلف فى مقدمة الطبعة الثانية ، ونقل ما قال صاحب

المنار بصده إذ تعرض السيد محمد رشيد رضا إلى هذه المسألة فقال فيما رواه عن المؤلف^(١) .

(أهم ما ينكره الأزهريون والطريقون على هيكل كثرة مسألة المعجزات أو خوارق العادات ، وقد حررتها في (كتاب الوحي المجدى) من جميع نواحيها ومطاويعها في الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بالذات ، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها) .

ومعنى هذا الكلام أن معجزات الأنبياء مثل : (انقلاب العصا حية) لدى موسى - عليه السلام - (وإحياء الميت) لدى عيسى - عليه السلام - (وأنشقاق القمر) لدى محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يؤمن بها إلا من رآها فى عصرها ، أما التالون المتابعون من بنى البشر فلا بد لهم من حجة دائمة تقنع من كان له عقل ، وهذه الحجة لا بد أن تكون عقلية يدركها التأمل الفاحص والفكر المستنير ، والقرآن هو الحجة البالغة فى كل عصر ، وهو الآية الشاهدة بصدق النبوة فى كل جيل ، فإذا احتفل به هيكل دون المعجزات الكونية التى لا ينكرها ، ولكن يعلم أن آثارها قد ذهبت بذهاب عصرها ، فهو يأق الأمر من بابه إذ يتجه بكلامه إلى عقلاء لا يصدقون غير ما يتصورون .

لقد تحدث المؤلف (ص ١٠٨) عن شق صدر الرسول الكريم في الثالثة من عمره كما نقلته بعض الروايات ، ويذكر ما لاحظته على ابن اسحاق والطبري حين حكياءه ، وينص على ان المستشرقين ونفرا من جماعة المسلمين لا يطمثون إلى الحادثة ويرونها ضعيفة السند ثم يقول بصدد ذلك^(١) :

(وإن مما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه مَنْ سبقه من أصحاب الخوارق ، وهم في هذا يجردون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل) .

هذا كلام الدكتور الذي نخالفه كل المخالفة ، فلسنا نجبر أحدا من القراء على أن ينحو منحى هيكل في اقتصاره على القرآن وحده باعتباره معجزة عقلية دائمة دوام العصور ، وفي إهماله الحديث عن المعجزات الكونية التي انتهت بانتهاؤها زمنها ! ولكننا نوضح وجهة نظره فحسب ، باسطين عذره حين اتجه بالحديث إلى ذوى العقول كافة في الشرق والغرب لا إلى المسلمين وحدهم ! فإذا وَجَدَ من بَسَطَ الحديث مطيلاً في تفصيل بعض ما تنوّل من المعجزات الكونية فلن ننكر عليه منحاه ، ولكل وجهة هو موليها ، لأنه يخاطب قوما مسلمين

(١) حياة محمد ص ٥٢ طبعة ثالثة .

يؤمنون بكل ما جاءت به الأخبار . وهيكلا لا يقصر كتابه على
أبناء الإسلام .

وأنا من وجهة نظري الشخصية . التي أميل إليها بعد قراءة
ما تتألى من الأخذ والرد حول هذه الخوارق الحقيقية لا أراى
أؤيد وجهة الدكتور هيكل فى الارتكاز على العقل وحده ، وإن
كان هدفه إقناع الخصوم من الأعداء ، لأن هؤلاء الخصوم فى
صميم اعتقادهم يرون أن العقل بَحِيْزه الضيق لا يقدر على
الاحتكام وحده فى أمور كثيرة دون مساعدة الإلهام ، وهم
لذلك يؤمنون بمعجزات من سبق محمدا - صلى الله عليه وسلم -
من الأنبياء ، ويعلمون تمام العلم أن مقدرة العقل البشرى
محدودة لاتتجاوز نطاقها المعلوم ، وللعقل مصادره التى يعتمد
عليها من الحواس والمقروءات والمسموعات ، ولكن الحواس
لا تعرف شيئا عما وراء الغيب أو ما يقال عنه وراء المادة وكذلك
المقروء والمسموع مما ينتهى إلى المشاهد المنظور ما لم يأت به نبى
بوحى من عند الله ، فيكشف الأسدال عما لا تدركه الحواس
ولا يحيط به المقروء والمسموع ، وقد مرّت قرون كثيرة على تأكيد
نظريات علمية يؤمن بها العلماء أشد العلم لأنها مرتكزة على
أدلة يؤيدها العقل الظاهر بقياسه الواضح ، ثم جدّ من
المكتشفات ما جعل هذه النظريات أساطير يرمى بها فى سجل
التفكير البدائى مع أنها تعزى لرءوس مفكرة ذات ثقل رصين
فى ميزان التفكير الإنسانى فهل كان الاعتماد على العقل وحده

طيلة هذه القرون التي آمن أصحابها بالنظريات العلمية الباطلة كافيًا لتقرير الحقيقة على وجهها الأكيد .

إن الأفضل للباحثين في المعجزات أن يعلموا أنها تتصل بقدرة الله - عز وجل - وقدرة الله فوق ما تحتمله العقول ، فإذا سلّمنا بقدرة الله على نحو لا يقف أمامه حائل معجز ، فلنا أن نسلّم عقلا بكل معجزة ييسرها الله لنبيه الكريم ! وهذا التسليم وحده ضرب من ضروب الفكر الصحيح ، وليس إيمانا أعمى يفقد الدليل ، لأن الفكر الصحيح يعترف بقدرة فاطر السموات والأرض ، وفالق الحب والنوى ، ومرسل السحاب بالرحمة والحياة ، وخالق الإنسان من طين لازب ، هذه القدرة القادرة لا يعجزها أن تيسر (انشقاق القمر) أو (أن تمد الجيش الإسلامي بجنود من الملائكة) أو أن ترسل على الأعداء طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل (فيكونوا كالعصف المأكول) ، في إعتقادي أن الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - لا ينكر شيئا من هذه الخوارق ، ولكنه يحاول إقناع قوم يجعلون إنكارها إنكارا لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول لهم : « لنفرض جدلا أنها لم تحدث ولم تقع ! أما يكفي نجاحه وتوفيقه في أداء رسالة الإسلام لثبوت هذه النبوة ، ثم ألا يكفي القرآن الكريم بإعجازه المبين .

يقع كتاب (حياة محمد) في ستائة صفحة تشمل واحدا وثلاثين فصلا غير مقدمتين كبيرتين وخاتمة في مبحثين جديدين عن الحضارة الإسلامية وموقف المستشرقين منها ، وإذا كان

للبيان الدينى فى عصرنا هذا أنموذج يحتذى فإن بيان هيكلى فى (حياة محمد) من نماذج الأسلوب الأدبى للدراسات الإنسانية إذ يسوق حقائقه التاريخية فى نسج متين قوى الأسر بالغ النفاذ ، وإذا استطاعت عاطفته الدينية أن تتوهج فى سطوع فى كثير من مواقف البطولة الرائعة ، أو مناحى الإنسانية الناهضة بشتى الأعباء والآلام ، فإن تفكيره الرصين قد ألزمه بإبداع الحجج الفاصلة والبراهين النافذة يسوقها هادئة دون صخب أو انفعال ، وقد اختص الفصل الأول بالحديث عن بلاد العرب قبل الإسلام طبيعةً وتاريخاً وتجارةً ومعتقدات ، كما أحسن توضيح العلاقات السياسية بين شبه الجزيرة وما يجاورها من الممالك والشعوب .

وفى الفصل الثانى تحدث عن مكة والكعبة وقريش حديثاً تلاءمت عناصره أكمل التلائم . واتسعت دائرته حتى شملت ما يتطلبه الموقف من نقاط تاريخية توغل فى القديم من ناحية وتمضى إلى الحاضر من ناحية ثانية ، وحين ألم بقصة ذهاب إبراهيم إلى مكة مع ولده إسماعيل وأمه هاجر ، عرض لما ارتاب فيه المتشككون بشأنها ، وهى قضية أثارت عجاجة مضطربة حين ردّها الدكتور طه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى) نقلاً عن (مرجليوث) (ووليم موير) وغيرهما ممن أرادوا أن يكذبوا ما قال القرآن بغير علم ولا هدى !! وقد ناقشها الذين نقضوا كتاب الشعر الجاهلى مناقشة حاسمة فى صفحات طوال ، ولكن الدكتور محمد حسين هيكلى قد اهتدى

إلى الحق فى سطور قليلة أجهزت عليها بما لا يدع مجالاً
للارتباب فقال فى وضوح^(١) : « يرتاب (السير وليم موير) فى
ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وينفى القصة من
أساسها ، ويذكر أنها بعض الإسرائيليات التى ابتدعها اليهود
قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك فى
أبوة إبراهيم لهم أجمعين ، إن كان إسحاق عليه السلام أباً
 لليهود ، فإذا كان أخوه أباً للعرب فهم إذن أبناء عمومة توجب
على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسر
السييل لتجار اليهود فى شبه الجزيرة ويستند المؤرخ الإنجليزى
فى رأيه هذا إلى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها
وبين إبراهيم عليه السلام لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية ، وكان
إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً ، ولسنا نرى مثل هذا التعليل
كافياً لنفى واقعة تاريخيه ، فوثنية العرب بعد موت إبراهيم
وإسماعيل - عليهما السلام - بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا
كذلك حين جاء إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ، وحين
إشترك وإسماعيل عليه السلام فى بناء الكعبة ، ولو أنها كانت
وثنية يومئذ ، لما أيد ذلك رأى السير (موير) ، فقد كان قوم
إبراهيم - عليه السلام - يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم
فلم ينجح ، فإذا دعا العرب إلى مثل مادعا إليه قومه ولم
ينجح ، وبقي العرب على عبادة الأوثان . لم يطعن ذلك فى

ذهاب إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - إلى مكة ، بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ فإبراهيم - عليه السلام - الذي خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين وإلى مصر ، رجل ألف الارتحال وألف اجتياز الصحارى ، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقا من القوافل منذ أقدم العصور ، فلا محلّ إذن للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها ، والسير (وليم موير) والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه . يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب وإتصالهم وإياهم بصلة النسب ، وماندري وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كيف لا يكون جائزا في شأن الرجلين بالذات ، وكيف لا يكون ثابتا قطعاً ورواية التاريخ تؤكده ، وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب ، وقد ذكره القرآن ، وتحديث به بعض الكتب المقدسة الأخرى ؟

ننقل هذا النقاش بأجمعه لنبين كيف يصيب الكاتب الكبير مقطع الحق من أقرب طريق ، وله في كثير من فصول الكتاب قوة نقدية ذات براعة ملجمة ، ومناقشته الحاسمة لما عرف بحادثة الغرائيق ولما افتراه المفترون عن زواج الرسول - عليه الصلاة والسلام - بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد ، ولما خاض به السفهاء في تعدّد زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أنه كان مؤيدا بروح الحق ، وإذا كان بعض

سالفه قد تعرض لما تعرّض له مؤلف . (حياة محمد) ، فقد أضاف الدكتور هيكل لسابقه حججا شافية ، وصال مصالاً جهيراً لا يكاد أن يتعلق أحد بغباره ، ومن العجب العاجب حقاً أن أدعياء البحث في (السيرة النبوية) بعد ظهور هذه البحوث الشافية يردون موردها ويمثلون المجلات مرددين وكأنهم أصحابها الحقيقيون ، وكان عليهم أن يعرفوا للكاتب الكبير فضله ، وألاً يفضحوا أنفسهم بالنقل من كتاب مشتهر ، وليتهم إذ سرقوا أفكاره وبراهينه استطاعوا أن يحافظوا على ديباجته البيانية البارعة ، ولكنهم نقلوا الحجج الدامغة بتعبيرهم المتخاذل فجاءوا بهيكل عظمى يعرى من الدم واللحم ! ويلقى ظلاً من الكآبة في نفس قارئه ! وما عليهم وقد أرادوا أن يشتهروا بالبحث أن يقتبسوا كلام الرجل شكلاً وموضوعاً وينسبوه إليه ، ليكون ما ينقلونه وحده هو الواحة الخضراء في صحراء قاحلة تمور بها الأعاصير قاذفة بالرمال ! وكم يلقي بها السالك من عناء .

أوضحنا في غير لبس إعجابنا بالتحليل الأدبي الرائع لموقف النبوة في كتاب (حياة محمد) ، ولكننا لا نغض الطرف مع هذا الإعجاب البالغ عما نراه موضع الملاحظة ، فالحق حق ، لا يختلف عليه مخلص غيور ، وقد كان الدكتور موفقاً في كثير من تحليلاته الشافية ، وخواطره الملهمة ، كما كبا به القلم في بعض ما اتجه اليه من تعليل ، ولا بد أن يقف القارئ على نموذجين مختلفين ، ولا إخاله سيتعب حين يجدني أوثر أن أنقل

بعض ما قال الكاتب ، فهو الكاسب حقا إذ يستمع إلى (هيكلم) الأديب البارع يحدثه عن تأمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى صدر شبابه فىقول : (١) « وما زاده إنصرفا إلى التفكير والتأمل اشتغاله برعى الغنم سنى صباه تلك ، فقد كان يرعى غنم أهله ، ويرعى غنم أهل مكة ، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطا ، وكان يقول : ما بعث الله نبيا إلا رعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجساد ، وراعى الغنم الذكى القلب يجد فى فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفى تلالؤ النجوم إذا جن الليل موضعا لتفكيره وتأمله ، يسبح معه فى هذه العوالم ، ينبغى أن يرى ما وراءها ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه ، وهو يرى نفسه مادام زكى الفؤاد ، عليم القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه ، أليس يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى ؟

أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر ، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعا ، هذه الأفلاك والعوالم التى يراها فى فسحة الكون أمامه متصلا بعضها ببعض فى نظام محكم ، لا الشمس ينبغى أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ؟ وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد - صلى الله عليه وسلم - يقتضى انتباهه ويقتضيه حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية فأى انتباه وأية قوة

(١) حياة محمد ص ١١٦ .

تحفظ على نظام العالم كل أحكامه ! وهذا التفكير والتأمل من شأنها صرف صاحبهما عن شهوات الانسان الدنيا ، والسمو به عنها بما يبديان من كاذب زخرفها ، لذلك ارتفع محمد - صلى الله عليه وسلم - في أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وبقي له وهو (الأمين) .

ثم يقول الدكتور (هيكل) متابعا حديثه : « إن حياة التأمل والتفكير وما تستريح إليه من عمل بسيط كرمى الغنم ، ليست بالحياة التى تدر على صاحبها أخلاف الرزق وتفتح أمامه أبواب اليسار ، وما كان محمد يهتم لذلك أو يعنى به ، وقد ظل حياته أشد الناس زهدا فى المادة ورغبة عنها . وما إقباله عليها . والزهد بعض طبعه . وكان لا يحتاج من الحياة إلا أكثر مما يقيم صلبه ، أليس هو القائل : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . أليس هو الذى عرف عنه كل حياته حرصه على شطف العيش ، ودعوة الناس إلى خشونة الحياة ، والذين يتوقون إلى المال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغونه لارضاء شهواتهم ، لم يعرف محمد - صلى الله عليه وسلم - طوال حياته شيئا منها ، واللذة النفسية الكبرى لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ، ومن دعوة إلى التأمل ، هذه اللذة العظيمة لا يعرفها إلا الأفلون ، والتى كانت لذة محمد منذ نشأته ، ومنذ أرتة الحياة فى نعومة أظافره ذكريات بقيت مطبوعة فى نفسه ، داعية إلى الزهد فى الحياة ، وأولاها موت أبيه ، وهو ما يزال جنينا ، ثم موت أمه وموت جده ! هذه اللذة ليست فى حاجة إلى ثروة

من مال ، وإن تكن في حاجة إلى ثروة إنسانية طائلة يعرف الإنسان معها كيف يعكف على نفسه ويعيش بها وفي دخيلتها ، ولو أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ترك شأنه يومئذ لما نازعته نفسه إلى شيء من المال ولظل سعيدا بهذا الحال ، حال الرعاة المفكرين الذين ينتظمون الكون في أنفسهم ، والذين يحتويهم الكون في حبة قلبه « ص ١١٨ (حياة محمد) .

يا الله ! كم لهذا التحليل الرائع من أمثال يراها القارئ في أماكن كثيرة متصلة من الكتاب يراها عند وقفة الكاتب لدى قول أبي طالب لابن أخيه ص ١٤٣ : (ابق على وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق) ، إذ ينشط القلم السيل ليتحدث عن هذه الوقفة التاريخية التي يخشع الوجود لها منتظرا ما تقوله شفتا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أيقصر عن مقاومة الباطل فتطغى المجوسية ، وتتجبر الوثنية ، أم يهتف بعزيمة الإيمان ليحرر العقول من أسر الأوهام ، فليؤد رسالته ، ولخير له أن يموت مؤمنا بالحق من أن يعيش ساكتا عن الباطل ، لقد التفت الرسول قائلا لعمه : (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته) .

يقول الكاتب : لقد اهتز أبوطالب لما سمع ووقف مبهورا أمام هذه القوة القدسية ، والإرادة السامية فوق الحياة وكل ما في الحياة ، وقام محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد خنقته العبرة مما فاجأه به عمه وإن لم تدرك نفسه خلجة ريب في

السبيل الذى يسلك ، ولم تكن إلا لحظة اهتز فيها وجود أب طالب متحيرا بين غضبة قومه ، وموقف ابن أخيه حتى نادى محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن أقبل ، فلما أقبل قال له : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدا » .

كما يرى القارىء أمثال هذه الوثبات الرائعة حين يتحدث عن قصة ابن أم مكتوم وانصراف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنه إلى كبراء قريش طامعا في إسلامهم وطرحهم الجمود البالى فيتساءل (هيكمل) ، ص ١٧١ : أحقا أن السنين تنسى النفوس جهودها ومحافظتها على القديم البالى ؟

إنما يكون ذلك عند الممتازين ممن تنزع نفوسهم للكمال فما يزالون يقلبون الحقائق التى آمنوا بها من قبل ليفنوا ما يعلق بها من زيف بالغة ما بلغت تفاهته ، وهؤلاء كأن قلوبهم وعقولهم بوتقة دائمة الغليان تتقبل كل جديد من رأى يلقي إليها فتصهره وتطهره وتنقى خبثه وتستبقى ما به من خير وحق وجمال ، وهؤلاء يلتمسون الحق فى كل شيء وفى كل مكان وعلى كل لسان ، بيد أنهم فى كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة ، وهم لذلك قلة أبدا ، وهم يجدون الخصومة ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوى السلطان إذ يخافون من كل جديد أن يجنى على سلطانهم ، ثم يستعدون السواد بتقديس الصروح التى نخر فيها السوس على من يدعو إلى الحق الصريح ، والسواد ينصرونهم إذ ينظرون إلى أرزاقهم التى فى أيديهم ولا يسهل

عليهم أن يعلموا أن الباطل قريب الأمد ، وأن الحق على وشك
البزوغ !

هذا بعض ما نشير إليه في مجال الإشادة ! أما ما نراه موضعاً
للمجاذبة ، فهو ما تشابه فيه الكاتب المسلم بعض الشبه مع
المستشرق الفرنسي (درمنجم) في تحليل بعض الظواهر النفسية
تحليلاً يتجاوز الواقع إلى التخيل مع اختلاف الغاية بين
الكاتبين ، فالأستاذ (درمنجم) لا يؤمن بأن محمداً - صلى الله
عليه وسلم - نبي أرسله الله للناس ، بل يرى أنه كان ذا نفس
متيقظة عالية ، وعقل مفكر متوثب ، وقد هدته نفسه الصافية
وعقله المفكر إلى نبذ عبادة الأصنام وتمثل إله خالق أبداع الكون
على أحسن نظام ، وأطال التفكير في ذلك في صحوه ، حتى
رأى في أحلامه صوراً مما يملأ عقله في يقظته ، فاعتقد أنه نبي
مرسل ! هكذا يحتمل المسيو. درمنجم ، كل الاحتمال كيلاً
يعترف بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع وضوح دلائلها
الصادقة ، وقد أسرف على نفسه في تفسير أحداث حياته مما
يؤيد وجهة نظره الباطلة ، أما الدكتور (هيكلم) فمؤمن قوى
الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدق يقينه ، وأن
الله قد بعثه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بشيراً ونذيراً
وهدى ورحمة للمؤمنين ، ولكنه أخذ يحلل الأحداث النبوية ،
وما عرف من مواقف الكريمة قبيل البعثة الشريفة في مكة
بعمامة ؛ وغار حراء بخاصة ؛ ليستدل بها على كمال عقله وقوة
روحه ، وعظيم استعداداته لتلقى رسالة السماء ! فتكون فجراً

صادقا يسبق ضوء الصباح ، وكان الدكتور (هيكل) قد ترجم عدة فصول من كتاب الأستاذ (درمنجم) ونشرها في (السياسة الأسبوعية) ، قبل أن يتفرغ : لكتابة السير المطهرة من فكره الخالص فتأثر لا شعوريا ببعض ما اتجه اليه (درمنجم) في تحليله النفسى ، وقال به لا ليصل إلى نتيجته الباطلة ، بل ليثبت صدق الفطرة المؤمنة في نفس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ! وأستاذن القارئ أن أنقل إليه من كلام الدكتور (هيكل) ما أراه موضع التعقيب الصريح ! ولن يضائل ذلك شيئا من مكانته فكل بشر يخطئ ويصيب . قال المؤلف تحت عنوان جانبى هو (التماس الحقيقة) (١) :

« وهو - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشده بل فى الكون المحيط به ، فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء فى ساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى ، وفى البحر وموجه وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود وفى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سره ، ولم يكن فى حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشره قومه من شئون الحياة ، وما يتقربون به إلى

ألهتهم ليس حقاً ، فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ، و(هبل) و(اللات) و(العزى) وكل هذه الأصنام والأنصاب القائمة في جوف الكعبة لم تخلق يوماً ذبابة ولا جادت مكة بخير .

ولكن أين الحق إذن ؟

أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه ، أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق ، حياة بالماء والنور والدفء ، كلا ، فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء ، أهو فيها وراء هذه الأفلاك من أثر لا حد له ولا نهاية ، ولكن ما هذا الأثر ؟ وما هذه الحياة التي نحيا اليوم وتنقضى غداً ، ما أصلها ما مصدرها ، أهى مصادفة تلك التي أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ، ولكن للحياة وللأرض سنناً ثابتة ولا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها ، وما يأتي الناس من خير وشر ، أفيأتونه طواعية واختياراً أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ في الأمور النفسية والروحية كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يفكر أثناء انقطاعه وتعبده (بغار حراء) ، وكان يريد أن يرى الحق فيها وفي الحياة جميعها ، وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره ، وكل ما في وجوده ، ويشغله لذلك عن الحياة وصباحها ومساءها فإذا انقضى شهر

رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وغافية .

في بعض ما تقدم خواطر تشبه إلى حد ما خواطر أخرى قالها المسيو (درمنجم) في كتابه ، وقد أنكرها عليه السيد محمد رشيد رضا في كتاب (الوحي المحمدي) إذ جمعها مع ما يماثلها ، وعقد لذلك بابا طويلا ، يقع ما بين ص ٨٦ ، ص ٩٤ من الطبعة الثالثة من كتاب (الوحي المحمدي) ليحكم على ذلك كله بالتخيل الشعري من كاتب أعجمي لا يتقيد بالوقائع عند تسجيل الحقائق التاريخية المعلومة ! ومما نقله السيد رشيد رضا مما نراه شبيها هلى حد ما بكلام الدكتور (هيكل) قول الكاتب الفرنسى^(١):

(وهذه النجوم فى ليالى الصيف فى الصحراء شديدة البريق
ليحب الإنسان أنه يسمع بصيص صوتها وكأنه نغم نار موقدة ،
حقا إن فى السماء لشارات للمدركين ، وفى العالم غيب ، بل
العالم غيب كله ، لكن ألا يكفى أن يفتح الإنسان عينيه
ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ، ليرى حقا وليسمع الكم
الخالد ، لكن للناس عيوننا لا ترى وآذاننا لا تسمع ، وهل
تحتاج لتسمع ما وراء السماء من أصوات إلا لقلب خالص
ونفس مخلصه وفؤاد ملىء إيمانا) .

(١) الوحي المحمدي ص ٣ - ٩١

وكل ذلك فى رأى لا يدل على نبوة صاحبه المتظرة ، إذ أننا نعرف أن كثيرا من مفكرى الجاهلية قد نظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وتساءلوا عن الحياة والموت دون أن يكون ذلك خطوة لنبوتهم وكلنا يعرف قس بن ساعدة^(١) حين دعا الناس إلى أن يسمعوا ويعوا وإلى أن يعلموا أن من عاش مات ومن مات فات ، وإلى أن يلتفتوا إلى ما حولهم من ليل داج ونهار ساج وساء ذات أبراج ونجوم تزهو وبحار تزخر ! . وللمأمون الحارثى كلام شبيه بذلك وهو جاهلى حكيم^(٢) ! والسؤال الذى يحيرنى حقا فى هذا المقام هو أن الدكتور (هيكى) قد عد كتاب (الوعى المحمدى) من مراجعه وذكره فى ثبت المراجع أفلم يقرأ ما وجهه صاحب المنار إلى (درمنجم) من اعتراض ؟ أم نراه قد قرأ ولم يطمئن إلى صواب ما قال ؟ !

لقد شغف الدكتور محمد حسين هيكى بكتابه (التراجم التاريخية) من شرقية وغربية لعظماء المشاهير فى السياسة والأدب والاجتماع ، وكان عليه أن يكون دقيقا تمام الدقة حين يكتب عن نبى مثالى فلا يبيح لنفسه أن يستطرد إلى تحليل ممتد تنطق به النصوص وقد يكذب ، بل يلتزم التزاما بالإكيد الثابت مما تنطق به النصوص المحددة دون استطراد ، وإخالة قد التزم حقا

(١) مهذب الاغانى ح ١ ص ١٤٩

(٢) الامالى ح ١ ص ٢٧٣ ط (٢) دار الكتب المصرية

بذلك فى جلّ ما كتب عن سيرة الرسول ، وتبقى بإزاء هذا
الجلّ الكثير قليل معدود اندفع فيه القلم دون انثا ومن ذلك
القليل المعدود قوله^(١) :

كان (رسوله الله - صلى الله عليه وسلم - يرمى الغنم مع
زميل له فحدثته نفسه يوما أن يلهو كما يلهو الشباب فأفضى الى
زميله هذا ذات مساء أنه يود أن يهبط بمكة ، يلهو بها هو
الشباب فى جنح الليل وطلب لذلك أن يقوم على حراسة
أغنامه ، لكنه ما إن بلغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهه عرس
زوج وقف عنده ثم ما لبث أن نام ، ونزل مكة ليلة أخرى لهذه
الغاية ، فامتألت آذانه بأصوات موسيقية بارعة كأنها هى
موسيقى السماء ، فجلس يستمع ثم نام حتى أصبح ، وماذا
عسى أن تفعل هذه المغريات التى وصفنا ، والتى لا يستريح
اليها من يكون دون محمد صلى الله عليه وسلم سَمَوْا بمراحل
كثيرة ، لذلك أقام بعيدا عن النقص ، وأصل الحادثة معروف
فى كتب السيرة ، ولكن السياق قد تجاوز الأصل الى إيجاءات
بعيدة لم تكن ممّا يجوز أن تعزى لنبي طاهر كريم ، وهذا ما عناه
الأستاذ (محمد فريد أبو حديد) . حين وقف أمام هذه الحادثة
كما جاءت على يراع الدكتور (هيكل) لينكر ما تخلّلها من زيادة
توحى بانطباع لا يتفق مع الشعور النبوى الطاهر .

قال الأستاذ فريد^(١) :

(إن ذكر القصة على هذا النحو يخالف لما هو وارد في السيرة لأنه قد يلقي في ذهن القارئ الخالق الذهن أن الرسول المعصوم قد كان في نفسه ذلك الميل المضطرب الى العبث واللهو ، فليس في الأمر أكثر من أن الرسول طلب الزميل له أن يحرس غنمه حتى ينزل الى مكة ليسمر فيها كما يسمر الفتيان فلما بلغ أعلى مكة سمع صوت غناء ومزامير ، فسأل عنها : فقيل : عرس فلان وفلانة ، فعرج على العرس يلتمس السمر ولكنه لم ينشط الى ذلك الطرب ، بل ضرب الله على أذنه فنام ، وبذلك حفظه الله من أن يرد أقل موارد اللهو ، إذ قد كان قلبه منصرفاً منذ نشأ الى الجليل والى الجد ، ولا يخفى ما في إيراد القصة على الصورة الثانية من فرقٍ عما في التصوير السالف ، فالرسول - عليه السلام - منذ طفولته عظيم النفس لا يميل إلا الى الجد والوقار ، ولقد كان جده عبدالمطلب يراه وهو صبي يجلس على البساط الذي يفرش له بجوار الكعبة ، فلا يجرو أحد على أن يقترب من كبير قریش إلا ذلك الصبي الصغير ، فكان عبدالمطلب يقول عنه في كثير من الإعجاب : (إنه يأنس ملكاً) ولقد قال - صلى الله عليه وسلم - في وصف حاله العامة : (لست من دَدٍ ولا دَدُ منى) أى أنه كان لا يميل بطبعه الى اللهو فلقد تنزه مقام الرسول (إذن) عن أن تسول له نفسه

(١) مجلة الرسالة السنة الثالثة العدد الممتاز ابريل سنة ١٩٣٥ . وقد رمز الكاتب لنفسه بهذه الحروف م . ف . أ .

الهبوط الى مكة ليصيب من لهُوها ويعبث فيها عبث الشباب فى جنح الليل ، وكم كان بمكة من فجور ما أبعد الرسول فى صباه عن أن تحدّثه نفسه بشيء منه ، وما أبعد الفرق بين عبث الشباب ولهُوه ، وبين السمر البرىء الذى يسمر به الفتیان) .

فإذا تركنا تحفظنا الحذر على بعض التحليلات النفسية التى سجلها المؤلف الكبير إلى تحليلاته الاجتماعية أو السياسية فإننا لا نرى سوى الإعجاب المطلق بما يبدیه الكاتب من عمق دقيق فى فهمه الصحيح للأحداث ، والغوص على فلسفة عامة تنتظم مجريات الأمور انتظاما طبيعيا لا نشاز فيه ، وقد استوعب المؤلف الأصول التشريعية والخلفية للإسلام استيعابا أخذ يفسر به كل موقف من مواقف الدعوة الإسلامية فى طورها الأول ، وهو بهذا الاستيعاب البصير لا يخطئ موضع النظر السديد ، وقد تتابعت فصول الكتاب حافلة بشتى النظرات الفكرية الصائبة بحيث تتسلسل الأحداث تسلسلا منطقيا يبدأ بالمقدمات وينتهى بالنتائج ، ولئن كانت هذه الأحداث غير جديدة على القارئ فإن تفسيرها المنطقى هو الجديد ، وفى نطاق هذا التفسير تكمل صورتها على وجه واضح القسّمات ، ساطع الملامح حتى لترى من خلفه نبضات الدم ، واختلاج الأسارير ، وقد تعمق المؤلف فى دراسة اليهودية والمسيحية ليتحدث عنها فى مجال المقارنة بما جاء به الإسلام ، وظهر هذا الحديث المقارن فى أكثر من موضع من مواضع الكتاب

ونستشهد لذلك بما علق به الكاتب على معاهدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لليهود بالمدينة في أول عهده بيثرب حين دعا - صلى الله عليه وسلم - الى حرية الاعتقاد ، وصداقة الارتباط ، متطلعا إلى تمكينه السريع العاجل من نشر دينه وإقامة دولة تحميه ، وكان الأنبياء من قبله يبلغون كلمة الله فحسب ويتركون لمن بعدهم من الساسة أن يعملوا على نشر دعوتهم بالمقدرة التي تتاح لهم بمرور الأعوام بعد رحيلهم بزمان طويل ! ومحمد - صلى الله عليه وسلم - هو الذي جنى ثمار النصر حين جعل من المسلمين قوة مرهوبة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتنتصر على الأعداء تحت رايته الظافرة ، فوقف خلفاؤه من بعده على أرض صلبة وطّدها بجهادهم ولم يسلمهم إلى فراغ يبحثون فيه عن موطئ للأقدام ، أما التفسير الخلقى لشئال الإسلام فقد أحسن الكاتب إيضاحه حين اتخذ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المثل الأعلى لهذه الشئال الكريمة فتحدث في الفصل الحادى عشر عن العهد الأول للمسلمين بيثرب إذ قدموا إليها مهاجرين ، وإذا كان الإخاء المتماسك طابع هذا العهد فقد أرسي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قواعده على الحب والبر والرحمة ، وأبى أن يظهر وهو قائد الدعوة الاسلامية فى مايدل على السلطان أو الملك وأخذ يقول لأصحابه : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبدالله ورسوله » وهكذا يجود الكاتب بأمثال هذه الروائع الفريدة فى صفحات نيرة وضيئة ! والعجيب أن ما ذكره

الكاتب مشتهر معروف ولكنه فى سياقه المطرد ومكانه اللائق يلوح كالطريف الجديد .

ونحن نعرف كيف قام أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمجادلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومساءلته الملحة فى غير إذعان للحق أو خضوع للدليل ، ونعرف أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد ضاق بلجاجهم المتعنت ثم شاء أن يحسم الموقف فتلا عليهم قول الله - عز وجل - (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) : وقد أشار الكاتب إلى ذلك كله ليعقب عليه بقوله الرائع : (حياة محمد ص ٢٣٤) .

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا فى هذه الدعوة : ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، فأما الروح المخلصة الصادقة ، فأما النفس الإنسانية التى كرمت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره ، لكن فى الحياة الإنسانية إلى الجانب النفسى جانبها المادى فيها هذا الضعف الذى يجعلنا نقبل لغيرنا علينا سلطانا بئس ما يشتري به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا ، فيها هذا الغرور القتال للكرامة والعاطفة ولنور النفس العاقلة ، هذا الجانب النفسى المصور فى المال والجاه وفى كاذب الألقاب والرتب هو الذى جعل أبا حارثة أكثر نصارى (نجران) علما ومعرفة يدلى إلى رفيق له باقتناعه بما

يقول محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما سأله رفيقه ، فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ كان جوابه ، يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلاّ خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ماترى .

وقد تعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى كثير من مواقف الألم ! وأشق ما يضايق القارئ المسلم أن يقرأ عن هذه الآلام التي أصابت نبيّه الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهو يتمثلها في خياله ضائقا متبرّما ، فإذا رأى كاتباً مجيداً يفصح عن هذه الآلام وقد حمل من المشاعر ما يحمله كل مسلم محب ، وكان لهذا الكاتب منزلة الدكتور (هيكل) في قوة الإفصاح وبراعة التصوير فإن ما يخطه يترك في النفوس أثرا عميقا لا يكاد يزول على مرور الزمن ! لقد لاقى أطهر الأنبياء أعنف ضروب الغدر وأشد ألوان الإيذاء ، ووقف في أخرج المأزق الحربية وأشق المضايق النفسية يعانى ما لا بد منه في سبيله الشاق ، وكان الكاتب الكبير معه في مواقفه الأليمة يرصد أبعادها ويسبر أعماقها ، فإذا اشتعلت نفسه حرارة وألما اضطرا اضطرابا إلى التنفيس عن مشاعره فيما يبدع من تصوير ، وكل قارئ مسلم يريد القدوة برسوله فيما يعترضه من نكبات الحياة فيتخذ من آلامه الشريفة مدداً مسعفاً من الصبر الجميل ، إذ أنه - وهو أعزّ الخلق على الله - قد كابد ما كابد من تباريح ! أفلا يكابد من دونه بعض ما كابد من أشجان ، ثم ألا يجد برد العزاء الشافي ينزل بالندى على قلبه حين يعلم أن الحزن ضريبة المصلحين

الأبوة وطريق الأنبياء في خطوهم الشاسع البعيد ! استمع إلى ما قاله الدكتور (هيكل) - نضر الله روحه - واصفاً^(١) بعض هذه الشجون الدامية عقب وفاة أبي طالب وخديجة في عام الحزن الشديد .

« ما لبث محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فقد هذين النصيرين أن رأى قريشا يزيد في إيذائه ، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه ترابا ، أفتردى ما صنع ؟ دخل إلى بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه فاطمة ابنته ، وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكى ، وليس أوجع لفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا ، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا فكل دمة ألم يستل من مآقى البنت قطرة حم تهوى على قلبنا فينقبض انزعاجا ، حتى لنكاد من شدة الانزعاج نصيح ألما ، وكل أنة حزن تثير في الحشا والكبد أنات ما أقساها ، تختنق لها حلوقنا وتكاد تهمل بالدمع من وقعها قلوبنا ، وقد كان محمد - صلى الله عليه وسلم - أبر أب بيناته ، واحناه عليهن فهاذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت من قريب أمها ، وليبكائها هي من أجل ما أصاب أباه ، لم يزد ذلك إلا توجها بقلبه إلى الله وإيماننا بنصره إياه ، قال لابنته وعينها تهمل بالدمع : « لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك » ،

ثم كان يردّد : « والله ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات »
أبو طالب .

وفي كتاب (في منزل الوحي) للمؤلف الكبير تصوير حَيّ
لمشاعر الحزن الصادق في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم -
على فقد عمّه حمزة يوم (أحد) ، وقد استطاع الكاتب بما بلغ
من صدق التصوير أن يستقطر الدمع من أقسى القلوب ! ولسنا
هنا بصدد الحديث عن كتاب (في منزل الوحي) وإن كان الكثير
من فصوله الرائعة متمماً لفصول (حياة محمد) فكلا السفرين
الرائعين ينهلّ من غمام واحد ، ويتكون في سماء عالية الأوج
ساطعة الضياء ! فإذا أراد القارئ نموذجاً آخر من كتاب (حياة
محمد) فلا شيء أروع في باب التأثير النفسي مما كتبه عن موت
إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم ، وما قدّم به من
ملايسات تزيد في رهب الموقف وتأثيره حين قال^(١) .

(لم يكن تعلق محمد صلى الله عليه وسلم بإبراهيم لغاية في
نفسه لها اتصال برسائله أو بمن يخلفه ، فقد كان - عليه
السلام - في إيمانه بالله ورسائله لا يفكر في ولده ولا فيمن
يرثه ، بل كان يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » إنما هي
العاطفة الإنسانية في أسمى معانيها ، والعاطفة الإنسانية التي
بلغت من السمو في نفس محمد - صلى الله عليه وسلم - ما لم
تبلغه في نفس أحد غيره ، العاطفة الإنسانية التي جعلت العربي

مكتبة
المهتدين

(١) حياة محمد ص ٤٤٧

يرى فيمن يخلفه من الذكران صورة من صور الخلود ، هذه العاطفة هي التي جعلت محمدا - صلى الله عليه وسلم - يخلع على إبراهيم كل هذا الحب ، ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده ، ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة في نفسه ، أنه فقد ولديه : القاسم والطاهر ، وهما ما يزالان طفلين في حجر أمهما خديجة ، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد أخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجا وأمهات ، فلم تبقى له منهن غير فاطمة ! هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيده تحت صفائح الثرى تركوا في نفسه قرحة اندملت بمولد إبراهيم وتركت مكانها رجاء وأملا ، وكان حلاً له أن يمتلىء بهذا الأمل غبطة واستبشاراً .

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التي ذكرنا ، فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته ، فنقل إلى نخل بجوار مشربة أم إبراهيم ، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه ، ولم يطل بالطفل المريض ، فلما كان في الاحتضار وأخبر النبي بأمره أخذ بيد عبدالرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه ، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها ، فوجد إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه ، فأخذه فوضعه في حجره وقلبه يحف ، ويده تضطرب ، وقد ملك الحزن عليه فؤاده ، وبدت صورة الألم على قسّات وجهه ، وضعه في حجره وقال : (إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً) ثم وجم وذرفت عيناه ، (والطفل)

- صلى الله عليه وسلم - يجود بنفسه ، وأمه وأختها تصيحان ، فلا ينهما رسول الله ! فلما استوى إبراهيم جثمانا لا حراك به ولا حياة فيه ، وانطفأ بموته ذلك الأمل الذى تفتحت له نفس النبى زمنا ، زادت عينا محمد صلى الله عليه وسلم تهتانا وهو يقول : (يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا وبعد أن وجم هنيهة قال : تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون) .

أترانى أسترسل فى الاستشهاد على روعة ما أنقل ، ليتنى أستطيع ، وإن المقام لا يحتمل أن أوالى الصفحات منقولة مطرّدة ! فلاكبح البراع .

لقد عاش المؤلف أحداث السيرة بقلبه ، وامتلا بها جنانه ، واستنشقت رثاء عبرها المنعش ، فكتب مؤلفه الرائع ، لم يكذ يغادر مما تعورف من هذه الأحداث شيئا ! وقد أطرى المادحون صنيعه إطرء لا مبالغة فيه ، فقد تضمن هذا الإطرء فى نهايته بعض المآخذ المهمة ونكون أمناء لو كشفنا جانباً مما قاله هؤلاء الناقدون ، وهم من كبار الباحثين دون نزاع .

١ - قال الأستاذ محمد كرد على بعد ثناء طيب على الكتاب^(١) ما ملخصه :

(١) مجلة « الرسالة » - السنة الثالثة - العدد ١٠٤ أول يوليو سنة ١٩٣٥ م .

وقد تابع (هيكل) بعض المؤرخين في دعوى أن الرسول اجتمع ببخيرا الراهب في بُصرى ، ثم اتصل في رحلته الثانية إلى الشام ببعض النصارى وتحدث إلى رهبانهم وسمع منهم ، وهذه الروايات في اجتماع الرسول - صلى الله عليه وسلم - (ببخيرا) (ونسطور) . لا تستند إلى أصل تاريخي صحيح ، ولذلك أوردها ابن كثير في البداية والنهاية بصيغة الشك فقال : «زعموا» ولم يرد (لبخيرا) ذكر في كتب السريان ، وقد اختلف الناس فيه . فمن قائل : إنه كان حبرا من يهود (تيماء) ومن قائل : إنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ، وفي (سيرة ابن هشام) أنه كان إليه علم النصرانية .

ويقول ابن الجوزى . في عيون التاريخ والسَّير إن أبا طالب لما ارتحل بالرسول تاجرا قبل الشام نزل (تيماء) . فرآه حبرا من اليهود يقال إنه بخيرا الراهب ، فقال : مَنْ هذا الغلام منك ؟ قال هو ابن اخي ، قال : أشفيق عليه أنت ؟ قال : نعم ، قال : فوالله لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود ، ويقول ابن كثير : إن الذى ظهر من سياق القصة إنه نصراني ، وقد ذهب الزهرى إلى أنه حبر يهودى .

يقول الأستاذ كرد على بعد استعراض هذه الأقوال : وتناقض الروايات في دين الراهب أكان يهوديا أم نصرانيا وتناقض الروايات في محل الاجتماع ؛ هل كان في (تيماء) أو في (بُصرى) وتناقضهم في الرحلة الثانية واجتماع الرسول ، (بنسطور) . مما يوقع الشك في أمرها ، وذلك لا يتعلق به أمر

كبير في إثبات نبوة الرسول ، كما أنه من المتعذر أن يأخذ الرسول عن الرهبان وهو عابر سبيل في سن التاسعة أو الثانية عشرة شيئاً عن دينهم .

ونقول - تعقيباً على كلام الأستاذ كرد علي : إننا نميل معه إلى الشك في هذه الروايات ، وبخاصة حين نجد من أعداء الإسلام مَنْ يرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تعلم حقائق السماء من الرهبان في رحلته العابرة هذه ، وهو قول لا يثبت لتحقيق !!

٢ - قال الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى (بمجلة الأزهر) :
إذا تصفح القارئ الكتاب (حياة محمد) رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعية الدكتور هيكل تجلياً باهراً وتضطره بسحر بيانها أن يقتفى أثرها في أدوار هذا التاريخ الحافل بالعظائم ، فتمر به على صفحات أملاها الإيمان الراسخ ، والفهم الثاقب ، والغوص البعيد . مما لا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر في البيان والبحث العميق ، ولا نشط إذا حكمنا بأنها من الطرائف التي كتب لها الخلود .

ثم قال الأستاذ وجدى : وليس مؤدى هذا الاطراء أننا نوافق المؤلف على كل الآراء التي بسطها في مقدمة كتابه ، كتعليله أسباب الخصومة بين المسلمين والمسيحيين ، أو تقريره بأن الأوروبيين لما فقدوا الروحانية . هبوا يتلمسونها في المذاهب

الهندية ، كما لا نوافقه على كثير مما جاء في صلب الكتاب عن الحياة الاجتماعية كقوله عن قريش : إنها كانت أشبه بجمهورية حرّة ، وكاعتداده في دحض بعض الشبهات بقوله . إن العظمة لا تُخضع لقانون فإن هذه الآراء والأحكام لا تمت إلى العلم بصلة وهي بالخطايات أشبه ، بيد أن هذه الهنات لاتنقص من قيمة هذا الكتاب الممتع ولا نعرف أنه يخلو من أمثاله كتاب في الأرض ، وهي لا تمنعنا أن نكيل الثناء للدكتور (هيكل) بغير حساب .

٣ - قال الأستاذ محمد فريد أبو حديد (بمجلة الرسالة) ، بعد مقدمة طيبة عن الكتاب وإشادة بأثره القوي . غير أننا مع إعجابنا الكبير بالكتاب وأسلوبه ، ونقده وطريقته لا يسعنا إلا أن ننكر منه أشياء إلّا تكن في صميمه فهي من حواشيه ، نعني بذلك أولاً عنايته بقول من قال السوء من أعداء الإسلام ، فقد أورد بعض أقوال الأفاكين من أهل الضلال والتضليل ، مما يجرح الأذن سماعه على حين لم يكن ذكره في صميم الموضوع ولا في عرض الحجة ، فأى شيء يجديه علينا ذكر سباب شنيع للرسول الكريم ورد على ألسنة بعض أهل الزيغ والحقْد ؟ وقد قيل شيء كثير من أمثال ذلك في أيام الجاهلية فتعفف أهل السير عن إيراده ، وحسنا فعلوا ، فإن المؤمن إنما يتعرض لحجة خصمه ، لا لسبابه وفحشه ، وما كان أغنانا أن نسمع الناس بعض ما نرّ من قلوب هؤلاء الأنجاس .

هذه مأخذ وُجهت للكتاب ، مع مأخذ غيرها غاب عنا مصدرها في شتى الصحف والمجلات ، إذ أحدث الكتاب من الدوى الرنان إبان صدوره ما قل أن يجدثه كتاب آخر ينهج هذا النهج العلمى الرائع دون تعرض إلى الاستشارة الانفعالية ، إذ عهدنا بعض الناس يودّون أن تحدث مؤلفاتهم الدوى لما تحمل من باطل لا لما تصوّر من حق ، وما أهون هؤلاء على الله وعلى المفكرين من النقاد ! وطبيعى أن يقرأ المؤلف كل ما وقعت عليه عينه من الردود وأن يسارع إلى الإجابة عنها ، وفي المقدمة الثانية من الطبعة الثانية للكتاب وما بعدها ، حديث جادّ عما وُجه إلى كتاب (حياة محمد) من انتقاد ، ولا يهمننا أن نوجز ما وُجه إليه من نقد يتعلق بالجزئيات ، لأن كل جزئية صغيرة لا تعدم من يقدر على تحقيقها ذاهبا إلى ما يطمئن إليه من ناصع الدليل ، أمّا النقد الذى يتصل بأساس وطيد من دعائم التأليف العلمى ، فهو ما يجب أن يكون موضع الملاحظة ، ومن العجيب أن المؤلف تعرض إلى وجهتى نظر مختلفتين تمام الاختلاف ، وجهة من ينعى عليه بعده عن طريقة القدماء من المؤلفين فى تدوين الأحداث . حيث يرى أن منهج التاريخ العربى فى صحف الأولين هو الذى يجب أن يحتذى ، أما الوجهة الثانية فأصحابها يذهبون إلى انتهاج مذاهب المستشرقين والوقوف لدى ما اطمأنوا إليه من النتائج التاريخية ! إذ هم أدرى بأساليب البحث العلمى الحديث ! وهكذا تدلّ هذه النظرات الممتدة إلى أقصى طرفى التباعد ، على أن رضا الناس

غاية لاتدرك ، وكان المؤلف فسيح الصدر حين اتسع حلمه لهذا التعارض الصريح . فأخذ يوضح رأيه في كلتا الوجهتين متسهما بما عرف عنه من هدوء العالم ، وتسامح المتفلسف ، فهو يعترف صراحة أنه لم ينهج منهج القدماء في بحثه التاريخي لأنه يجرى على^(١) الطريقة العلمية الحديثة ويراهما أجدى الوسائل في التأليف ، لأن الكتب القديمة تمتلئ بالروايات المختلفة دون ترجيح ، ولا بد للباحث أن يتخذ مقياسا دقيقا يقبل به ما يطمئن إليه ويرفض به ما يراه بعيدا عن القبول ، وقد فقدت أكثر هذه الكتب دقتها المنطقية حين نقلت فاسد الأنباء مكتفية بالسند دون إجهاد في تصحيح المتن ، وقد كانت المنازعات السياسية أثناء التدوين التاريخي سببا لقبول بعض الروايات الباطلة وترك غيرها مما هي أقرب إلى الصحة طمعا في استرضاء من يتولون الأمور ، أو إثارا للذعة المطمئنة حين يحولون دون تربص المتربصين ، وانتقاد المغرضين ، وأقرب الأمثلة على ذلك أن الواقدي وابن هشام والمدائني . قد عاشوا أيام المأمون ، وكتبوا صحفهم في ظل سيطرته ، وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة أراءه مخافة ما قد ما يحل بهم ، لذلك لم يلتزموا الدقة التي يعرفون حدودها كما يتخوفون عاقبتها ، هذا بعض ما يقال عن الأقدمين ، أما ما أخذه المؤلف على ذوى الاستشراق من الباحثين ، فبعضه يرجع إلى تعصب لاحيلة لهم

(١) «حياة محمد» ص ٤٧ وما بعدها .

وإذا كان الأستاذ محمد فريد أبو حديد - كما سلف - قد أخذ على الدكتور (هيكل) ذكره بعض الشتائم المنحرفة لهؤلاء ، فقد شاركه كثير من النقاد هذه الوجهة ، ودافع الدكتور (هيكل) عن رأيه . بأن المنهج العلمى يوجب سرد المطاعن مهما قبحت ليتيسر الرد عليها ، وبأن القرآن الكريم نفسه يذكر ما كان يقوله المشركون عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ويدفعه بالحجة البالغة ، وأدب القرآن الكريم أقوم أدب وأسماء ، فهو يذكر إتهام قريش لرسول الله بالسحر والجنون ويقول :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَالِفَ مَا تُغَايِبُ عَنْهَا آيَاتُ رَبِّهِ﴾

الَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا السَّانُ عَرَبِيٌّ
مُيْتٌ ﴿١٠٣﴾ (١)

ثم إن الحجة لا تدفع علميا إلا إذا ذكرت بأمانة ،
ودوّنت بأمانة ودقة ، ولا يبلغ بها الكاتب هذه الغاية إلا إذا كان
نزيبا في حرصه على الحق ، ولا يتقيد باعتبار غير هذا الحرص
النزيه ، كما لا يتردد في الاعتراف بالحق أيّا كان مصدره متى
اتضح له سبيله المنير .

هذا بعض ما نكتفى به في مجال الحديث عن (حياة محمد)
وفي المقام بعد ما تقدم سعة للقول الممتد ولكننا نجتزئ هنا
باليسير ! .

أحداث السيرة وطه حسين

مؤلف على (هامش السيرة) ذو مجالات متعددة في الكتابة الأدبية ، فهو ناقد أدبي شهير ، وهو مؤرخ يصطنع المنهج العلمي ، وهو كاتب سياسي ينافح عن رأى يراه ، وهو قاصّ لبق يصوّر الأحاسيس النفسية والبيئة الاجتماعية ، والذين يتحدثون عنه من الناقدين يرون أنه حين يكتب القصة التاريخية أو القصة الذاتية . يكون في أحسن مواقفه ، ويصدر عن أبرع ملكاته ، لأنه محدث لبق ومن شأن المحدث اللبق أن يحسن تقديم أحاديثه وأن يبرع في تسلسلها وفي تلوينها وانسجامها وهكذا هو حين يكتب القصة التاريخية أو الترجمة الذاتية . يتصور نفسه محدثا حريصا على هذه البراعة في إنسجام الحديث ، واختيار أعذب نواحيه ، وأوقعه تأثيرا . في تسلسل مطرد يدعو سامعه أو قارئه إلى المزيد ، وقد فطن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد إلى تفوق الدكتور طه حسين في التصوير القصصى عنه ، في غيره من المجالات الأدبية فقال : (إن قدرته - الدكتور طه حسين - في تاريخ العصور الأدبية تأتي بعد قدرته في القصة أو كتابة القصة ، فهو يحسن إقامة الحدود بين العصور ، ويحسن تمييز كل عصر بميزة عامة ، ولكنه أقرب إلى حدود العالم منه إلى حدود الفنان ، ويأتى طه حسين الناقد بعد طه حسين المؤرخ وبعد طه حسين صاحب القصة . لأنّ المدار

فى النقد كله على مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ، وليس نصيب الدكتور طه حسين فى هذه المقاييس بأوفى نصيب^(١) .

فالعقاد يرى تفوق طه فى القصة أولاً وفى التاريخ الأدبى ثانياً وفى النقد ثالثاً ، وقد يخالفه غيره فى ذلك ، ولكن الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - ينحو منحاه حين يتحدث عن كتاب (على هامش السيرة) فيقول فى مقدمة حديثه (ونستطيع أن نطلق على مدرسة الدكتور طه حسين إسم مدرسة الأسلوب التصويرى فالدكتور فى خير حالاته يرسم لوحات متتابعة ، أدواته فيها الكلمات والجمل ، لوحات للمناظر وللحوادث وللمعاني ، وللخبرات النفسية ، والالتفاتات الذهنية على السواء ، وتلك ميزته الكبرى كصاحب شخصية أدبية .

وبقى أن نعرف شيئاً عن نوع هذا التصوير فى مدرسة طه حسين ، أو بتعبير أصح فى طبيعته ، فهو التصوير الحسى ، الذى يرد المعانى أو الخواطر صوراً حسية أو كالحسية ، بله - المناظر والحوادث - فهو يعيدها كما بدأت أول مرة توشك أن تكون مجسمة ، وهو يخلع على هذه الصور الحسية لونا من ألوان الحياة والحركة ، ولكنها الحياة اللطيفة والحركة الوثيدة ، التى تدب هينة ، وتخطر فى رفق . فالسرعة النابضة والحياة الدافقة ليستا من مطالب هذه الصور فى يوم من الأيام .

ثم استشهد الشهيد سيد قطب على قوله بأنموذج إختاره من أحلام شهرزاد ، وأحال القارئ إلى كتب الأيام وأديب ودعاء الكروان والحب الضائع ، ثم اختار من كتاب (على هامش السيرة - الجزء الثالث هذا النموذج - يتحدث عن الوليد بن المغيرة) .

كان الشيخ مهيبا رهيبا ، وكان فخما ضخما ، قد ارتفعت قامته إلى السماء ، وامتد جسمه في الفضاء ، وكان وجهه جهما عريضا ، تضطرب فيه عينان غائرتان بعض الشيء ، ولكنها على ذلك في حركة متصلة لا تكادان تستقران ، وهما متوقدتان دائما ينبعث منهما شيء ، كأنه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ . فإذا لحظنا شيئا أو أطالنا النظر إليه فكأنما تقذفانه بالشرر ، أو تسلطان عليه شواظا دقيقا قويا من النار ، وكان الشيخ فوق هذا كله ذكيا حاد الذكاء نافذ البصيرة يتعمق ما يعرض له من الأمر دون أن يحسّ الناس منه تعمقا لشيء ، يسأله الناس فيجيبهم لساعته جواب مَن فكر وقَدّر ، وأطال التفكير والتقدير ، فيعجبون منه ويعجبون به ، وكان بعد هذا كله بطيء المشي ثقيل الحركة وقورا في كل ما يصدر عنه ، وكان صوته يلائم هذا كله من أمره ، فكان صوتا فخما ضخما عميقا ، يسمعه السامع فيخيل إليه أنه يخرج من غار بعيد القاع ، وكان الناس يهابونه ويرهبونه ، كما كانوا يجلونه ويكبرونه ، فإذا سألتهم عن مصدر ذلك . لم يعرفوا كيف يجيبون ، وإنما كان هذا الرجل يبههم ويسحرهم ويملاّ

نفوسهم إكبارا وإعظاما . فإذا ذكر الوليد بن المغيرة فقد ذكر سيد من أروع سادات قريش ورجل عظيم من رجال البطحاء^(١) .

هذان رأيا العقاد وتلميذه سيد قطب في أسلوب طه بعامه وأسلوبه في - على هامش السيرة - وما ينحو منحاه بخاصة ، وقد صدقا الإبانة عما يريان ، وإن كنت أرى أن الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - قد تحيّف أسلوب طه حين وصفه قال : إن السرعة النابضة والحيوية الدافقة ليستا من مطالب هذه الصور الأدبية في يوم من الأيام ، لأن على (هامش السيرة) وكتاب (الأيام) بالذات يحفلان بكثير من الحيوية الدافقة التي لا تخرج عن طبيعة طه ، كما يحفلان بالنبض السريع حين يتطلب الموقف الأدبي هذا النبض ، فإذا احتاج الموقف إلى هدوئه وبطئه . فهذا ما لا حيلة فيه ، ولعلّ بما مهدت به من رأي الناقلين الكبيرين العقاد ، وقطب في ميزة المؤلف الأدبية ، أدلّ القارئ على مكانة « على هامش السيرة » « والوعد الحق » من إنتاج الأديب الذائع ، فهما حقا في القمة من انتاجه دون نزاع ، وقد عُرف العقاد بشحّه البالغ في الثناء على الدكتور طه ، فإذا أثنى على قصصه التصويرى فلا اتهام إذن في هذا الثناء ، بل هو حق موجز يجيء في نطاق يجتهد العقاد في إيجازه ، لتنافس حاد قام بين الرجلين ، وكان يُرى هادئا في الصحف والمجلات ، ولكنه

كان يتخذ طابع العنف في المجالس الخاصة والأحاديث العابرة ، وطالما هادن طه . العقاد . اجتناباً لخطره . حتى إذا رحل قبله وجد المجال خالياً فعنف .

كتب الدكتور طه حسين في (السيرة النبوية) ثلاثة كتب : أولها (على هامش السيرة) في ثلاثة أجزاء وثانيها (الوعد الحق) في جزء واحد وثالثها في (مرآة الإسلام) . حيث اتسع جانب فسيح منه إلى الحديث عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد ظهر أكثر فصول الجزء الأول من على (هامش السيرة) متفرقا في الصحف الأدبية قبل أن يجمع ، وكذلك ظهر أكثر فصول الجزء الثالث متفرقا في مجلتي (الرسالة) (والثقافة) ، أما الجزء الثاني فقد ظهر كاملا في حيزه الخاص ، ولذلك دلالة الواضحة ، حيث لم تكن لدى المؤلف خطة مرسومة محدّدة في تتابع فصوله على منحى معين ، بل كان يدرس موضوعاً مستقلاً من موضوعات السيرة النبوية ، ليصّوره بأسلوبه القصصي كما يشاء ، ثم يغن له بعد الانتهاء منه موضوع آخر فيمليه ، وقد ظلم المؤلف كتابه فعلا حين سمّاه (على هامش السيرة) وكان الأولى أن يسمّيه (في آفاق السيرة) لأن عنوان (على هامش السيرة) يشعر القارئ بادىء ذى بدء أن المؤلف لا يمسّ إلا أطرافاً بعيدة ، هي على الهامش وليست في الصميم ، مع أنه لم يتعدّ الفصول التي اعتاد أن يتحدث عنها كاتبو التاريخ النبوي ! بل أقول : إنّ كتاب الدكتور طه حسين في جزئيه الأول والثالث وفي أكثر أبواب الفصل الثاني لم يخرج

عما أتى به ابن اسحاق في سيرته التي اختصرها ابن هشام ،
 فالحديث عن حفر زمزم وفداء عبدالله وعن التحكيم وإغراء
 فاطمة الخثعمية ورحلة عبدالله في التجارة ثم موته بالمدينة ،
 وعن حادث الفيل وعن يتم رسول الله - عليه الصلاة والسلام -
 وكفالة جده وعمّه إياه وعن حاضنته أم أيمن ومرضعته حليلة
 السعدية ، كل ذلك وغيره مما ذكره كاتبو السيرة دون أن يشعروا
 أنهم يتحدثون على الهامش ! بل في اعتقادهم أنهم يبدأون
 الحديث في صميمه ومن داخله لا من هامشه ! هذا عن الجزء
 الأول أما الجزءان الثاني والثالث . فإذا أخذنا على الكاتب
 الكبير استطراده الواسع في تصوير الحالات السياسية والفكرية
 والاجتماعية والدينية لما قبل العصر النبوي في الشرق والغرب ،
 استطرادا كاد يلتهم المقصود . وإن دلّ دلالة تامة على تصوير
 العالم الإنساني بأفكاره وتناقضاته وانحرافات ، إذا أخذنا على
 الكاتب الكبير هذا الاستطراد الحافل ، فإننا نجد ما عدا ذلك
 من السيرة النبوية في صميم الصميم ، نجد الحديث عن ورقة
 بن نوفل وخديجة بنت خويلد - رضى الله عنهما - ونزول
 الوحى ، ورعى الغنم ، وأبى لهب ، وزيد بن عمرو ، وعن
 الوليد بن المغيرة ، وأبى جهل وعتبة بن ربيعة لأخيه شية ،
 والنضر بن الحارث ، ثم عن حمزة بن عبدالمطلب وجعفر بن أبى
 طالب ، ومصعب بن عمير ، وزيد بن حارثة وإبراهيم نجل
 النبى - عليه الصلاة والسلام - ووحشى وعدّاس ، وهند بنت
 عتبة ، وما ينحو نحو هؤلاء ! وهل ذلك كله من السيرة المطهرة

إلّا في صميم الصميم ؟ وقد يقول قائل : إن الدكتور يريد أن يشعر قارئه أنه يقصّ ولا يحقق ! لذلك يعتبر حديثه على الهامش ! ولكننا نرى هذا القصص صادق النسبة ، واقعي المنطق ، ونعرف أكثر تفصيلاته فيما نقرأ من الكتب النبوية في القديم والحديث ! وأكاد أجزم أن الدكتور طه حسين لو أعفى قارئه من المقدمة التي كتبها في مفتتح الجزء الأول . لجعل الكتاب ينطق عن نفسه بأجلى بيان ! لأن هذه المقدمة قد أضعفت الكتاب في غير داع ، وفتحت مجال الأخذ والرد بين المؤلف ومعارضيه ، إذ تعرض فيها لما كان يحسن السكوت عنه ! وحسبك أنه بدأها بقوله : (هذه صحف لم تكتب للعلماء ، ولا للمؤرخين لأنى لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد إلى التاريخ ، وإنما هي صورة عرضت لى أثناء قراءى للسيرة . فأنبتها مسرعاً لم أر بنشرها بأساً ، ولعل رأيت أن فى نشرها شيئاً من الخير ، فهى ترد على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم ..

ثم يفيض الدكتور فى مثل ذلك فيذهب إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتاً ، مستقراً ، إنما الأدب الخصب هو الذى يلىك حين تقرأه لأنه يقدم إليك ما يرضى عقلك وشعورك لأنه يوحى إليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، وتطرق الدكتور إلى الحديث عن الإلياذة اليونانية . فذكر أنها تقرأ لشير اللذة والإعجاب فى كل وقت وفى كل قطر ، وهذا سرّ خلودها . فقد ألهمت ومازالت

تلهم الكتاب والشعراء وتوحى إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان ، وفي أدبنا العربي - كما يقول الدكتور - : قدرة على الوحي و قدرة على الإلهام كأحاديث العرب الجاهليين وأبطال القصص الشعبي . . إلى أن قال الدكتور مانصه^(١) .

(إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ومن إحياء ذكر العرب ، قصدت حين أملت فصول هذا الكتاب ، ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب فإنى لم أفكر فيه تفكيراً ، ولا قدرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يعتمد المؤلفون ، إنما دفعت إلى ذلك دفعاً ، وأكرهت عليه إكراها ، ووجدتني أقرأ السيرة ، فتمتلئ بها نفسى ويفيض بها قلبى وينطلق بها لسانى ، وإذ ، أنا أملى هذه الفصول) .

هذا الكلام كله قد أضعف الكتاب ، وباعد بينه وبين حقيقته ! لأن الدكتور قد اعتمد حقائق التاريخ حين تحدث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو (وإن لم يكن مؤرخاً فى كتابه) قد جاء بما يحىء به المؤرخون على نسق غير نسقهم التأليفى ، إذ أخذ المادة الواقعية الصادقة فى أكثر ما كتب مما كان فعلاً لا ممّا تخيَّله الرواة ! هذه واحدة !

أما الثانية فحديثه عن الإلياذة فى هذا الموقف يشى بأن ما اعتمد عليه المؤلف خيال لا حقيقة فيه ! لأننا نعلم أن أبطال

(١) مقدمة الجزء الأول ص (ط) .

الإلياذة وهميون لا حقيقيّون وأن الذين استلهموا الإلياذة قد وجدوا لديهم من الحرية ما ينقضون به كثيرا من أعمال هؤلاء الأبطال ، كما جاءت على لسان هوميروس فيقلّبونها ظهرا على عقب ! وهذا ما لا يستطيعه كاتب ما في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هذا ما حرص الدكتور طه حسين أن يؤكدّه حين قال في المقدمة نفسها :

(وأحب أن يعلم الناس أيضا أني وسّعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً ، إلّا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين ، فإنني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة ، وإنما التزمت ما إلّزّمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية ، وعلماء الدين) وحسنا فعل .

وإذا كانت أكثر الفصول تدور على حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومن اتصل بهم واتصلوا به من أصحابه وخصومه ، فقد التزم الدكتور فعلا بما كان ولم يستبح لنفسه ما نصّ عليه إلّا في استعراضات هامشية خارجية لا في وقائع أصيلة داخلية ! فقيم هذا الضجيج الذي ضجّت به المقدمة دون داع ، ثم إن جعل السيرة نمطا من الأدب القديم ، كقصص الجاهلية وأحداث عنرة . مرفوض من أصله ، وكان على الدكتور أن يعلم أن الأدب القديم والأدب الحديث معا لدى المسلمين جميعا دون وقائع السيرة المطهرة وأحداثها الشريفة ، ولمن يريد أن يتحدث عنها أن يستشعر من التهيّب

الحذر ما نجده فعلا لدى الدكتور حين يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكننا لا نجده في المقدمة التي شاء أن يحدث بها ضجة دون داع ، فكان يجارب في غير ميدان ! أذكر أن الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف (حياة محمد) - صلى الله عليه وسلم - قد عارض هذه المقدمة معارضة حادة في بحث جاد نشره في ملحق (السياسة الأسبوعية) ديسمبر سنة ١٩٣٣ وقد تعرض إلى حياة الدكتور طه طالباً في مصر وباريس ، وجامعياً ثائراً يؤرخ للأدب الجاهلي ويرمى أكثره بالانتحال والترفيف ، ثم داعياً ، إلى إصطناع الأسطورة في أحداث السيرة ، وقد أفاض الدكتور (هيكل) في ذلك إفاضة تجاوزت السطح إلى أعماق الأعماق من دخائل النفس ، حتى انتهى إلى قوله ملخصاً من كتاب المعارك الأدبية^(١) .

إن أدب الأسطورة هو أخصب ألوان الأدب ، ويزيدها خصباً أن الكاتب والقارئ يعرفان جميعاً أن المادة ، التي تعالج ، هي نوع من الأسطورة فلا جناح إذا أطلق الكتاب فيها لأنفسهم العنان فأبدعوا من خيالهم ما يزيد هذه الأساطير رقة وعذوبة لا تحولان دون قول بعضهم « أعذب الأدب أكذبه » ولذلك أستمح طه العذر إن خالفته في إتخاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - وعصره مادة لأدب الأسطورة .

ثم أشار الكاتب إلى ما ذكره (طه) من أخبار تتعلق بمولد

(١) معارك أدبية للأستاذ أنور الجندي ص ١٥١ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزيادات لفقت تلفيقا وتناقلها
الرواة دون تمحيص فقال :

(وطه) يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الاسرائيليات ، إنما أريد
بها أساطير ميثو لوجية إسلامية لافساد العقول والقلوب من
سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم
في شأن الإسلام ونبئه ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي
وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجلها ارتفعت صيحة
المصلحين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه
الأوهام . . ومن أجل ذلك أودّ أن يفصل (طه) فيما يكتب من
بعد من فصول تجرى مجرى « على هامش السيرة » بين ما يتصل
بالعقائد وما لا يتصل بها .

هذا ما قاله الدكتور (محمد حسين هيكل) متأثرا بما قاله
الدكتور (طه حسين) في المقدمة ، ولكننا نرجع إلى الكتاب
نفسه فلا نجد فيه غير المعارف الشائع في كتب التاريخ
الإسلامي قد قصّه المؤلف بلسان عربي جذاب ، والدكتور
(طه) أشد الكاتبين وضوحا فهو لا يتعب قارئه إذا تحدث في
مسائل النقد والأدب والاجتماع ، وأحرى به ألا يتعبه إذا كتب
القصة التاريخية بسهولة عذبة آسرة ، وأنت تجد الباب الأول
يتحدث عن حفر زمزم بما لا يخرج في لبابه عما رواه السابقون ،
وأذكر أن الدكتور قد ذكر في الهوامش بعض المراجع (كطبقات
ابن سعد) والإصابة (وتاريخ الطبري وتفسيره) ، ولكن

موازنة سهلة بين فصول الجزء الاول الذى تصدرته المقدمة والجزء الأول من (السيرة النبوية) لابن هشام تدلك على أنها مرجع الدكتور الأول ، مرجعه فى حفر زمزم وفى الفداء وفى التحكيم وفى الاغراء وفى كل ما ذكر عن حروب (تبع) باليمن ! بل إنها مرجعه فيما ذكره عن « كيمون » فى موضوع البشير ، مع إضافات خيالية اقتبسها الدكتور من ثقافته اليونانية ! وقد أشار الدكتور (هيكل) الى ما ذكره (طه) عن إرهابيات المولد النبوى ودلالاته ، وكلها مدونة فى كتب الأقدمين ، وإذا تحرز الدكتور (هيكل) عن سردها فى حياة محمد لضعف إسنادها ، فقد يراها غيره كرامة لا تستبعد ، وقد أحسن الدكتور التعبير عما تضمنت صحف السيرة القديمة من هذه الخوارق ، فعرضها عرضا رائعا تهوى إليه نفوس المؤمنين ، حين يسمعون أحاديث البشائر بميلاد أشرف إنسان فى الوجود ، وأى ضير أن يتلو القارئ ما ذكره المسلمون السابقون فى أمهات الكتب التاريخية مفصلا فى أسلوب مؤثر حتى ترف له الجوانح شوقا ، ويتغلغل أثره بالقلوب فتكاد تطير طيرانا ، أى ضير فى أن يقرأ الدكتور (طه حسين) هذه الخوارق ثم يسجلها فى شفافية وإشراق ووهج حين يقول متحدثا عن ليلة ميلاد رسول الله :

(هناك دعت (آمنة) إليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالى أنكرن فيها كل شيء ، وأعجبين فيها بكل شيء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد

رأين ما لم ير أحد ، وسمعن ما لم يسمع أحد ، وأحسن ما لم يحس أحد ، ولم تكن آمنة أقلهن إنكارا وإكبارا وإعجابا ، فقد كانت ترى وهى يقظى غير نائمة أن نورا ينبعث منها فيملا الأرض من حولها ، ويزيل الحجب عن عينيها ، وكانت تنظر فترى قصور بصرية فى أطراف الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى فى أقصى الصحراء ، وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظن بها الظنون ، وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شيء حتى يراه نورا كله لا ظلمة فيه ، وإنما هو مشرق مضى أو هو الإشراق الخالص ، وكانت هذه الأخرى صاحبتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض ، وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة ، وإنما لتدنو وتدنو حتى يحيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها .

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمة مظلمة قائمة ، وتأخذها رعدة قوية ناهكة ، ويلم بها شيء كأنه النوم ، تسمع أثناء صوتا مهيبا رهيبا يسأل : إلى أين ذهبت به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب ، إلى المشرق ، ثم ينجلي عنها ما ألم بها ففتيق ، ثم يعاودها ما كانت فيه فإذا ظلمة قائمة ، وإذا رعدة قوية ناهكة ، وإذا غاش يغشاها كأنه النوم ، وإذا هى تسمع الصوت المهيّب الرهيب أين ذهبت به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب إلى المغرب ، ثم ينجلي عنها ما هى فيه ففتيق .

وكذلك لم تدن السماء من الأرض كما دنت هذه الليلة ، وكذلك لم ير الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء في هذه الليلة ، ولم تكن آمنة على هذا كله تجدد ألقا قليلا أو كثيرا ، إنما كشف عنها كل حجاب ، ورفّع عنها كل غشاء ، وخلق بينها وبين عالم من الجمال الذي يُرى ، ومن الجمال الذي يُسمع ، لا عهد للناس بمثله ، ثم ترى ويرى صاحباتها كأن شهابا انبعث فملأ الأرض من حولها نورا يبهر الأبصار ، ثم ترى فإذا أنها قد مسّ الأرض يتقيها بيديه رافعا رأسه للسماء ، محققا بصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئا ، ثم تسرع صاحباتها إليه واليهما ، ليؤدين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة ، فإذا هي لا تحتاج إلى شيء وإذا هو لا يحتاج إلى شيء وإذا هن يتناولن أجل صبي ، وأروع صبي وأبرع صبي ، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليدا لا كالولدان^(١) .

اللهم إن هذا كلام يهز قلب المسلم هزا ، وإنه ليعث في النفس روعة لا يجد مثلها في نظائره ، فإذا كان الدكتور (هيكل) يلتزم بأن يذكر الكاتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصدقه غير المسلم ممن لا يذعن لغير المنطق الصارم ، فله أن يكتب كتابه على النحو الذي يريد ! ولكننا - نحن المسلمين - في حاجة إلى مثل هذا النسيم المنعش يهب على

(١) على هامش السيرة جـ ١ ص ١٥٢

الأرواح فيثلمها بما يحمل من غير ! ليكتب بلسان المحقق ،
وليكتب الأديب القاصّ بلسان الأديب الفنان ، ولكل قارئ
طعامه الذى يشتهي !

هذا التصوير الحىّ النابض لما رأت الناظرات من المشاهد ،
قد دوّنه الدكتور فى فصل كتبه تحت عنوان «البيتيم» وهو فصل قد
رزق فيه الكاتب الكبير من براعة التصوير وعمق
الاستشفاف ، وحسن التناول ، وقوة الاستماع إلى أدق
الخوارج ، وأرق المشاعر بين نبضات الدم وطيات اللحم
ما لا أظنّ كاتباً يوفق إلى أكثر منه إبداعاً وإتقاناً ! لقد كسر
الدكتور هذا الفصل الرائع على تصوير خوارج الأب الحزين
عبدالمطلب نحو ولده الراحل عبدالله وحفيده القادم المنتظر ،
وعلى تصوير عواطف آمنة بنت وهب الزوجة المفجوعة بزوجها
دون إهمال والمتربة مشرق ولدها فى حيرة لا تدرى معها كيف
تطرد به وبها الحياة فى مسلكها الفسيح !

وقد جاء هذا الفصل من الكتاب عقب فصل تحدث فيه
المؤلف عن (حادثة الفيل) فأبدع فى تصويرها إبداعاً جعل
الدكتور زكى مبارك يشير فى الرسالة إلى أنه أقوى الفصول فى
كتاب على (هامش السيرة) ، حيث قال عن مؤلفه : إنه ليس
له غير فصل الراهب ، ولكل ناقد ذوقه الخاص ، وكان على
الدكتور زكى مبارك أن يحتاط فيعلن أن موضوع الراهب قد
أعجبه أكثر من غيره ، لا أنه هو وحده المتميز فى الكتاب ،
إذ أن ما كتبه الدكتور (طه) فى كثير من فصول على (هامش

السيرة) لا يقل عما أعجب به الدكتور (مبارك) ! وها أنذا أتحدث عن موضوع اليتيم بما يقدم الدليل على أن مواضع الجودة متعددة في هذا الكتاب النفيس ! أجل لقد تحدث المؤلف عن عواطف عبدالمطلب وأمنة بعد حادث الفيل ووفاة عبدالله فقال :

(كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا يوشك أن يكون يأساً مهلكاً وثورة جامحة ، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ويذعن للخطوب ، ويصبر على النائبات ، كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا حين يفكر في غرور قريش ، وتقديرها أن الله ردّ طاغية الحبشة وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبايل تكريما لها وإيثارا ، وحين يفكر في غروره هوحين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مديته وفداه بمائة من الإبل إيثارا له بالعافية واختصاصا له بالكرامة ، كلاً كلاً لم يهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراما لقريش ، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئا ، ولم ينقذ الله عبدالله من الموت ويفاده بمائة من الإبل إكراما له أو إكراما لأبيه ، وإنما أنقذه من الموت وفداه بالإبل لأمر يريد به هو ولا يعلم الناس منه شيئا ، وإلا فقيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ، أليس غريبا أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجا لا يقيم معها إلا وقتا قصيرا ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم ولكن رفاقه يعودون

ولا يعود ، إنما يتخلف في (يثرب) ليموت عند أخواله بنى النجار ، وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانة. مازالت تحملها في جوانحها ، حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه الأمانة ، ومن يدرى لعل عبدالله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه ! ومن يدرى ، لعل أمانة لم توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس !

وكانت أمانة ترى نساء قریش ونساء بنى هاشم من حولها ييسمن للأيام ويستهجن للحياة ، فيعجبها ذلك منهم ، ولا يداخلها حسد لمن أو ميل إلى مشاركتهم ، كانت تحس إحساساً قويا ولكنه غامض بأن الأيام قد وقّتها حظها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير الذى قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل ، وكانت تريد أن تسعد بالتفكير في هذا الجنين الذى تحسه يضطرب في أحشائها ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حُرم السعادة بهذه النعمة ، فتكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذة لا يستبد بها الفرد ، وإنما هى مشتركة بين اثنين ، فإذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر وشق احتمالها عليه ، وكانت له مصدر ألم وحزن ، ولكنها مع ذلك لم تجد هذا الألم الممض الذى كانت تقدره وتنتظره ، كأنما خلقت نفسها مدعنة ، وكأنما فطر قلبها على الرضا ، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل ، رضى الناس

أو سخطوا ، وأن احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى والثورة التى لا تفيد .

قد والله يطيب لى أن استرسل فأنقل هذه الأحاسيس النبيلة التى استطاع المؤلف تصويرها فى براعة وإدهاش وإنى لأتعمد هذا الاقتباس فيما أعالج من هذه البحوث ليجد القارئ أمثلة شافية للمنحى الأدبى الخاص بمن نؤثره بالتحليل ، وليشارك معى فى الحكم على ضوء ما يقرأ من هذه المقتبسات .

وإذا كان الدكتور قد أخرج الجزء الثانى مستقلاً كاملاً دون أن ينشر شيئاً منه فى الصحف الأدبية ، فقد أتاح له هذا الاستقلال أن يتوسع توسعاً جاوز حد الاعتدال فى تصوير الحالة الدينية والفكرية فى الدولة الرومانية وما يخضع لها من الشعوب ، فتحدث عن التحكم القيصرى ، وعن الإرهاب الفكرى ، والمبادرة بالعقاب لدى كل اتهام يقال دون تحقيق ، وقد أعانته ثقافته اليونانية كما ذكرنا من قبل على أن ينشئ حواراً ترجع أصوله إلى أقوال أفلاطون وغيره من الحكماء ، وقد خرج من ذلك كله بنتيجة تعلن فساد الوثنية والمسيحية معاً إذ عجزت الأولى عن اقناع الفكر البشرى بما تدعو إليه من مثل ومن تدعو إليه من أرباب ، واختلطت الثانية بما صرفها عن التوحيد الخالص ، والعدل الواجب ، وجعلها قريبة من الوثنية فى كثير من المجالات ، كل ذلك قد بسطه الدكتور فى صفحات مديدة تحس حين تقرأها أنك تستبطئه فى مسيره وأنت فى حاجة إلى استعجاله ! ويخيل الى تبعاً لذلك أنك تستطيع أن تستغنى فيه

عن بعض القول ببعضه ، وإذا قيل في كتاب أنك تستغنى ببعضه عن بعض فقد تعرض إلى نقد حقيقى لا يقلل منه ما بسطه الدكتور من حوار عقلى ونزاع دينى ، وتوجس من الغيب وتطلع للمجهول ، وإذا كان الدكتور (محمد عوض محمد) قد استبطأ الدكتور فيما اتسع في عرضه بالجزء الأول من أحداث (تبع) باليمن ونجران واحتلال الحبشة لصنعاء ، مع أن ذلك كله مما دونه كاتبو السيرة النبوية القدماء ، إذ وجدوه إطاراً يحدّد المسرح المجاور للدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية ، إذا كان الدكتور (محمد عوض محمد) قد استبطأ الدكتور حين أعاد ما كتبه قدماء المسلمين بأسلوبه التصويرى في الجزء الأول أفلا يجوز لى أن استبطئه في النصف الأول من الجزء الثانى وقد أتاح لثقافته اليونانية أن تسقط ثمارها في غير موسم بل أتاح لهذه الثمار أن تتزايد وأن تتكاثر حيث لا تفتح لها شهية قارئ يود ألا يبعد كثيراً عن أحداث نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فهو يريد أن يقترب منه دائماً فإذا بعد فإلى أمد عاجل لا يلبث أن ينتهى إليه عن قريب ! وقد لحظ الدكتور (محمد عوض محمد) - مع ما تقدم - شيئاً هاماً هو أن الدكتور (طه) لم يستطع أن يتقيد بالترتيب الزمنى في بعض الفصول فكان يتحدث عن بعض الشخصيات المتصلة بنبي الإسلام ، لا بالقدر الذى يسمح به زمن الحديث ، بل يمتد ليكمل ما طرأ على هذه الشخصيات فيما بعد ، مما ينتقل بالأحداث من جيل إلى جيل ، يقول الدكتور (محمد عوض) ناقدًا في أسلوب

حريرى يهمس ولا يجلجل ، ويقدم المبررات التى تحول دون
المؤاخذة الصريحة تأديا ومجاملة :

وهناك فائدة أخرى استفادها المؤلف فى مؤلفه «على الهامش»
ذلك أنه استطاع ألا يتقيد بالترتيب الزمنى للحوادث ، فإذا بدا
له أن يسهب فى وصف شخصية راقته وأعجبتة اندفع فى وصفها
إلى النهاية لا يلفته عن ذلك حادث أو خطب ، فقد أعجب
مثلا وحق له أن يعجب بشخصية أم أيمن حاضنة النبى ، فلم
يزل يصف حياتها منذ ولادة محمد بن عبد الله الى أن شهدت
عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ثم يعود بعد ذلك الى حديث
الرضاعة ووفاة عبدالمطلب ، وهذه الخطة التى الزم بها المؤلف
نفسه قد تبدو غريبة وربما اعترض عليها بأنها تدفع بالقارىء من
أول السيرة الى عهد الخلفاء الراشدين ثم يعود به مرة أخرى الى
بدء السيرة ولا تزال بالقارىء هكذا ذهابا وإيابا ، ومع ان لهذا
النقد وجهته التى لا شك فيها فإن للمؤلف عذره بأن الذى يريد
أن يكتبه ليس حديث السيرة بالذات ، بل دراسات مستقلة
بعضها عن بعض ، وفى وسع القارىء أحيانا أن يطالع الفصل
مقتطعا من لكتاب فلا يكاد يفتقر الى ما سبقه^(١) .

إن صدور الدكتور فى تتابع فصول الكتاب عن غير خطة
مرتبة حين بدأ كتابة الفصل الأول مما يؤيد ملاحظة الدكتور

(١) «مجلة الرسالة» ، العدد ٢٤ ١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(محمد عوض محمد) هذه ، فالمؤلف يعترف صراحة أنه لم يفكر في أمر الكتاب ولا تعتمد تأليفه كما يعتمد المؤلفون وإنما دُفع إلى ذلك دفعاً ، وقد وُفق تلقائياً إلى تسلسل منسجم هداه الله إليه على غير عمد في أكثر فصول الجزء الأول ، وشذ في فصول منه أشار الدكتور (عوض) إلى إحداها ! ثم استقام متسلسلا مطردا في جميع أبواب الجزء الثاني ، حتى مضت أربع سنوات وجمع الدكتور ما تفرق من الأبواب في الجزء الثالث ، فجاء كل فصل يعلن إستقلاله الذاتي عن سابقه ولاحقه بحيث لم يعد للملاحظة الدكتور وضعها في جزء يضم مقالات إلى مقالات تجمعها السيرة ويفرقها تباعد الأحداث دون أن تُكتب في فترة زمنية متصلة تعين على تساند الأبواب ، وتلاحمها قدر المستطاع ! وقارئ الجزء الثالث يرى في عناوين الفصول ما يجعله يتهيأ لقبول هذا النمط ، فهو حين يقرأ موضوعا عن أبي جهل ، أو عن حمزة ، أو عن مصعب بن عمير ، أو عن جعفر بن أبي طالب إنما يحصر ذهنه فيمن يقرأ ، غير ملتفت إلى سابق وإلى تال ، ومن هنا جاءت ملاحظة الأستاذ (دريني خشبة) الخاصة بالتكرار المتماثل في فصلين مختلفين حيث قال عن الجزء الثالث :

(إذن فقل إن (بهامش السيرة) أحاديث مكررة ، إذ يحدثنا الدكتور عن سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب حديثه حلوا طويلا ص ١١١ ثم يحدثنا عنه حديثا طويلا كذلك بعبارات

هى نفس عباراته الأولى تقريبا عن نزيل (حمص) ص ١٧٩ (١) .

ولو علم الأستاذ (درينى خشبة) أن الدكتور كتب حديثه عن نزيل حمص فى إبريل سنة ١٩٣٥ حين نشره بالعدد (٩٣) من (مجلة الرسالة) ، ثم كتب حديثه عن حمزة فى فبراير سنة ١٩٣٩ حين نشره بالعدد الثامن من مجلة (الثقافة) لغفر له ما شاهد من تكرار ! بل أقول إن هذا التكرار لابد أن يحدث وإن كُتب الموضوعان فى زمن واحد متلاحقين ! لأن الذى يتحدث عن حمزة - رضى الله عنه - ، لابد أن يصف مصرعه الفاجع على يد نزيل حمص يوم (أحد) ، والذى يتحدث عن نزيل حمص لابد أن يصف ندمه اللاذع على ما اقترف من قتل حمزة سيد الشهداء من قبل ! أما أن تكون العبارات هى نفسها . فأمر مبالغ فيه ، إذا نظرنا إلى أسلوب الدكتور (طه) الخاص به ، أما إذا نظرنا إلى استشهاديه بما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين رأى مصرع عمه ، وحين قابل وحشيا بعد ذلك لأول مرة فلا مجال إذن لتغيير الألفاظ النبوية ، بل لابد أن ينقل حديث محمد - صلى الله عليه وسلم - كما روته الأسانيد ، وهو حديث نبوى يشف عن أسف حزين ويصدر عن أفصح الناطقين باللسان العربى ، ولعمري لو أجاز الدكتور لنفسه أن يتناوله بالتبديل للقى من مؤاخذه اللائمين ما لا يقدر

على دفعه مهما رزق أقوى البراهين ، كما لا يقدر على دفع ما لحظناه من سيطرة السرد التاريخي دون القص الأدبي على القسم الأخير من الفصل الأول في الجزء الثالث ، فقد ابتدأه الكاتب أدبيا وصافا للخلجات ، شارحاً للنزعات ، محدداً للملامح ، مترصداً لأدق الهمسات .

وقد طال به القول وامتد إلى مائة وخمس من الصفحات ! أفتراه قد خاف أن يتبع خطته المتأنية في الرسم المعبر ، والتصوير المشخص ، فلا يتسع الكتاب لغير هذا الباب ، ومن ثم أثر أن يتحدث عن دفاع أبي طالب وقسوة قريش ، وصحيفة المقاطعة وموت خديجة ورحيل أبي طالب وعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه على القبائل وهجرته إلى المدينة مستخفياً وانتصاره في بدر ، حديث المؤرخ لا حديث الأديب . مع أن في كل موقف مما أجمل ميداناً للتأثير المبالغ ، والإنفعال الجياش !! هكذا أثر الدكتور أن يطوى هذه المشاهد ليتابع مواقف أبي جهل وحده ولم لا وهو البطل المقابل الذي مثل الشر في صراع الحق مع الباطل ، كم كان الدكتور في حاجة إلى التريث المتشد في هذا الفصل ليتسنى ذروة الابداع الأدبي في تصوير ، ولكنه إنسان يعلو واثباً فيطير ، ثم تكل جناحاه فيهبط ليسير . ونحن نقرأ ديواناً لشاعر كبير (كالمثنبي) مثلاً ، فنرى في بعض قصائده امتيازاً عن بعضها الآخر ، فلا يدل انخفاض مستواه في بعض شعره على أنه غير جدير بمكانته ، لأن قصيدته مهما انخفضت عن مستوى سابقتها . فهي تحمل طابعه وتدلّ

على معدنه الأدب بحيث يجوز أن تنسب إليه فمهما أسف (المتنبى) فله حد معتدل لن ينحدر إلى ما دونه وكذلك نحن فيما نلاحظه من تفاوت بعض الفصول في كتاب على (هامش السيرة) بحيث يعلو فصل على فصل علواً لا يرجع إلى طبيعة الموضوع قدر ما يرجع إلى ضيق الكاتب وتسرع في وقت ثم إلى انشراحه واعتداله في وقت آخر ، اقرأ إن شئت في الجزء الثالث فصلين متجاورين يتحدث أولهما عن سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ويتحدث ثانيهما عن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب ، وكلا البطلين ذهب شهيدا إلى ربّه في معركة إسلامية صاخنة ، فإنك تجد حديث الدكتور (طه) عن حمزة قد بلغ أرقى مستوى نعرفه لدى الكاتب ! وقد استعان بخياله الهادى لرسم صورة للحزن الكامن المستتر في مجلس الأمير . إذ خلا إلى سماره يتحدث ويتحدثون ! مع انقباض شيخ معمر عن الحديث الدائر حتى كأنه ليس بالمجلس ! وحتى يرى الأمير عزوفه عن السمر فيسأله عن انصرافه الحزين فيجيبه بما تحدثت به المدينة عن رفات سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب . حين نقل من مكانه أوحين وجد دمه الطاهر دافقا كالعهد به يوم استشهد ! وتأخذ القوم همّة ! فيندفع الشيخ المعمر إلى الحديث عن حمزة في مراحل حياته المختلفة حديثاً أحكم الدكتور (طه) سرده فأحاطه بما يخلب من رائع الصور ، ودقيق الرمز ، وقوى الإيجاء إلى سلاسة عذبة في السرد تتدفق بها المعاني في جداول رائعة شفافه من الألفاظ ، فإذا انتهى القارىء من حديث

(طه) ، عن حمزة تلهف على استعادته ، لا ليجمع من معانيه ما قد نذ عنه ، فإن معانيه من الوضوح السافر بحيث لا تحفى على قارئ مثقف ، ولكن ليدرك ثمانية هذه المتعة الرائعة التى ساقها الدكتور الأديب فى حديثه الشجى ذى النبض القوى ، والتصوير الحى ويترك قارئ الكتاب ما قيل عن حمزة إلى ما ذكره الكاتب عن ذى الجناحين ، فيجد الأفق غير الأفق والجناح غير الجناح ! لقد أطل الدكتور مقدمة الحديث إطالة كادت تكون مملة حين أسهب فى وصف روح شفاف طائر - جسّم به معنى الهجرة - أخذ يسعى رويدا رويدا مثلما يسعى النسيم ، ومضى ينشر عيره على الروض فإذا الجدول نشوان يبدى من هواه ما طواه الزمان ، وإذا الشيخ فى المجلس يطرق خافق القلب عابس الأسارير ، وإذا هو يتأمل فى مشاهد الحياة وفى بؤس العيش ونعمائها وقد انصرف عن نفسه وعن الناس وعن المدينة .

(وأقول للدكتور (طه) إن الشيخ ! انصرف عن نفسه فقد ذهل ولن يحسّ شيئا فقيم عناؤه معك هذا العناء) وبعد سبع صفحات مرّت على القارئ ثقلاً بطاء لا يدرى معها أين يذهب عقله وأين يجىء قال الدكتور على لسان صاحبه : إنه يريد الهجرة كما هاجر جعفر بن أبى طالب إلى الحبشة ثم يورد حديث إسلام جعفر وهجرته إلى الحبشة وعودته إلى المدينة وإمارته على الجيش الذاهب إلى مؤته واستشهاده الفدائى الرائع فى أربع صفحات تقتضب الحديث اقتضابا ، وكأن الدكتور

يكتب عناصر موضوع تاريخي ولا يقوم بتصوير أدبي ! فيالله كيف يجوز أن تبلغ المقدمة الطارئة سبع صفحات ثم تجمع سيرة البطل في أربع ! أما كان في لقاء النجاشي ومحاورة جعفر إياه في إقناع مؤثر حين وشى المشركون بالمسلمين ما يلتفت إليه الكاتب بدل أن يصمت عنه وكأنه لم يكن ! أما كان في حمله الرأية باليمين حتى تقطع وبالشمال حتى تقطع ثم في ضمها بين صدره حريصا عليها حتى أسلم الروح ! أما كان في ذلك مجال للتصوير الحى الممتد بدل أن يساق سوقاً وكأنه حديث عابر ! وكأن الدكتور لم يعلم طول المقدمة فعاد إليها أخيراً ليتحدث عن إصطفاق الجدول ، وهفيف النسيم ، وحفيف الغصون لست أمتنع أن يصف الدكتور الطبيعة مشرقة وعابسة ، وأن يحسّ المعاني في ذوات ، ولكنى أدعو أن يكون وصف الطبيعة إطاراً لمشاهد متناسبة بحيث لا يختلف الإطار عما يحيط به من مشاهد وبحيث لا يتوهم القارئ أن وصف الطبيعة قلق عن موضوعه ! قد تكلف تكلفاً لم يسمح به المقام ! وإذا كان هناك ارتباط ما بين المقدمة الطويلة والموضوع المختزل ؛ فقد عييت عن فهمه إلا أن يكون تجسّساً حياً لمعنى الهجرة .

على أن كل ما يوجه إلى كتاب على (هامش السيرة) من نقد أدبي تخلّص منه المؤلف تخلصاً تاماً فيما كتبه بعد في كتابه (الوعد الحق) إذ مضى هذا الكتاب الممتاز بكل حسنات على هامش السيرة وسلم من مؤاخذته لأن الدكتور (طه) قد رسم منهجه العلمى وإطاره الفنى رسماً مضبوطاً قبل أن يبدأ في كتابته ، ولم

يندفع إلى تأليفه اندفاعا دون خطة مرسومة كما حكى عن نفسه
 فى تأليف على (هامش السيرة) ، لقد أراد الدكتور طه حسين
 بكتاب الوعد الحق أن يذكر التفسير العملى لقول الله عز
 وجل :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
 وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
 شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

وبهذه الآية الكريمة من (سورة النور) قد صدر كتابه لتكون
 وحدها دليل القارىء فى التعرف على منهج الكتاب فتغنى عن
 مقدمة له يعتاد المؤلفون تدوينها فى مطلع كتبهم ، وفى اسم
 الكتاب (الوعد الحق) تلخيص موجز لهدفه ، فبعض الذين
 استخلفوا فى الأرض هم المستضعفون الذين اعتنقوا الإسلام
 عن إيمان ، وذاقوا ألوانا قاسية من العذاب حين انقادوا لرسول
 الله ! ثم أдал الله لهم من أعدائهم ، فجاء الحق وزهق
 الباطل ، وتحقق الوعد الحق من الله لعباده بنصر المستضعفين !

لقد فكر الدكتور تفكيراً جيداً في رسم خطوات الكتاب قبل أن يكتب كلمة واحدة منه ! فأعد في ذهنه تاريخ الدعوة الإسلامية في نشأتها الأولى ، واستعرض ما جاءت به من مبادئ الحرية والعزة والمساواة ليرفع أناساً سقطوا إلى الحضيض مظلومين ، وكل قارئ للسيرة النبوية يعلم ما لاقى عمار بن ياسر وأبوه وأمه وخباب بن الارت ، وبلال بن رباح وعبدالله بن مسعود ، وصهيب الرومي من ألوان الطغيان ، ويعلم مَنْ مات منهم مستشهداً تحت العذاب . فذهب فداء العقيدة الصحيحة والدعوة المنقذة ، ومن عاش حتى قطف ثمار النصر وشاهد أنوار الحق تكتسح ظلمات الضلال ! وسبيل المؤلف حينئذ أن يذكر مشاهد التعذيب في القسم الأول ليعقبها في القسم الثاني بنتائج النصر الباهر والفوز العظيم ، هذا التحديد الدقيق لاتجاه الكتاب ومداره قد ساعد المؤلف على الإجابة التامة ، وأنقذه مما لوحظ عليه في كتابته السابقة عن السيرة النبوية ، فهو يبدأ الكتاب بحديث عن ياسر والد عمار ، فيصوّر قدومه إلى مكة من اليمن ، وإيثاره أرض الحرم بالسكنى وزواجه من سمية وإنجابه عماراً منها ، وقد حرص الدكتور على أن يبرز أهداف الدعوة الجديدة في سياقه القصصي ليفهم القارئ كيف جاء الإسلام بحرية الأسراء وعون الضعفاء ! ولحديث الدكتور عن أهداف الدعوة تأثيره الحيّ إذ سلك به مسلك التأثير لا التقرير ، فهو يستعرض حياة ياسر ، ويصوّر هواجسه الناقمة على أصنام لا تنفع ولا تضر ، ويمتد بتصويره إلى

شجون المتكبرين من قريش حين يرون عبيدهم يتطلعون إلى الإسلام في أمل وشوق ، وحين ينكر الملاء المتجبر من قريش كل شيء ، ينكر الملاء كل شيء ، إذ يرون المستضعفين في الأرض وقد سمت نفوسهم إلى أشياء لم تكن تسمو إليها ، فقد خلق الله بنى آدم جميعاً من تراب وجعل مردّهم إلى التراب لا تتمايز أجسامهم حين تولد ، ولا تتمايز أجسادهم حين تموت دائماً يكون التمايز في القلوب والضمائر بما يقدم أصحابها من خير وبما ينكرون من شر ، وإذا كان هناك فقر أو مرض أو قوة أو ضعف فتلك أعراض نزول وليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، وإنما الإمتياز بالبر والخير ! هذه المعاني وأمثالها قد ترددت في كتاب (الوعد الحق) . أكثر مما ترددت في كتاب (علي هامش السيرة) ، وتعليل ذلك ما وفق له الدكتور من تحديد موضوعه ، وتسلسل مشاهدته المطردة في دائرة خاصة لا تتعدها بحال . . فإذا اتجه المؤلف إلى وصف ما لقى المستضعفون من ألوان التعذيب فإنما يتجه إلى استلهام أبرع ملكاته التصويرية ، فهو يختار من المشاهد ما يشد القارئ شداً حياً إلى بيانه ! ها هو ذا يتحدث عن مشاهد التعذيب الذي قاسته عائلة عمار بن ياسر - رضى الله عنه - فيقول^(١) :

(قال أبو جهل لياسر : قد برئت من حلفنا إذن ؟ فقال ياسر : كما أبرأ من الشر والنكر وما يخزى الرجل الكريم فلم

يمهله أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عمار وسمّية حتى أدموهما ، ثم تقدّم أبو جهل إلى أصحابه أن يطرحو هؤلاء الأسارى أرضاً ففعلوا ، ثم تقدّم إليهم أن يأخذوهم بمكاوى النار في جنوبهم وصدورهم ففعلوا ، ثم تقدم إليهم أن يضعوا على صدورهم الحجارة الثقالة ففعلوا ، وأبو جهل ينظر متحرق النفس أن يسمع من أحدهم صيحة أو أنة أو شكاة ، ولكن نفوس الأسارى قد تحدث بعضها إلى بعض ، وفهم بعضها عن بعض ، فعهقوا ألسنتهم وعمرؤا قلوبهم بذكر الله ، وخلّوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها ما يريدن ، وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى ملّوا العبث وضاقوا به ففترقوا عنهم بعد أن وكلوا بهم حراسا يحفظونهم على حالهم حتى يعودوا إليهم حين تخرج الشمس إلى الغروب) .

هذا مشهد أول من مشاهد التعذيب الذي امتحن به آل ياسر . وهو يسير جدا بالقياس إلى ماتبعه من أهوال ، فقد تلتته مشاهد أعنف هولا ، وأشد رعبا أجاد المؤلف وصفها في سهولة هي مبعث تأثيرها وفي هدوء هو سرّ نفاذها الغالب ، وياعث وهجها المضطرم في الأعماق . يقول طه حسين (١) :
(ولم تر قریش من العذاب في مكة مثل ما رأت اليوم ، ولكنها على ذلك لم تظفر بشيء مما أملت ، أقبل أبو جهل ومعه

(١) الوعد الحق ، ص ١٢٠ .

أصحابه فرأى الناس انطاعا من آدم يسع كل منها رجلا ، وقد ملئت ماء ورأوا نارا مؤججة ، ومكاوى قد أحمى عليها ، ورأت تلك الأسرة قد شدّ وثاق كل منها ، وألقى ثلاثهم فى جانب من الطريق كما يلقي المتاع غير ذى الخطر ، فلما بلغ أبو جهل وأصحابه مكان العذاب أمر غلمانهم فوضعوا بين يديه ياسر وسميّة وعمارا ، وألسنتهم لا تفر عن ذكر الله ، فألهب أجسامهم بالسياط ، ثم أذاقها مسّ النار ، ثم صب عليها قرب الماء ، ثم أمر فغطوا فى الأنطاع التى ملئت ماء حتى انقطعت أنفاسهم أو كادت ، ثم ردّهم إلى الهواء ، وانتظروا بهم حتى أفاقوا ، وتسمّع لما ينطقون به بعد أن تاب إليهم شيء من قوة ، فإذا هم يذكرون الله ويشنون على محمد صلى الله عليه وسلم .

قال أبو جهل لسميّة ، وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتذكرن ألهتنا بخير ، ولتذكرن محمدا بسوء أولتموتن ، تعلمى أنك لن ترى مساء هذا اليوم إلّا أن تكفرى بمحمد وربّه ، قالت سميّة بصوت هادىء متقطع قليلا : بؤسا لك ولأهلك ، وهل شيء أحب إلىّ من موت يريحنى من وجهك القبيح ! هنالك تضاحك عتبة وشيبة بن ربيعة ، وأخرج الحنق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب فى بطن سميّة برجله وهى تقول له فى صوتها الهادىء المنقطع : بؤسا لك ولأهلك . ويجن جنون أبو جهل فيقطعن سمية بحربة كانت فى يده فتشقق شهقة خفيفة ثم تكون أول شهيد فى الاسلام .

يقول عمار : قتلتها يا عدو الله ، بؤسا لك ولأهنتك ،
ليمتلىء قلبك غيظا وحنقا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد ضرب لها موعدا في الجنة ، قال ياسر : أشهد أن وعد الله
حق ! ولكن أبا جهل لم يمهله وإنما يضرب برجله في بطنه
فيشقهق ياسر شهقة ثم يصبح ثاني شهيد .
لا أظن القارىء بحاجة إلى أن أعرض له مشاهد قاسية
لتعذيب خباب وعمار وابن مسعود وبلال ، فصفحات (الوعد
الحق) تدعوه إلى استيعابها إذا أراد ليرى تجسسا حيا لما لاقى
هؤلاء الفدائيون من تباريح عنيفة في ذات الله ! وكلها مجلوة في
طراز بياني رائع يعنى المستشهد أن يختار شيئا من شيء وحسبه
أن يحيل ! ويظل قارىء (الوعد الحق) مشدود الأعصاب ،
مشتعل العاطفة مأخوذ النفس حتى يتجاوز صفحات التعذيب
إلى صفحات المسرة والبشر حين يصدق (الوعد الحق) فيشهد
صفحات الانتصار الإسلامى تتلأأ بفوز المستضعفين ويرى
عمارا وابن مسعود وصهيبا وبلالا وخبابا وقد صاروا سادة من
سادات المسلمين ، يعرف لهم الرسول صلى الله عليه وسلم
وخلفاؤه من بعده مكانهم الممتاز في صفوف النضال ! فيتقدم
بهم عمر الفاروق على سادات قريش إذ يصير مستضعفو الأمم
قادة اليوم ، ويصبح متجبرو الشرك أتباعا لمن حملوا قبلهم راية
الجهاد ، بل لمن حملوا في وجوههم أنفسهم راية الجهاد ليحقوا
الحق ويدحروا الباطل ، وإن هؤلاء الذين أسلموا بآخرة من
صناديد قريش ليتساءلون عن تأخرهم وتقدم هؤلاء تساءل من

يرى مجد الأمس قد انتقل من أناس إلى أناس ! يقول الدكتور
(طه) عن أولئك وهؤلاء^(١) :

(ويقدم ابن مسعود من حصص إلى عمر - رضى الله عنه -
فيخلو إليه ثم يخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من
بعدهما إلى عثمان بن حنيف ثم يعلن إلى المسلمين في أعقاب
صلاة من الصلوات ، أنه قد جعل صلاة الكوفة وحربها إلى
عمار بن ياسر ، وأنه جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى
عبدالله بن مسعود وأنه جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن
حنيف ، فأما أصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار ،
فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم ، وفي ظاهر سيرتهم ،
وأما الذين أسلموا بآخرة من أشرف قريش فيسمعون
ويطيعون ، وفي نفوسهم شيء ، يقول أحدهم لصاحبه : غفر
الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرة الكوفة
لابن سمية ! ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أم عبد ،
وأين هو عن أشرف قريش ، وعن السابقين الأولين من
المهاجرين ، فيقول له صاحبه : أمسك عليك نفسك ! لا يبلغ
عمر من حديثك هذا شيء فيظن بك النفاق ويؤدبك أدبا
لا تحبه ، إنك لحديث عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من
القرآن إلّا قليلا ، ألم تسمع قول الله - عز وجل - ، « ونريد أن
نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة

ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» فإن عمر لم يزد على أن أنجز وعد الله - عز وجل - لبعض هؤلاء المستضعفين فى الأرض ، قال صاحبه وقد أظهر الرضا ! : هو ذاك ، وللوعد الحق خياله الذى يملأ الفجوات حين تشح المراجع التاريخية أن نقدم للكاتب ما يصل به الحديث على نحو مطرد ، وليس فى الاستعانة بالخيال حينئذ ما يغض من شأن الحقيقة فى شىء ، ومن أمثلة ذلك ما تكلفه الكاتب فى الحديث عن أم بلال وأبيه ، حيث لم يقدم لنا التاريخ شيئاً عن تعارفهما قبل الزواج وعن أسباب ارتباطهما بالحب ، وعن حالتها المعيشية فى منزل الزوجية قبل أن ينجبا بلالا وبعده ، وقد شاء خيال الدكتور (طه) ان يجعل أم بلال أميرة حبشية أسرت (يوم الفيل) فاسترقها أحد سادات قریش ، ثم زوجها من بعض عبيده إذلالاً لكبريائها حيث سارت فى جيش يعتزم هدم البيت وإبادة أهل الحرم من قریش ، وقد اتسعت خواطر الكاتب بعض الشئ فى وصف هذا التعارف بين الزوجين ، وفى تصوير المشاعر المتبادلة والأحاسيس الصامتة والكلمات الناطقة بما يدل على موهبة أصيلة لديه ، وهو هنا لا يتكلف الخيال تكلفاً كما افتعله فى الفصل الذى خصّ به جعفر بن أبى طالب بالجزء الثالث من كتاب (على هامش السيرة) ، بل سار بخواطره سيرا مترناً فيه جدة وطرافة ، وفيه شوق وحنين !! ومن الذى يضيق بالخيال حين يعين على تصوير الواقع ويمثل ما يمكن أن

يوجد ، وإن لم يوجد فعلا على نحو ما يمضي به هذا التمثيل ، وإذا كان لنا أن نؤاخذ الكاتب ببعض الهنات في كتاب (الوعد الحق) ، على قلتها النادرة - فإننا نعدّ منها هذا التكرار الذي يتجه إليه الكاتب في بعض الفصول دون داع يتطلبه المقام ، لاسيما إذا جاء هذا التكرار متصلا في سياقه ، وكأنه تأكيد لفظي في غير داع إلى التوكيد ، ونمثل لذلك بقول المؤلف^(١) .

(وأخذت - قبيلة خثعم - فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهن كن يصحبن الجيش يرين في صحبته لذة ومتاعا ، ويرى آبائهن وأزواجهن في استصحابهن تفريحا عنهن وتسلية لهن ، وإمتاعا لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان في هذا السفر الذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهدا ، وإنما هو تسلية للنفوس ، وتسرية للهموم ، وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة من أهل البادية بهدم ذلك البيت الذي يكبرونه ويعكفون عليه ويرون أنه وحده خليف بالإكبار وأنه وحده جدير بالتقديس) .

ثم قال الدكتور بعد ذلك مباشرة :

(سفر قاصد ممتع يجب أن تكمل فيه للرجال لذات أجسامهم ، وبهجة قلوبهم ، وقرة عيونهم ، ومن أجل هذا استصحب قادة الجيش وأمراؤه زوجاتهم وبناتهم يمتعنهم بالحب والرحمة ويؤنسهم بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مغنيات

(١) « الوعد الحق » ص ٥٠

وعازفات وراقصات يزدن بهجة السفر بهجة ، وجمال الرحلة جمالا ، ولم يخطر لهم أنهم إنما كانوا يستصحبون الحرائر والإماء فيجعلوهن نهبا لأولئك العرب الجفأة الغلاظ البادين في طريقهم الى البيت) .

كما نعدّ من المؤاخذات الواضحة ما صوّر به الكاتب إحساس أبي جهل عقب استماعه لقول الله عز وجل :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾

إلى آخر «سورة الفرقان» . فإن المؤلف قال :

(وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه ، ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ، يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تحتبس فيه الزفرات : إني والله لأحب أن أكون من بين هؤلاء ، ولكن أبا جهل لا يرسل طبعه على سجيته وإنما يدعوه حسده وكبرياؤه

وأنفته ثم ينصب على أولئك الرهط كما ينصب الصقر على فريسته ، وهو يصيح (بؤساً لكم من رهط سوء)^(١) .
 وإنى أرى أن مثل أبى جهل فى كثافة حسه وشدة حقه وعظيم غيظه لا يمكن أن يخفق قلبه - لحظة ما - للذكر الحكيم أو تخشع نفسه عند تلاوة بعض آياته ! كما أن طبعه إذا أرسل على سجيته لم يكن غير طبع الناقم الذى يتلدّد حقداً وكمداً ، ولو قال الدكتور هذا القول عن رجل : كعتبة بن ربيعة أو أخيه شيبة أو كالمطعم بن عدى ممن يميلون إلى السلام دون لحاج ، لصادف قوله موقعه الطبيعى ، أما أن يخشع أبوجهل ويخفق قلبه عند سماع الذكر فهذا ما يحول دونه حسد يغلى كالمرجل ، وغيظ يحيل جسمه إلى شعلة من نار ! على أن هاتين الملاحظتين لا تمنعان إعجابنا الكبير بما كتبه الدكتور حيّاً قويا مؤثراً فى «الوعد الحق» عدا هاتين .

ولكى يكون حديثنا عن (السيرة النبوية) فى إنتاج الدكتور (طه حسين) كاملاً غير ناقص فإننا نلّم أخيراً بما قاله فى كتاب (مرآة الاسلام) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث خص سيرته المطهرة بسرّ واف فى مطلعها فبدأ الكتاب بالحديث عن الحالة العامة للعالم قبيل «مشرق الإسلام» ، على نحو ما يصنع كاتبو التاريخ الخالص لا أرباب الأدب البيانى ، وقد استطاع أن يلّم بما يندرج فى موضوعه إلماً شاملاً فى إيجاز

واضح ، وأقول فى إيجاز واضح وأنا أعنى ما أقول وأتعجب له ، إذ أن الإيجاز لم يكن من طبيعة (طه) فى أكثر ما يكتب فهو دائماً يستفيض ويمتد وينبسط حتى ليكاد قارئه فى بعض المواقف يستشعر الضيق ولكنه فى (مرآة الاسلام) قد عمد إلى اللباب الطيب من الكلام المفيد فاختاره ، وإخاله قد عانى مشقة صامته فى هذا الاختيار ، وهى مشقة حقيقية يجهلها القارئ حين يجد الثمرة دانية ويكابدها الكاتب حين تزدحم الظباء على خراش ، ويظل يفاضل بين الجيد والأجود ، والرائع والأروع حتى يصيد ما ترتاح إليه القلوب ، وهكذا أحسن (طه) الاختيار الجيد الرائع حين تحدث عن جزيرة العرب وما حولها قبيل البعثة النبوية الكريمة حديث المؤرخ المحقق فى أبواب قصار تدل على أكبر ما يمكن أن يعطيه كلام جيد فى حيزها الضيق ، على أنه لا يخل إطلاقاً بنحو من الأنحاء كان يجب أن يقال ، بل يترك ما لا يدخل فى الصميم من البناء ، فكل لبناته جيد مختار ، وكان وضوح المعانى لديه ، وسعة إلمامه الخاص بالتاريخ العربى فى هذه الفترة مدعاة سهولة قريبة يجدها القارئ فى بساطة السرد ويسر التناول ، فإذا انتهى الدكتور (طه) من وصف ما بالجزيرة العربية وما حولها من أحوال تتعلق بالسياسة والعقيدة والتجارة ووسائل الحياة والارتحال والإقامة انتقل إلى مشرق النور منذ ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتابع حياته الشريفة متابعة صافية خالصة تستند أكثر ما تستند إلى كتاب الله العزيز إذ أكثر من

الاستشهاد به استشهاداً رائعاً يجيء في مناسبه الطبيعية دون نشاز ، وقد فصل مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أعلن دعوته إلى أن لقي ربه تفصيلاً سديداً لا يغفل الخطوات البارزة في معالم حياته الشريفة ! وفي حديثه الجيد عن أهداف الدعوة الإسلامية بمكة قد ذكر من فضائلها الخلقية ما كان جديراً أن يجذب أعناق المخالفين إلى ثمارها المشتهة لو خلصت النفوس من أوضاعها الكريهة إذ أحسن الدكتور سرد هذه الفضائل وجمعها في نطاق محدود يسهل استيعابه وقد ختم حديثه المكي بقوله الذي نقله دلالة على منحاه الأسلوبى^(١) :

(وعلى رغم هذا كله فقد أقام فيهم «أهل مكة» حتى عرض عليهم أصول الدين وبين لهم ما ليس منه بدّ ليأمنوا سوء العاقبة في الدنيا والآخرة ، بين لهم أن إلههم واحد لا شريك له ، وأن الإشرار به ظلم وجحود يضطر صاحبه إلى الخلود في العذاب المقيم ، وبين لهم أن الله قد أرسله ، رسولاً كما أرسل الرسل من قبله إلى قومهم وأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه حتى يشهد من أعماق قلبه بوحدة الله وصدق رسوله ، وحتى يكون الإيمان بالله ورسوله ملء قلوبهم وعلى ذكر منهم في كل ما يأتون ويدعون ، وبين لهم أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى والرفق باليتامى والمساكين والبر بالوالدين وطاعتها إلا في الكفر بالله ومعصيته ، وبين لهم أن الله ينهاهم عن آثام فليس

(١) «مراة الاسلام» ص ٦١

لهم بدّ من أن يجتنبوها ، وبنهاهم عن القتل ظلماً ، وبنهاهم عن الزنا وأد البنات وعن قتل الولد خشية الإملاق وبنهاهم عن الكذب وعن الخيلاء والمرح وعن الغرور والكبرياء ، وعن الكذب وقول الزور ، بين لهم هذا كله وأكثر من هذا كله ، وبشرهم بالثوبة الحسنى عند الله إن آمنوا وأصلحوا وأطاعوا ، وأنذرهم العقاب الشديد في الدنيا والآخرة إن كفروا وعصوا ، صدع بما أمر الله أن يصدع به وأدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات ، لم يقصّر ولم يفتر ولم ييأس حتى أذن الله له في الهجرة ، فهاجر بعد أعفى نفسه من كل تبعه ، وأدى حق الله وحق قومه عليه وبرّهم فلم يلق إلا جحوداً وعقوقاً ، ولم يؤمن له منهم إلا القليل كما رأيت) .

بهذا الاجمال السلس أنهى الحديث عن العهد المكّي ومضى يستأنف حديثه عن العهد المدني ملتماً بحديث الغزوات ومكر اليهود والمنافقين وما جرى (يوم الحديبية) (وتبوك) (وفتح مكة) (وحنين) (والطائف) ، ومفصلاً ما جادل فيه أهل الكتاب نبي الاسلام من أمور الدعوة الإسلامية وما اختلف فيه القرآن الكريم عما بين يدي أهل الكتاب من التوراة والانجيل المحرّفين عن أصلهما الصحيح ، فأوضح الرأى في حقيقة المسيح وإنه عبد من عباد الله لا ولد من الأولاد ، ونبي من الأنبياء لا إله من الآلهة ! فإذا ترك أهل الكتاب الى المناقين فإنه يبين دخالهم ويكشف عن مطوياتهم الدفينة بما يوقف القارىء على خداع النفوس وتسلط الأهواء ، وتحكم النزوات حين تحيد

عن الحق باطنا وتدعيه وظاهرا ، وجاء كلام المؤلف مؤيدا بالقرآن في كل منحي ينتحيه متحدثا عن أولئك وهؤلاء حتى لكأنه يشرح كتاب الله في قُدرة وإبداع ثم واصل الحديث الى نهايته متحدثا عن أثر الاسلام بعد هذه الانتصارات فقال في ايجاز^(١) .

(وكذلك عظم أمر الاسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها ونظرة سريعة الى ما بدأ الإسلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير تبين في جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى ويتشر أولا ، وأن يجمع كلمة العرب ويوحد أهواءهم ويجعلهم أمة واحدة مؤتلفة تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان بعد الذي كان بينهم من اختلاف أى اختلاف ، واختصام أى اختصام ، ومن حرب بالألسنة وبالسيف والسنان في أكثر الاحيان ، وأرادت كذلك أن تغير من أخلاقهم وعاداتهم وسننهم الموروثة ، فتحل الوفاء في نفوسهم محل الغدر ، والأمانة محل الخيانة ، والبر مكان الجحود ، والركة والرحمة مكان الغلظة والقسوة ، وأرادت أن تبين لهم الخير فيسلوكوا إليه سبلهم ، وتدلهم على الشر فيتجنبوا طرقه ، وأن تبين كبائر الآثام فيجتنبوها ومحاسن الأعمال فيجدوا فيها) .

وهكذا وفي الكاتب نصيب السيرة المحمدية من الحديث في القسم الأول من كتابه ، لينتقل بعدها الى شئون الدولة

(١) . مرآة الاسلام ، ص ١٢١

الإسلامية فيما تلا عهد النبوة وليتحدث عن الإسلام حديث
الدارس المستوعب ، وكيلا يظن بنا القارئ مبالغة فيما ندعيه
فإننا - كعادتنا في هذه البحوث ، نستشهد دائما بأقوال المنصفين
من الناقدين والمغرضين معا ليقف المطلع على آراء شتى دون أن
يتحكم فيه رأى واحد ، ولم نجد أحدا من الكتاب قد وجّه
لكتاب (مرآة الإسلام) مطعنا ما في اى جانب من جوانبه ، لأن
الحق أوضح من أن يختلف فيه ، ولكننا وجدنا من أنصفوه عن
اقتدار مكين وبصر نافذ ، ومن هؤلاء الأديب الباحثة الأستاذ
محمد خليفة التونسي حيث قال عنه في حديث مستفيض^(١)
نشره بعد وفاة الدكتور (طه) بأكثر من عام :
(هذه هي صورة الإسلام التى قدّمها المؤلف فى (مرآته) ،
وقد تجسّدت تعاليمه مجتمعا حرا عزيزا يعيش أهله كما يعيش
سائر البشر ، ولكن كأنهم لا يعيشون ولا يطلبون البقاء
إلا ليمثلوا هذه التعاليم أفضل ما يمكن أن يمثلها بشر فى
الحياة ، فهم تجسيد حيّ لها ، وإن كان ذلك على تفاوت بينهم
فى مقدار تجسيدها ، وقد زاد هذه الصورة بروزا فى (مرآة)
المؤلف كثرة استشهاده بآيات القرآن الكريم فى مواضعها ،
والقرآن صوت الإسلام الحىّ الذى ينفذ إلى العقول وإلى
القلوب وإلى الضمائر أقوى مما ينفذ غيره ، ويحفز إلى العمل أكثر
مما يحفز غيره ، وكان من تمام إحسان المؤلف أن أفرد القرآن
بأطول فصول الكتاب وأقواها عرضا .

(١) « مجلة العربى » ، عدد اغسطس ١٩٧٤ ص ٢١

وحظ الكتاب من نقد الأخبار والوقائع قليل في الظاهر ،
وليس الأمر كذلك فيما يبدو لنا ، غير أن مجال النقد خارج
الكتاب لا داخله ، إذ أن المؤلف نقد الأخبار والوقائع التي
تيسرت له واختار منها ما صح عنده ، ثم اختار من ذلك
ما يحقق غرضه وحده ومن هنا جاء الكتاب رشيق العرض
لطيف الحجم) .

لقد ألفت قوم من المتحمسين أن يطعنوا في آثار الدكتور
القلمية ؟ بعامة ، دون تفريق بين الآثار المطمئنة والآثار
المتسرعة ، ومثل هذا المسلك يحتاج إلى ضبط ناقد وثيد ، فإن
كتب الدكتور (طه حسين) في مجال السيرة النبوية ثروة إسلامية
ذات عطاء ، وقد رزق صاحبها حبا شديدا من قراء الأدب
العربي في أكثر بقاع الإسلام ، وبهذا الحب جدير أن يجب
إليهم سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - المطهرة حيث وقّأها
حقها بسطا وتصويرا واستنباطا ، فإذا جاء نفر من النقاد
يحاربون ما كتبه (طه حسين) عن سيرة الرسول - صلى الله
عليه وسلم - فإنهم يصدّون الشبية المسلمة عن مورد عذب من
حياض السيرة المطهرة قد لا يجدون نظيره في أكثر ما يقرءون ،
والمؤلف في كل ما كتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ملتزم بما جاء في التراث الإسلامي من أنباء نقلها المخلصون من
العلماء ممن تتداول الأيدي تراثهم في ثقة وإعجاب !! وإذا وجه
انتقاد علمي إلى بعض مسائله فذلك ما لا يخلو منه كتاب بشري
ألفه إنسان ، إذ أن الكمال لله وحده ، أما أن نحاسب

صفحات السيرة المطهرة في انتاج (طه حسين) بأشياء مخطئة ذكرها في غير هذه الكتب ورجع عنها من بعد ، فذلك غير سبيل المنصفين ، وإذا جاز لنا أن ننظر إلى ما كتبه الدكتور (طه حسين) (في هامش السيرة) عن الواقع الرسمي لأحداث العالم الإسلامي في عهد النبوة فإننا نراه قد صدق في تصوير الحياة الثقافية والاجتماعية والفكرية أصدق تصوير ، كما أبان اتصال التيار الفكري بين الدول والشعوب اتصالاً لم يحل دونه بطء المواصلات وقلة المعلومات وقيام الحوائث المانعة من أنهار ومحيطات وجبال وفلوات ، حيث استطاع الإنسان المزود بغرائز حب الاستطلاع أن يقهر هذه الصعاب بالرحلة المتصلة والصبر على الحواجز الناهضة حتى يسهل الطريق بعد نشوز ، أمّا ما وقع فيه من الاستطراد المقبول حيناً والمسئم حيناً آخر فهو مما يعيب العمل الفني ولكنه ليس ظاهرة عامة في فصول الكتاب ، بل استثناء شاذ يُرى على مسافات طويلة قاصية ، ويكاد ينسى فيما يفرق فيه الكتاب من انسجام منسق بديع ! حسب الكتاب إنه زاد حلو محب للناشئة ، وأنه درج نظيف يُمهّد لقراءة البحوث العلمية الرصينة عن السيرة المطهرة التي يكتبها المتخصصون في دقة تكاد تكون غموضاً ، أليس في سهولة (طه حسين) عوض للناشئة عما لا يستطيعون الصعود إليه من بحوث تلتوى وتستقيم ، ثم أليس في إمتاعه الأدبي ما يغني عن قراءة قصص عابثة تصرف الشبيبة عن الجد الأصيل .

« محمد » لتوفيق الحكيم

قرأت عن كتاب « محمد » للأستاذ توفيق الحكيم مقالات نقدية لكبار الكتاب في العالم العربي ترفع من قدره ، وتعدّه عملا ممتازا قوى الأثر ، قرأت هذه المقالات قبل أن يقع في يدي الكتاب ، فأخذت عنه فكرة مشرفة رفعت في عيني الى مرتبة يستحقها الأستاذ توفيق الحكيم ، فهو من كبار أدباء العربية في هذا العصر ، وهو رائد الأدب التمثيلي الذي بدأه على سننه القويم ، فاختر طريقا واضحا لمن جاء بعده ، ومثله في ألمعيته الأصيلة جدير بما يساق اليه من الثناء الحفيل ، لذلك أقبلت على قراءة كتابه عن (محمد) - صلى الله عليه وسلم - ، وفي نفسي أننى سأجد أبداع ما يمكن أن تتمخض عن قريحة كاتب موهوب ، قرأ السيرة النبوية ، وتعمق أحداثها ، ثم صاغ منها مسرحية أدبية تليق بمستواه ، وأنا أعلم أن بعض الكتاب المرموقين في المجال الروائي - وإن لم يكن تمثيلا - قد وفقوا في كتابة السيرة النبوية في قالب قصصي فني ، فصوّروا أحداث الدعوة الإسلامية الكريمة وتاريخ نبيها المصطفى تصويرا روائيا يستعين بالخيال لخدمة الواقع التاريخي دون أن يمس الشخصية النبوية بزيادة لم تثبت ! فجاء ما كتبوه دليلا على أن الفن الروائي المتصل لا يتحيف السيرة المطهرة إذا اتجه اليه كاتب أصيل ، كما جاء ما كتبوه دليلا على أن الخيال الأدبي

يجب لتوضيح الواقع وتبسيط الأضواء على الحقيقة لتظهر في أسطر بريق ، فإذا أضاف الروائي شخصية خيالية لأبطاله الحقيقيين فإنه يتخذ منها أداة كشف صادق لما استتر من الخلدات ، وأداة تنفيذ لأحداث علمت دون أن تنسب الى فاعل معين ، ومن الذين أبدعوا في هذا المجال الأستاذ إبراهيم رمزي صاحب رواية (باب القمر) ، والأستاذ معروف الأرنؤوط صاحب رواية (سيد قريش) ، فكل الكاتبتن الكبرتن قد أفرد روايته الطويلة الممتدة للحديث عن نبى الاسلام ورسالته الخالدة ، مصوراً ما قابل من العقبات فى أداء رسالته ، ومبرزاً جهده الممتاز فى إنقاذ البشر من الظلمات الى النور ، وكلاهما قد كتب روايته كتابة فنية محكمة ، ذات حلقات متماسكة ، وذات أدوار متعاقبة ، تتابع دون نشاز وتنسجم فى اطرافها انسجاماً عضوياً لا تفكك فيه ! وكان المنتظر فى رأى من رائد كبير كالأستاذ توفيق الحكيم أن يكون اللطف تهديداً ، وأحكم صوغاً من سابقه ، وأوفى براعة فى الانسجام الفنى ، والتماسك العضوى بحيث يكون أبطال المسرحية ذوى فصول تتعاقب لتؤدى أدوارها الطبيعية دون انفصام ، هكذا خيل لى قبل أن أقرأ رواية الأستاذ توفيق ، وبعد أن قرأت كثيراً مما كتب فى تقريرها ، ولا أكتف القارىء أن كبار المقرظين قد أشاروا الى انفصال المشاهد ، وتلاحق الأدوار دون تماسك ، وعللوا لذلك بما اقتنعوا به من تبريرات ، ولكنى لم أكن لأتصور أن هذا الانفصال من الخطر بحيث يمنع

التلاحم العضوى وهو ما برع فيه المؤلف فيما قدّم من آثار جيّاد غير ما كتبه عن سيرة النّبى المختار؟ والمسرحية التى أدّرسها الآن تقع فى مقدّمة وخاتمة وبينهما ثلاثة فصول ؛ فى الفصل الأول ستة وثلاثون مشهداً تدور حول السيرة النبوية المطهرة منذ البعثة إلى الهجرة ، وفى الفصل الثانى عشرون مشهداً تمثّل ما وقع من الأحداث فى الفترة الأولى من مقامه - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة حتى موقعة (بنى قريظة) بعد معركة (الأحزاب) ، وفى الفصل الثالث ثلاثة وعشرون مشهداً تبتدئ من حادث الإفك وتنتهى بالفتح الأعظم لمكة ، أما المقدّمة فخاصة بالإرهاصات قبل النبوة ، وأما الخاتمة فتحدث عما بين حجة الوداع ووفاة النّبى صلى الله عليه وسلم ! وبدئى أن الفصل الذى يضم أكثر من ثلاثين مشهداً تختلف أشخاص ممثليه بحيث يتعاقبون دون رابط وكذلك ما يضم العشرين أو أكثر من العشرين ، هذه الفصول ذات المشاهد المتلاحقة التى لا تعهد من قبل أو من بعد فى إنتاج الحكيم المسرحى أو سواء تمنع الاتصال المتسلسل الذى هو من مؤكّدت الإتقان فى العمل المسرحى وإذا كان كما يشق على القارئ الكريم أن نلخص له أحداث فصل من الفصول ذات المشاهد المتلاحقة ، فإننا سنعمد إلى المقدّمة المسرحية وهى فى ثمانية مشاهد متلاحقة جاءت فى حيّز ضئيل بالنسبة إلى حيّز الكتاب ، لتصور طريقة المؤلف فى نهجه المسرحى : فعلى منوالها سار فى بقية الكتاب .

يبتدىء^(١) المنظر الأول من المقدمة بمشهد قصير يَصُور حواراً بين يهودى وجماعة من قومه بالمدينة ، يصرخ اليهودى بأعلى صوته : يا معشر يهود ؛ فتقبل عليه جماعة من أهله يسألونه مالك ؟ فيقول اليهودى : انظروا انظروا فتطلع الجماعة للسماء ، ويسألون : ماذا ، فيجيب اليهودى : طلع نجم أحمد ! هذا كل ما جاء فى المشهد الأول بالمدينة ، ويعقبه المشهد الثانى فى مكة وهو يتحدث عن عبدالمطلب جالسا بجوار الكعبة ؛ وقد جاءت إليه امرأة تقول له : أبشر ، فيسأل عن السبب فتقول : إن آمنة رزقت ولداً وأنها نظرت إليه ساعة وُلد فخرج من نور رأت به قصور بُصرى فى الشام ، فيفرح عبدالمطلب ويقول : إنها الرؤيا التى رأيت فتسأله المرأة عن رؤياه ، فيذكر أنه رأى سلسلة من فضة خرجت من ظهره وامتد طرفاها بين الشرق والغرب ثم عادت كأنها ورقة شجرة على كل ورقة منها نور ، فقالت المرأة : نَسَم المولود محمداً فوافق عبدالمطلب ! وإذا كان الأستاذ توفيق يتقيد بأقوال التاريخ فكان عليه أن ينسب التسمية لعبدالمطلب نفسه لا للمرأة التى بشرته ، فهذا ما كان ! ثم يجيئ المنظر الثالث فيتحدث عن حليلة ومقدمها الى مكة واهتدائها الى الطفل السعيد ، وحديثها عن بركته الميمونة ، ثم عرضها إياه على عراف من هذيل يراه فيعرف أنه النبى المختار فيصبح بمن حوله اقتلوه

اقتلوه ! أما الفصل الرابع فيتحدث عن بحيرا وبشارته لأبي طالب بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رحل مع عمه إلى الشام ، وقد طال هذا المشهد بالنسبة الى ما سبق حيث كان بعض المشاهد لا يتجاوز أخذًا وردًا مرتين اثنتين كما في أول مشهد ، أما المشهد الخامس فيتحدث عن خلاف قريش حول مَنْ يضع الحجر الأسود في مكانه يوم بناء الكعبة ، وكيف أنقدهم الأمين الصادق من الخلاف حين بسط ثوبا ووضع عليه الحجر لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب فيرفعوا الحجر جميعا ، وفي المشهد السادس حوار قصير بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمّه أبي طالب حين دعاه الى الخروج في تجارة خديجة كى يسهل الله له الرزق ، وجاء المشهد السابع ليتحدث عن إعجاب خديجة - رضى الله عنها - بأمانة محمد - صلى الله عليه وسلم - ورغبتها في الاقتران به ، وتلاه الفصل الثامن والأخير من المقدمة ليعلن هذا الاقتران المبارك السعيد !

تلك هى مشاهد المقدمة ، وهى صورة مما تلاها من المشاهد ! وقد تنوعت أماكن الأحداث بين المدينة ومكة . وتوالت الوقائع تواليًا لا يقف عند شخصيات معينة تتبادل الحديث وتقوم بالأفعال ، فتحقق الوحدة الفنية ، فى العمل ، ولكن المؤلف تعرض فى مشاهد شبيهة بالسرد ليهودى بالمدينة . ولعبدالمطلب ، ولخليفة ، ولعراف هذيل ولرحلة الشام الأولى وحديث بحيرا ، ولزراع قريش يوم بناء الكعبة ، ولحديث الرحلة الثانية الى الشام فى تجارة خديجة وثناء ميسرة على محمد

- صلى الله عليه وسلم - ثم الى إعجاب السيدة بالأمين الصادق وإتمام الزواج به ! وقد رأى الكاتب فى هذا النمط السردى ، ما يقدم حقائق السيرة دون أن يزيد !! كنت أؤثر أن تقدم هذه الحقائق فى ظل تماسك فى يتحد فيه المكان والأشخاص فيدور الفصل كله على أناس يظهرون فى كل مشاهدته ليصوّروا هذه الأحداث ، وإذا كانت المسرحية للقراءة فقط لا للتمثيل المسرحى أمام النظارة فلا يضيرنا أن يظهر الصحابة فى الكتاب ليتحدثوا بما قالوه فعلا منقولاً عن صحف التاريخ ، مادامت المسرحية للقراءة وحدها لا للتمثيل إجلالاً لشخصيات هؤلاء العظام أن يقوم بتمثيلها من لا يرتفع إلى مستواهم الكريم ، أقول : إذا كانت المسرحية للقراءة فقط فما الذى يعوق أن يتحدّ المكان والأشخاص وأن يدور الحديث بحيث يشمل كلّ ما يريد الكاتب ، فإذا تعذر أن يحتشد أناس كثيرون فى بعضهم ما يغنى عن بعض إذ فى الحديث الحوارى عن الغائبين ما يدل على أعمالهم وأقوالهم إذا تطلبها الموقف !! وقد يكون الكاتب الكبير يرى أن هذه الوحدة فى هذا النطاق المحدّد مما يتعذر ، وقد يكون من قرظوا الرواية ممن وافقوه على اتجاهه ، ولكنى أرى أن الطاقة الفنية لدى المؤلف الممتاز كانت تتسع لأكثر مما صنع ، ولكنه تعجّل بالتأليف أو أثر التخفف من العناء ! مهما يكن من شىء فإننا نحمد للمؤلف كل الحمد اتجاهه الى الالتزام المطلق بالمأثور من أقوال السابقين حتى لا يضيف اليهم ما لا يأتون من الأفعال أو ينطقون به من الأقوال ، وهو حرص

يصدر عن إيمان واثق بمكانة نبي الإسلام العظيم ، وصحابه الأبرار ، وهذا ما دعاه إلى أن يقول في هامش ص ١٣ ما يأتي :
 (يلاحظ أن الكلام الذى يجرى على لسان النبی - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الكتاب هو كلام تاريخى وردت نصوصه فى كتب معتمدة هى على سبيل الحصر : (سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلى) ، (طبقات ابن سعد) ، (والإصابة لابن حجر) ، (وأسد الغابة لابن الأثير) ، (وتاريخ الطبرى) ، (وصحيح البخارى) ، (وتيسير الوصول) (والشئال للترمذى) (وتفسيره للباجورى) ، كذلك الوقائع الواردة فى هذا الكتاب كلها صحيحة مروية فى الكتب السابق ذكرها ، على أن ترتيب هذه الوقائع وتنسيقها لم يتبع فيه النظام الزمنى المعروف فى كتب التاريخ ، لما هو مفهوم أن هذا الكتاب ليس عملا تاريخيا ولا علميا وإنما هو عمل فنى) .
 هذا الحرص على التقيد بالمأثور دون زيادة هو الذى دعا الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعى أن يقول عن هذا العمل الدقيق^(١) :

(عمل الأستاذ توفيق الحكيم فى تصنيف هذا الكتاب أشبه شىء بعمل (كريستوفر كولب) فى الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا ، لم يخلق وجودها ، ولكنه أوجدها فى التاريخ البشرى ، وذهب إليها فقليل جاء بها الى العالم ، وكانت

مكتبة
المهتدين

(١) مجلة الرسالة العدد (١٣٦) ٢/٣ ١٩٣٦

معجزته أنه رآها بالعين التي في عقله ثم وضع بينه وبينها الصبر
والمعاناة والحدق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة .

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ
والطبقات والشمائل بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة
الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدث ، وخيال غير خيال
القاص ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأى ،
وقصد غير قصد الجدل ، فخلص له الفن الجميل الذى فيها
إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرها على إحساسه الشاعر
المتوثب ، واستلها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما
هى فى طبيعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهى ، محققة
عجائبها الروحانية المعجزة) .

هذا ما قاله الرافعى ، وإخاله قنع من الأستاذ بما وقف عنده
من العرض المتنوع ملتصا بينه وبين نفسه للكاتب عذرا فى ترك
ما كنا نتصوره إذ أنه أهدى السبيلين إلى الأمان ، ولست
أتعصب لرأى حين أقرر أنى كنت أطمع فى مقدرة الكاتب أن
تراعى التناسق الفنى ؛ مع المحافظة كل المحافظة على ما عناه
من الصدق الدقيق ، فهذا مطلب أول يهون بجانبه كل تقصير
سواه ، كما كنت أوثر أن لا يقفز القارئ من مشهد قريب إلى
مشهد بعيد ليكمل له جانب الإمتاع مضافا إلى ما فى المسرحية
من قوة الإقناع .

لقد التزم الكاتب بأقوال التاريخ حقا دون تزويد ! كما أنه حافظ على صيغ هذه الأقوال التعبيرية في نصاعتها الباهرة وقد صدرت في أرقى عهود الفصاحة العربية فأمد قارئه المتوسط بنمط بياني رصين ، وشجّعه على أن يقتحم عباب التراث فيقرأ لابن هشام وللطبري وابن الأثير ! وأولى ثم أولى أن يقرأ كتاب الله إذ تحدث عن بعض مشاهد السيرة ، وأن يقرأ كتب الحديث وفيها منارات تشع بالضوء على أنحاء حياة قائلها الكريم ! وكل ذلك كسب ثمين .

وإنصافا للكاتب الكبير ننقل للقارئ مشهدا مكتملا من مشاهدته الكثيرة ليرى كيف حافظ على النصوص السلفية محافظة تامة ، حتى خيل للقارئ أنه لم يأت بجديد ، والحقيقة كل الحقيقة أنه بذل جهدا مستترا يعرفه كل كاتب في الاختبار الدقيق على تسلسل السرد المتصل في كل مشهد على حدة لا في المشاهد بعمامة إذا جرى معها قارئها في نسق مطرد ، لأن المؤلف يقرأ ويهضم ويوازن ويعلل في صمت طويل ثم يقدم للقارئ خلاصة يظنها مما وقع عليه لساعته دون معاناة ، وان وراءها ما وراءها من التنقيب والجمع والترشيح والاختيار !

ننقل للقارئ المنظر الثالث والثلاثين من الفصل الأول وهو يصور (بيعة العقبة) واجتماع الخزرج ليلا في الشعب تصويرا مطابقا لما نعلم من شئون هذه البيعة بحيث لا يحتاج مستزيد إلى مزيد .

العباس : أوقد وعدوك يا ابن اخي .

محمد : نعم .
العباس : إني أحببت أن أحضر أمرك ، وأتوثق لك ، فإن كانوا
حقا قادرين على أن يمنعوك ويقوموا معك ، ويخرجوا بك إلى
بلادهم فإنهم والله نعم . الأنصار .

محمد : إنهم مجتمعون خفية في الشعب .
العباس : (ينظر إلى القوم) هؤلاء ، إن عددهم والله لكثير .
محمد : السلام عليكم .

القوم : (ينهضون) وعلى النبي السلام والرحمة .
العباس : (يدنو منهم ويقوم فيهم) : يامعشر الخزرج إن محمدا
منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا
فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه أبي
إلا الانحياز إليكم ، واللّٰحق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون
له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من
ذلك ؛ وإن كنتم ترون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به
إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .
الخزرج : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ
لنفسك وربك ما أحببت .

محمد : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم
وأبناءكم .

البراء بن معرور : نحن والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه
أزرننا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل
الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

ينهص رجل هو الهيثم بن التيهان فيقول : يا رسول الله ،
إنَّ بيننا وبين اليهود حبالا ، وإنَّا لقاطعوها ، فهل عسيت إن
نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟
محمد : (يبتسم) بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم
منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم ينهض العباس بن
عبادة فيقول :

يا معشر الخزرج هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ .
الخزرج : نعم .

ابن عبادة : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من
الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا انهكت أموالكم مصيبة ،
وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي
الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه
على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير
الدنيا والآخرة .

الخزرج : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا
بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ .
محمد : الجنة .

الخزرج : ابسط يدك .

محمد : (يسط لهم يده) .

الخزرج : اللهم اشهد إنا بايعناك .

محمد : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما
فيهم .

الخزرج : (يخرجون اثني عشر رجلا منهم) هؤلاء يا رسول الله .

محمد للنقباء : أنتم على قومكم بما فيكم كفلاء ، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي للمسلمين .
النقباء : نعم يا نبي الله .

يرتفع صوت صارخ من رأس العقبة [الصوت]

يا أهل الجبابب : هل لكم في مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم .

العباس : هذا الشيطان يصرخ من رأس العقبة .
الجميع يلتفتون ويصيحون ..

محمد : هذا ابن أزيب ، استمع أي عدو الله ، أما والله لا فرغن لك .

الخزرج : نعوذ بالله منه .

محمد (للقوم) ، ارفضوا إلى رحالكم .

ابن عبادة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافتنا .

محمد : لم نؤمر بذلك : ولكن ارجعوا إلى رحالكم^(١) .

نقدم هذا النموذج ليمثل أكثر مشاهد الكتاب فقد يكون فيها ما يفوقه إبداعا ، وقد يكون فيها ما ينحط عنه ، ولكنه -

(١) ما بين الصفحات (١٦١ - ١٦٦) من الطبعة الأولى من كتاب «محمد» .

بعد - صورة للطابع العام الذى انتهجه المؤلف حين اعتمد على نصوص السيرة فى كتبها الأولى لىأتى بها على نسق حوارى هو جلّ جهده فى الكتاب ، وليست كتب السيرة قديمة وحديثة من الصعوبة بحيث يعد اختيار هذه المشاهد عملا جبار ، فقد ألف الأستاذ توفيق الحكيم كتابه عن محمد بعد أن ظهرت كتب الشيخ الخضرى ومحمد أحمد جاد المولى ، ومحمد رشيد رضا ومحمد حسين هيكل وكلها قد عرضت ما جاء بكتب التراث عرضا شائقا ، فسهل الرجوع إليه ، وأصبحت قراءة سيرة ابن هشام وما تلاها من كتب التاريخ النبوى فى طوق القارىء ! وإذا قلنا إن كتاب الأستاذ توفيق الحكيم قد قرب السيرة النبوية من عقول طلبة المدارس ومن أفهام الشبيبة التى سحرها الأسلوب الحديث فاشرأبت إليه فيما تقرأ من التراث الأوربي بحيث وجدوا فى كتاب (محمد) ما حجب اليهم أن يردوا حياض السيرة المطهرة من نبع صاف قريب ، إذا قلنا ذلك فقد انصفنا الكتاب ، أما إذا قلنا ما قاله الأستاذ أحمد حسن الزيات عنه حين خصّ بتقريره افتتاحية لامعة من افتتاحيات (مجلة الرسالة) فقال عن الحوار الفنى فى عمل المؤلف^(١) :

(أما تمثيله على النمط الذى جرى (يريد اقتباس الحوار مما كان فعلا على لسان أبطاله من السابقين) فهو الفن المبدع الذى يمدّه الإلهام ، وتهديه الطبيعة ، يجرد الحادث من فضول الرواية

ونافلة الحديث ، فرده إلى جوهره ، ويحيله إلى بساطته ثم يبعث الأشخاص ويحدد الأمكنة ويعيد المناسبات ، ويحيى البيئة فيرجع بالقارئ إلى عصره ، فيحيا حياته ، ويعايش أهله ، فيرى بعينه ما يعملون ، ويسمع بأذنيه ما يقولون ، ويدرك بنفسه موانع الحال ، ودوافع الموقف ، وذلك ما عمله توفيق الحكيم في كتابه الجديد (محمد) عمد إلى المواقف الخطيرة في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمواقف العظيمة في تاريخ الرسالة فمثلها على الوضع الذي كانت عليه ، بالعمل الذي حدث ، وبالحوار الذي جرى ، وبالروح الذي انتشر ، ثم صور البواعث النفسية التي أغفلها المؤرخ ، وأظهر الألوان المحلية التي أحالها الزمن فاتصلت الأسباب واستبان العلل وتحدت الفروق .

أقول إذا قلنا ما قاله الأستاذ (الزيات) - رحمه الله - عن الكتاب ، فقد نظرنا بعين الرضا التي هي كليله عن كل عيب ، كما أننا - شهد الله - لا ننظر بعين السخط التي تتلمس المساوىء من كل سبيل ، بل ننظر نظرة معتدلة فنجد (الزيات) كان رقيقا في قوله إن المؤلف قد رجع بالقارئ إلى عصر النبوة ، ليحيا حياته ويعايش أهله فيرى بعينه ما يعملون ويسمع بأذنيه ما يقولون ويدرك بنفسه موانع الحال ودوافع الموقف ، كما نجد أستاذنا الزيات رحمه الله كان متسامحا حين قال عن فن الرواية أنه الفن المبدع الذي يمده الإلهام وأنه صور

البواعث التي أغفلها المؤرخ وأظهر الألوان المحلية التي أحالها الزمن فاتصلت الأسباب واستبان العلل وتحددت الفروق) .
لقد كان الأستاذ توفيق في حاجة الى جهد أكبر هو في مقدوره قطعاً لكي يبلغ ما قاله (الزيات) متساعاً ، ولعله ظن أن كل ابتداع فني سيؤاخذ عليه من قبل قوم لا يريدون غير القديم المكرر ، فأثر الدعة ، ومضى ينسق وينضد دون أن يبدع الصورة ويحكم الإطار وهكذا وقع فيما عناه المتنبى حين قال :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على التمام

وكعادتنا في تتبع ما يمكننا ملاحظته من الآراء المختلفة فيما نعرض من البحوث والمؤلفات فإننا نتجه إلى ناقد محايد هو الأستاذ إسماعيل مظهر ، قرأ مسرحية الأستاذ توفيق الحكيم ، وقرأ ما كتبه كبار الكتاب عنها كذلك ، ثم تقدّم بوجهة نظره الخاصة فقال^(١) :

(ونجد أن ما في القصة من فن إنما هو فن الحوادث كما وقعت ، وكل ما فيها من فكرة وبلاغة إنما هي بلاغة الأقوال التي قيلت ، وعندى أنه ليس في هذه القصة من جديد إلا فكرة أن يسوق الكاتب بعض حوادث كتب السير مساق قصة تمثيلية ، وهي فكرة جميلة .

(١) مجلة المقتطف مارس سنة ١٩٣٦ ص ٤٤٢ مجلد ٨٨ .

كذلك يلاحظ الناقد أن الأستاذ المؤلف لم يسق الحوادث التاريخية كما وقعت تماما ، وهذا أمر إن جاز في وضع قصة خيالية عن أشخاص غير تاريخيين فإنه لا يجوز إطلاقا ولا هو مما يسمح به الفن نحو رجال عرفهم التاريخ أدق معرفة وأحاط بأشخاصهم كل إحاطة ، ودونت حوادث حياتهم أدق تدوين ، على أننا إذا تجاوزنا وقلنا بأن للمؤلف أن يقدم في رواية بعض الحوادث وأن يؤخر في رواية البعض ، فإننا لم نعرف ما هي الحاجة الفنية التي حملته على ذلك ، ولم نتبين وجه الحكمة التي ساقته إليه ، فإن هذا لم يظهر بعض الحوادث مسبوكه في قالب أشد روعة مما حدثت ، بترتيبها التاريخي ، ولم يزد من سبكها الأصيل شيئا ، بل إن الناقد ليشعر بأن الحكمة كانت في جانب سوق الحوادث مرتبة كما وقعت تماما ، ما دام الكاتب لم يفتن فناً جديداً ، وإنما اكتفى بأن يتخذ من فن الحوادث التاريخية مادة قصصية .

وعندى أنه كان من المستطاع أن يقع المؤلف على مادة تمكنه من أن يجلو بطولة النبي العربي في صورة جديدة ، لو أنه رجع إلى كتب الأحاديث واطلع على تفسيرها ، وأحاط بدقائق العلاقات التي تصل حوادث السيرة بالأحاديث ، غير أن هذه المهمة على ما أرى شاقة تحتاج إلى كثير من الوقت والتعب ، ولكنها خطة من الواجب أن ينتحيها كل كاتب يقدر ما للنبي العربي العظيم من قدسية واحترام ، غير أننا نقول مع الأسف الشديد إن نزعة الآداب الحديثة تفضل آثارا فنية خلصت قدر

المستطاع من موازنات (الحكيم) (وثقافة الفنان) هذا ما أرتآه ناقد محايد ذكر ما رآه دون مجاملة ! وإذا كان الأستاذ (الزيات) قد قال في كلمته أنه هو الذى أشار على الأستاذ (الحكيم) بالاتجاه الى هذا الفن فى كتابة السيرة ، ثم نشر له فصلا جيدا عن الهجرة على صفحات (الرسالة) ليرى وقع هذا الاتجاه فى نفوس القراء قبل أن يتجه إلى تأليف الكتاب فهو إذن حين يتحدث عن كتاب الأستاذ (الحكيم) إنما يشعر فى أعماقه أنه يتحدث عن عمل وجه إليه وباركه ونشر منه على صفحات مجلته ، ولا كذلك الأستاذ مظهر إذ تلقى الكتاب دون انطباع سابق ، فسجل نقده كما يراه .

وما طاف بنفسى نحو قيمة هذا العمل الفنى فى كتاب (محمد) قد طاف بنفس الأستاذ فاروق خورشيد فتحدث عنه فى مقال تساءل فيه^(١) .

«هل يريد - المؤلف - سرد الوقائع فحسب ، إن هذا ليس عمل الأديب ، بل هو إلى عمل المؤرخ أقرب ، (وتوفيق) ليست فيه دقة المؤرخ ولا تحقيقه ، هل يكفى للأديب أن يختار الزوايا التى يلقط منها الصورة فيحسن الاختيار ، ويحول الروايات التاريخية المعقدة الأسلوب بما فيها من أسانيد وعنعنات إلى حديث سهل عذب ، وهل يكفى للعمل الأدبي الناجح أن نلمح فيه ما بذل الأديب من مجهود ضخم ، وما تحمّل من عناء

دون أن نرى من خلاله الأديب نفسه ، أنت تحسّ حين تقرأ أن إحساس الكاتب بما يكتب قد انزوى في طوايا المجهود والترتيب ، وأنت تستطيع أن ترى في الكتاب رسماً لعمارة ضخمة ، جميلة حقاً ، فيها ذوق هندسى مرهف ، ولكنها بالرغم من جماها وروعيتها لاتعبر عن شيء مما يحسّه المهندس ، ولا تحكى شيئاً مما ينفعل به .

كان على الكاتب لكى يتفادى ذلك كله ، أن ينسق الفصول على النمط المسرحى المألوف ، وأن يخترع شخصيات تتحدث عن الواقع كما كان ، لتكون أصيلة تتعاقب فى أدوارها المتوالية من أول فصل إلى آخر فصل .

وإذا احتجبت فى بعض الفصول فهى ماثلة فى الذهن يتطلبها القارئ ويتنظر رجوعها لتمام ما بدأت ، هنا يصبح العمل فنياً دون أن يفقد مكانته التاريخية ، وهنا يستطيع المؤلف أن يبرز قدرته فى إنماء الشخصية ورسم ملامحها فى شتى عهودها المختلفة ، وهنا يرتاح القارئ إلى ما يقرأ لأنه أخذ الكتاب ، وفى اعتقاده أنه سيقراً عملاً فنياً يخضع إلى أصول التأليف المسرحى ونظرة إلى رواية «باب القمر» ترشدنا إلى ما نريد أن يكون ، فبطل القصة (ورقة) شخصية خيالية ولكن الأحداث دارت من حوله فى شتى الصفحات لتتحدث عن الدعوة الإسلامية ، وعن الأحوال الاجتماعية فى الجزيرة لعهد الدعوة ، وعن رسالة الإسلام كما أداها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أكمل وجه وأتمه ، وهنا كان الأستاذ إبراهيم

رمزى مؤلفا روائيا لم يضع حق التأليف الروائى كما لم يغفل تصوير التاريخ كما كان ، وهنا كان عمل الأستاذ منسوبا إليه كمؤلف حقيقى ، لا كقارىء درس واستوعب ثم اختار ! . لا ننكر أن الأستاذ (توفيق) قد اهتدى إلى تقرير حقائق رائعة بأيسر اللّمسات . وأخف الكلمات ، فهو مثلا تحدث عن القتال فى الإسلام عند كلامه عن غزوة (بدر) ، فأكد ما عناه الله عز وجل بقوله الكريم :

﴿ اُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

حين أظهر أن تعقب المسلمين لتجارة قريش كان ردا على احتجازهم أموال المسلمين بمكة بعد أن أخرجوهم من ديارهم مهاجرين فرارا بدينهم العزيز أكد ذلك حين أدار فى بعض المشاهد هذا الحديث :

بلال - أبوسفیان بن حرب مقبل من الشام فى عير عظيمة ، فيها أموال قريش ، وتجارة من تجارتهم .

عمر : (وقد لمعت فى رأسه فكرة) : وكم فيها من رجال ؟

بلال : ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون .

عمر : قد بدا لى رأى .

أبوبكر : قل : أسمع .

عمر : أرى أن نعرض لهذا المال ، لقد أخرجتنا قريش من ديارنا ، وجردتنا من أهلنا ومالنا ، فإن نصب هذه العير ، فهي بعض حقنا ، ومال بمال .

أبوبكر : ألا نستأذن رسول الله ؟

عمر : بلى ، قم إلى رسول الله فكلّمه .

بلال : عسى أن يأذن رسول الله .

عمر : إن شاء الله فإنه يأذن ؟ أنا معشر المهاجرين ، لا نرضى أن يحتملنا الأنصار على كواهلهم أكثر مما احتملوا ، فقد أدّوا لنا ما عليهم ، وآن لنا أن ننفق مما أعطانا الله .

بلال : رسول الله وأبوبكر قادمان .

أبوبكر : يا معشر المسلمين .

محمد - وقد اجتمع اليه المسلمون - هذه عير قريش فيها أموالكم ، فاخرجوا إليها لعلّ الله أن يغمكموها^(١)

فالمؤلف في هذا الحوار قد بين دواعي الحرب ومشروعيتها بمنطق عملي لا يعترضه منصف ، في لمسة خفيفة لم تحتل التطويل ، ولكنها كفت عن صفحات كثيرة ، وقد أقنعت قارئها وسامعها بما حملت من منطق ، وهذا بعض آثار الفن الصادق حين يبلغ الصميم من أيسر الطرق .

ونستشهد بحوار آخر يصوّر الوهج النفسي الحزين ، كما صوّر الحوار السابق المنطق العاقل الرصين ، هذا الوهج اللافح

الذى اشتعل أواره فى صدور المشركين عقب هزيمة (بدر) ،
فعملوا على الثأر فى حمية جاهلية تريد متنفسا عما تحمل من
الشجى المبرح ، وقد تواصت على تحريم البكاء على القتلى حتى
تثار هاهم أولاء يجتمعون بعد الهزيمة فيقولون .

عكرمة : لقد ربحت تجارتنا وجاء بها أبوسفیان ، وأن محمدا
قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا
ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

أبوسفیان : نعم الرأى .

قریش : نعم ، فلنخرج لحرب محمد بأموالنا .

جبر : ينادى عبداً له : يا وحشى .

وحشى : لبيك يامولاي .

جبر : إنك تقذف برمحك قذف الحبشة ، فقلما تخطىء به ،
فاخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى
طليحة فأنت عتيق .

وحشى : (فرحا) أفعل .

أبوسفیان : فلتخرج قریش بحدّها وجدها وأحايشها !

قریش : تصيح ، الثأر ، الثأر ، ويتفرقون .

أبورافع لأم الفضل : ويحهم سخرجون لحرب رسول الله .
أم الفضل : إذا جاء العباس فلنخبره ، علّه ينبىء الرسول
بخبرهم .

أبورافع : نعم .

أم الفضل (تنظر) من القادم ؟

أبورافع : هذا الأسود بن المطلب .
أم الفضل : لقد أصيب له ثلاثة من ولده .
تدخل دارها ويدخل خلفها أبورافع .
الأسود (وقد كفّ بصره) ومعه غلام يقوده : أليست هذه
نائحة ؟

يصغى إلى صوت يتردد في الفضاء .
الغلام : نعم .
الأسود : اذهب وانظر هل أحلّ النحيب ؟ هل بكت قریش
على قتلها ؟ لعلّ أبكى على أبي حكيمة فإن جوفى قد احترق .
الغلام يذهب سريعا (هند بنت عتبة تقبل عليه) .
هند : ماذا تصنع هنا يا ابن المطلب .
الأسود : مَنْ أنت ؟ .
هند : أنا هند بنت عتبة .
الأسود : أما بكيت على أبيك ؟
هند : لم يحن الحين .
الغلام (يعود صائحا) .
الغلام : لم يحلّ النحيب .
الأسود : وما تلك النائحة ؟
الغلام : إنما هى امرأة تبكى على بعير اضلته

الأسود : (وقد استند الى ذراع غلامه ومضى فى إطراق) .
أتبكى أن يضلّ لها بعير ويمنعها من النوم السهود .
ولا أبكى على (بدر) ولكن على (بدر) تقاصرت الجودود

فأى براعة فى تصوير هذا الشجن ؟ وفى أيسر كلام وأخف حوار !

بقى أن نذكر حق التاريخ فى تصحيح أخطاء شتى وقع فيها المؤلف ، وأى كتاب خلا من الخطأ ؟ ولكن الخطأ يتطلب التصويب وسأبديه .

١ - فى ص ١٣٢ تحت عنوان (المنظر السابع والعشرون) وقع هذا الحوار بين نعيم بن عبدالله وعمر بن الخطاب فى طريق من طرق مكة ليلا .

نعيم : أين تريد يا عمر ؟ .

عمر : أريد جلسائى فلا أجدهم ، ولقد جئت اسحاق الخمار لعلى أجد عنده خمرأ فأشرب منها فلم أجده .

نعيم : لقد مضى عهد الخمر ، ويتلو :

«إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» . المائدة ٩٠

عمر : هذا كلام محمد ، وفعل محمد ، هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها ، وضيع بهارجها ، وشرذ شعراءها .

نعيم : نعم كلامه ونعم فعله .

عمر : إنك اتبعته ؟

نعيم : نعم .

عمر: (يلطمه) قبحك الله ، والله لا قتلن محمدا بسيفي هذا .

وهذا كلام يدل على أن الخمر قد حرّمت بمكة قبل أن يسلم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأن الآية الكريمة :

«إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه»

نزلت بمكة قبل هجرة الرسول ، وهذا خطأ واضح ، لأن الخمر لم تحرم إلا في المدينة ، وأن عمر - رضى الله عنه - كما جاء في تفسير الطبرى - كان يقول في رواية عن أبي مسيرة : (اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا) فنزلت آية البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) آية ٢١٩

قالت الرواية فدعى عمر فقرئت عليه ، فعاد يقول : « اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا » . فنزلت الآية التى فى النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عباى سبيل حتى تغتسلوا) فدعى عمر فقرئت عليه فقال : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » فنزلت الآية التى فى المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر

والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فليجتنبهوا لعنكم
تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء
في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم
منتهون) . الآيتان ٩٠ ، ٩١

فقال عمر : انتهينا انتهينا !

هذه القصة في أسباب النزول نجدها في جلّ كتب التفسير
الذائعة ، نجدها في (الطبري) ، (وابن كثير) (والبغوي) ،
(والبحر المحيط لأبي حيان) ، وفي (الكشاف للزمخشري) ،
(وروح المعاني للألوسي) (وأحكام القرآن لأبي بكر بن
العربي) ، وما لا أحصى من كتب الفقه والتفسير والحديث !
فاستشهد المؤلف بالآية غير صحيح في زمانه ومكانه ! وكان
عليه أن يثبت .

٢ - في ص ٢٥١ قال :

(ويحمي وطيس القتال ، ويشخن المسلمون أعداءهم قتلا
وأسرا ، سلبا ، ويستلب عبدالله بن الزبير أدرع أحد القتلى
ويأسر أمية بن خلف وابنه) .

عبدالله بن الزبير ، رافعا سيفه .

هذا أمية بن خلف .

ولا محل لذكر عبدالله بن الزبير في غزوة (بدر) ، إذ كان
عمره سنة واحدة عند الموقعة ، فكيف يحمل السلاح ويستلب
أدرع أحد القتلى ويأسر أمية بن خلف وابنه ! والثابت في كتب

السيرة جميعها أن الذي أسر أمية بن خلف هو عبدالرحمن بن عوف وكان صديقا له في مكة قبل الإسلام ، وقد قال الطبري في تاريخه مانصه :

(. . عن عبدالرحمن بن عوف قال : كان أمية بن خلف لي صديقا بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو فسميت حين أسلمت عبدالرحمن ونحن بمكة ، فكان يلقيني ونحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سَمَّاكه أبوك ؟ فأقول : نعم فيقول : قاتل لا أعرف الرحمن فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به أما أنت فلا تحييني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ، قال : فكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه ، فقلت : اجعل بيني وبينك يا أبا علي ما شئت قال : فأنت عبدالآله ، فكنت إذا مررت به قال : يا عبدالآله فأجبهته فأحدث معه ، حتى إذا كان يوم (بدر) مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية ، أخذ بيده ، ومعى أذراع قد استلبتها فأنا أحملها ، فلما رآني قال : يا عبد عمرو فلم أجبه فقال يا عبدالآله فقلت : نعم ، قال : هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك ، قال : قلت نعم هلم إذن ، قال : فطرح الأدرع من يدي وأخذت بيده ويد ابنه علي ، وهو يقول : ما رأيت كالיום قط !

فكيف يكون عبدالله بن الزبير بعد ذلك هو الذي أسر أمية ولم يبرح لفائف الرضاع !

٣ - الحرص على النصّ القرآنيّ فرض عين ، وكتابته على غير اطراد حرام أن تُعمدت ، وخطاً يجب تصحيحه سريعاً إذا جاء عن طريق السهو ، وهو ما سها فيه المؤلف حين ذكر قول الله على لسان جبريل ص ٤٨ (وأُنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) الشعراء ٢١٤ ، ٢١٥ «وقل إني أنا النذير المبين» . فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» . الحجر اية ٨٩ .

لقد لفق نصّاً من صورتين مختلفتين هما سورتا « الحجر » « والشعراء » ، والذي جاء في سورة الحجر هو قوله تعالى :

(وقل إني أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع ، بما تؤمر وأعرض عن المشركين) الآيات من ٨٩ إلى ٩٤ من سورة الحجر .

والذي جاء في « سورة الشعراء » هو قوله تعالى (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ، وأُنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم) (الآيات من ٢١٣ إلى ٢١٧) من سورة الشعراء .

٤ - فى المنظر السادس ص ٤٧ ذكر الكاتب أن أبا بكر رضى الله عنه قال عن اهتدائه للإسلام بعد أن حدثه رسول الله عن دينه فكان أول السابقين من الرجال ! ذكر الكاتب على لسان أبى بكر قوله .

نعم : إنه النور الذى يهذى السبيل ، لقد دخل دارى فأنصاء قلوب أهلى الصالحين جميعهم حتى غلامى بلال ، وبلال لم يكن عند إسلام أبى بكر فى أول الدعوة غلاما لأبى بكر ، وإنما اشتراه بعد ذلك بأمد طويل حين وجده يعذب فى دين الله على يد أمية بن خلف فرحمه واشتراه ، وقد تحدث المؤلف عن ذلك فيما بعد ص ١٠٣ حين قال لأمية :

أبوبكر : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ، حتى متى ؟ .

أمية : أنت الذى أفسدته فانقذه مما ترى .

أبوبكر : افعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به .

أمية : قد قبلت .

أبوبكر : هو لك ، ردّ على بلالا أعتقه .

يطلقون له بلالا فينصرف به

٥ - فى ص ٦٣ قال المؤلف تحت عنوان (المنظر الثانى عشر) (أشراف قریش يجتمعون فى حجر الكعبة) . قال المؤلف على لسان أبى سفيان :

أو ينزل الوحي على هذا الرجل - يعنى رسول الله - وأترك ،
وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو سيد ثقيف .

وأبوسفيان لم يكن ليقول ذلك لأنه لم يكن كبير قريش قبل
الهجرة ، بل كان كبيرهم الوليد بن المغيرة وابن اخيه الحكم بن
هشام المعروف بأبي جهل ، وهو الذى قام بأكثر ما قيل به
المسلمون من المضايقات ، وقد قال (الزخشرى) عند تفسير
قول الله - عز وجل - فى سورة الزخرف :

﴿ وَقَالُواْ

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

القريتان هما مكة والطائف ، ورجلا القريتين هما : الوليد
بن المغيرة المخزومى ، وحبيب بن عمرو الثقفى كما روى عن
ابن عباس ورى عن قتادة أنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن
مسعود الثقفى ! فأبوسفيان لم يكن ليقول ذلك إنما تولى زعامة
المشركين عقب مصرع أبى جهل فى غزوة (بدر) ! فقاد معركة
(أحد) وما تلاها ! ولا أدرى من أين أتى المؤلف باسم أبى
مسعود عمرو ، لأن المؤرخين لا يخصصون بسيادة ثقيف غير عروة
بن مسعود ، وحبيب بن عمرو ! أهو سبق قلم !

إن كتاب « محمد » لتوفيق الحكيم كان تمهيداً طيباً لأعمال
فنية قام بها تابعوه . فوجب أن أحفظ له مكانة الريادة من ناحية
ووجب أن أقول فيه ما أعتقد من ناحية ثانية ! وقد أكون مسرفاً
لدى غيرى ممن يطمئن إلى غير ما أذهب ، ولكنى أتحدث عما
أرجحه من الحكم فهل من معقب يفيد !

موازنة أدبية بين الكتب الثلاثة

تحدثنا فيما سبق عن (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل . (وعلى هامش السيرة) . للدكتور طه حسين ، (ومحمد) للأستاذ توفيق الحكيم ، وأوضحنا رأينا الخاص في اتجاه كل كاتب ومنحاه ، والحق ان هذه الكتب قد وجدت اهتماما خاصا بين الناقدين في الفترة التي تلت ظهورها . حيث بدأ الدكتور (هيكل) وأعقبه الدكتور (طه) ثم ثلث الأستاذ (توفيق) بكتابه ، وإذا توالى التأليف الأدب عن السيرة المطهرة بعد هذه الكتب . فلأنها هي التي شددت الأنظار إلى عظمة السيرة النبوية ، وأثرها في إحياء الشعور الإسلامي دون جدال .

وقد كان الأستاذ أحمد الشايب - رحمه الله - أحد الذين تناولوا الكتب الثلاثة بالموازنة في مقال هادف نشره بالعدد الممتاز من مجلة (الرسالة) (١٣/٢٩٧ مارس سنة ١٩٣٩) ولما كتب الأستاذ الشايب من أهمية أدبية فإننا نقدم ما قاله للقارئ فيما يلي من هذه السطور :

بدأ الشايب حديثه عن مكانة السيرة النبوية في نفوس المسلمين . فأوضح أنها تحتل في تاريخ الأدب العربي مكانة لم تظفر بها سيرة أخرى . لأنها تتحدث عن رسول أديب داعية . حمل رسالة الإنقاذ للبشرية التي تناولت الدين والنظام السياسي

والاجتماعى والاقتصادى ، وأثرت فى الحضارة الإنسانية لدى من اقتنعوا بها مسلمين أو عارضوها منكرين ، كما كانت هذه الرسالة موئل البشرية حين تعوزها الهداية ، ومتجها لمن يبحث عن الرشاد والخير والسلام .

ثم أشار الكاتب إلى بعض من أسهموا من الفرنجة فى كتابة هذه السيرة المباركة ، فذكر (إرفنج) (ووليام) (موير) (ومرجيلوث) ، وخصّ (كارلايل) بثناء صادق يستحقه ، وانتقل إلى الإشارة لبعض إخواننا من الهنود الذين وفوا سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حقها ، ورأى أن يشير إلى كتاب السيرة المباركة من السابقين فى مفتتح حديثه عن المعاصرين لتكون الحلقة واضحة منذ المبدأ . فتعرض لما قام به ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبرى وابن الأثير ، وقال عنهم فى إجاز :

«وهذه المؤلفات القديمة لم تكن بالطبع خاضعة للمناهج العلمية الحديثة ، فكانت مجموعة من أحاديث الرسول وأخبار الجاهلية وأساطير القدماء وأشعار الناحلين ، ومبالغات الراوين دون عناية بالنقد والتفسير أو التنسيق وحسن التأليف ، ولكنها كانت مؤلفة بروح هذه العصور السابقة ، وبوجهة النظر التى كانت - فى الغالب - مقياس الصحابة والتابعين حين يذكرون الرسول الكريم ويفسرون أعماله وآثاره» .

هذا ما قاله الأستاذ الشايب عن عمل السابقين من المؤرخين ، وهو حديث مجمل قد يجد القارئ الكريم تفصيله

في البابين الأول والثاني من هذا الكتاب ، حيث سلطنا بعض الضوء على طريقة السابقين في كتابة السيرة المطهرة وأوضحنا ما انتهوا إليه من ثمار .

ودخل الأستاذ الشايب في صميم موضوعه حين تحدث عن (هيكل) و (طه) و (الحكيم) . فذكر أنه خصّهم بالحديث لأنهم نهجوا في كتابة السيرة مناهج طريفة من ناحية ، ومتغايرة من ناحية أخرى ، فهم يتفوقون جميعا في العناية المحمودة بسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجعلها موضوعا خليقا بالدرس وبذل الجهود في إذاعته بين الناس بأسلوب جديد يقربه إلى القراء ويحبيه إلى نفوسهم ، ولكل من الثلاثة مذهب واضح ذو معالم بارزة إذ ليس فيه ما نجد في كتب التراث من اضطراب وجمع لبعض ما يختلف ولا يأتلف ، بل هو مذهب متناسق الأجزاء منظم العناصر .

فهيكّل - كما قال الأستاذ أحمد الشايب - يمتاز بالمنهج العلمي حين اختار سبيل العالم المحقق فقسم موضوعه إلى فصول متواصلة متلاحقة . كما كانت حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - منتظمة في هذه الفصول أو الأقسام التاريخية ، ولا يرى الناقد أن منهج (هيكل) كان كله من اختراعه ، فلقد سبق إليه ، ولكنه أثر وهذب منه ، وقد اقتضته خطته أن يكون مستقصيا إستقصاء الباحث ، فليس له اختيار ما يجب ، وترك ما لا يهوى ، لأنه يعالج موضوعا من عمل التاريخ ، عليه أن يعرضه كما حدث دون أن يخلع عليه من نفسه إلا ما شاء الخيال

التاريخي الذي يربط المفكك ، ويصل المنقطع ، ثم هذا النقد الذي يظهر في تفسير كثير من المسائل بمقياس إسلامي علمي ، بعد ما كانت أشبه بالسمعيات تصدق ولا تعلل ، وفي مناقشته آراء المستشرقين الذين تجافوا فيما كتبوا عن روح الدين وطبيعته ، وصاحب (حياة محمد) ، فيما يرى الناقد ، مسلم غيور حذب على الدين ، أشرب روح الإسلام وألم بكثير من أسرارها فظهرت الحمية على كتابه ، حمية من لا يسمح لأحد بغمز دينه أو النيل منه ، وذلك كله في أسلوب منطقي واضح هو أسلوب العلماء .

هذا ما قاله الأستاذ أحمد الشايب عن الدكتور محمد حسين هيكل صاحب (حياة محمد) ، أما رأيه في ما كتبه طه حسين في مؤلفه (على هامش السيرة) فإنه يراه سلك سبيلا أخرى هي سبيل الأديب حقا ، فلم يشأ في الظاهر أن يتقيد بمنهج علمي ، وإنما كان قصاصا . ترك العصر الذي نعيش فيه . وانتقل بخياله الخصب إلى الجاهلية وصدر الإسلام وعاش مع ناسها يفهم بعقولهم ، ويحس بإحساسهم ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون ، وبذلك استطاع ما وسعه الجهد أن يقص علينا الحوادث بروحها وفي جوهرها ، وأن يفسر المسائل كما كانت تفسر حينذاك ، فنقل إلينا هذا الماضي . أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة ، وفن القصصي لا يقتضي صاحبه استقصاء ولا نقدا علميا دائما ، ولا تحقيقا ولا تفنيدا ، فأثر أهم الأمور التي يرى فيها روعة قصصية . لأنها كانت رائعة إبان حدوثها ،

أوفيا شعر وتخيّل صاحب (على هامش السيرة) ثم تناولها واصفا وحاكيا لم يترك جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما فات الرواة ، وليس من شك في أن ذلك قد عُرض بأسلوب مجمل هو أسلوب القصصي الممتاز الجامع بين التحليل النفسي للأشخاص ، والإحاطة التامة بما يعرض من مواقف .

فإذا انتقل الأستاذ الناقد إلى توفيق الحكيم فإنه يراه قد توسط بين (طه) (وهيكل) . إذ جمع بين ميزتي العالم والأديب الممثل ، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس ، إذ استشار المراجع القديمة ووقف عندما رسمت ، دون أن يستعين الخيال إلا قليلا ، وقد ألم بأطراف موضوعه ، رتسمه فأحسن التقسيم ، ثم اختار قضاياها وصفّاها وجعلها واضحة خالصة من براهين التحقيق العلمي وإسهاب الفن القصصي ، فصارت قضايا موجزة باتة حاسمة ، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحوارى أو التمثيلي كما كان يتحدث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته والمتصلون بسيرته قديما إلّا ما لم يرد فيه نصّ ، وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذرا محتاطا لم يمسّ الموضوع إلّا بخفة ، وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره . واستطرد الكاتب يقول تركيزاً لما سبق :

كان هؤلاء الكتاب إذن ما بين عالم محقق ، وأديب قاص ، وفنى ممثل ، كلُّ أخلص لمنهجه ووصل منه إلى غاية بعيدة ، ونستطيع أن نتبين هذه الفروق في أسطر قليلة جدا ، فيما كتب عن أول ما عمل محمد - عليه السلام - في تجارة خديجة ،

(فهيكـل) يقرر المسأـلة ويقول . إن أبا طالب كان السفير بينـها وبين ابن أخيه ، وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد ، وإرسالها دسيساً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه في تجارتها بأجر مضاعف ، فيلقى توفيق الحكيم فيقتضب المسأـلة ، ويترك الياب مفتوحا للخيال .

هذا ما قاله الأستاذ أحمد الشايب . وقد حرصت على أن أذكره بالفاظه إلّا في عبارات يسيرة رأيت اختزالها ، ولعلّ ما سبق من فصول هذا الكتاب قد أعان على تفصيل ما أجمله الناقد الكبير وإذا كان لي أن أعقب عليه بشيء فإنّ أذكر أن (هيكل) لم يكن عالما فقط وإنما كان عالما أدبيا . ففكره فكر العالم وتعبيره تعبیر الأديب ، وما أظنّ أحدا ينكر جمال الأسلوب لديه وترقرقه انسجاما ممّا لا يرتقى إليه عالم محقق لم يرزق جمال التعبير ، وكذلك أرى قوله عن توفيق الحكيم أن الأسلوب من تقسيمه وأبتكاره يحتاج الى توضيح إذ أن الحكيم قد أثر في أكثر الحوار أن يكون كما جاء على لسان أصحابه في كتب السابقين ! فكيف يكون إذن من ابتكاره ؟ لقد أصاب الأستاذ الشايب - رحمه الله - توفيقا كبيرا فيما كتب عن هذه الكتب الثلاثة ، فمن حق القارئ علينا أن نقدّم له ما قال دون اختصار يشين .

٢١٠

محمد فريد وجدى والسيرة النبوية

قضى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى عمره الحافل مجاهداً في سبيل الله ، إذ تفرغ لدراسة شكوك الملاحدة في هذا العصر وجلّها وافدة من الغرب ، سواء ما كتبه الاوربيون أنفسهم طعنا في الاسلام بخاصة وفي رسالات السوء بعامة ، أو ما كتبه من ثورط في ترديد ما قاله هؤلاء الطاعنون مضيفا إليه ما ظنه يخدم فكرة الشك الملحد ، وقد أصدر في مدى ستين عاما من عمره الذى ناهز الثمانين عدة مؤلفات رائعة تتجه هذا الاتجاه . نذكر منها كتبه : (على أطلال المذهب المادى) ، (الاسلام دين عام خالده) ، (الاسلام فى عصر العلم) ، (مدنية الاسلام) ، (مهمة الدين الاسلامى فى العالم) ، ولما كانت بعض هذه الطعون تتجه الى نبي الاسلام بغيا دون حق ، فقد عمل الأستاذ على تفنيد هذه الطعون على مدى حياته ، فى فترات متعاقبة ، ثم رأى أن يخص السيرة النبوية المطهرة بكتاب خاص تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) أخذ ينشره تباعا فى (مجلة الأزهر) على مدى سبع سنوات ، فجاء ما كتبه تحت هذا العنوان نهجا فريدا فى بابيه ، وقد رأينا أكثر من كتبوا فى السيرة من بعده قد نقلوا عنه دون أن يشيروا اليه ، وكأنهم رأوا أن عدم جمع هذه الفصول الرائعة فى كتاب مستقل مما يبيح لهم أن ينهبوا أفكارها دون الإشارة إليها ، وإذا فعل

ذلك من يتصدّر لكتابة سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فقد جانب الأمانة التي هي من ابرز صفات من يتحدث عنه ،
وكان المنتظر أن يقتدى بنبي آمن به ، وبذل جهده لدراسة
حياته ، وتمجيد أخلاقه ، لذلك رأيتُ من الواجب الأكيد أن
أفرد هذا الفصل للحديث عن هذه الفصول الرائعة الممتدة
الخصبة التي كتبها الأستاذ محمد فريد وجدى ونشرها في مجلة
زائفة ، ولعل أحد المهتمين بنشر سيرة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - يقوم بجمعها في كتاب خاص فيسهل تناولها على
الدارسين .

ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى أن مثقفي اليوم لم يعودوا
يقنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تعليل ولا يكتفون
بالتسليم بوجود النبوة دون أن يبحثوا ماهيتها ، أهي حاجة من
حاجات الروح الانسانية . أم هي مجرد ظواهر اجتماعية تولّدها
ضرورة الاجتماع مثل ظواهر الارتقاء في الحياة الإنسانية ؟
والوحي الذي تعتمد عليه النبوة كيف يؤمن به المعاصرون دون
دليل معاصر يقدمه الكاتب محسوسا ملموسا لا تترى فيه
العقول فالزمن زمن التنقيب الفاحص ، ولا بد للسيرة أن
تعرض في لون فكري يرضى كل متعطش للمعرفة ، ويقنع من
يمتري في الحق لشكوك تقوم في نفسه !

وقد لاحظ العلامة فريد وجدى أن كثيرا ممن تحدثوا عن
السيرة النبوية من المسلمين ، - وهذا حق - كان معتمدهم على
الأساليب البيانية ، والبراعة الخطابية ، ولم يعنوا بحاجة العقول

المجبولة على التشكك إلى الاطمئنان المثبت ، كما أن بعضهم قد اندفع الى تسجيل إسرائيليّات مزعومة ما كان لها أن تكتب ، ولم يخس الأستاذ من كتبوا من زملائه بتمحيص ونقد . فأشاد بعملهم الجيد ، وذكر أنهم تركوا أشياء دلّت عليها البحوث العلمية المعاصرة ولم يطرقها في مجال تأييد السيرة النبوية كاتب إلى هذا الزمن ، - لاسيما - وقد أصبح القول الفصل للعلم المؤيد بالبرهان ، وكل قول لا يؤيده العلم الحقيقي هو خيالات لدى مفكرى اليوم ، فوجب أن تدرس السيرة تحت ضوء العلم .

شرع الأستاذ يكتب فصول السيرة النبوية ابتداء من (المجلد العاشر من مجلة الأزهر) وقد صدر في سنة ١٣٥٨ هـ حتى (المجلد السابع عشر) وقد صدر في سنة ١٣٦٥ هـ ولكن السيرة النبوية في صميمها قد وقفت عند نهاية المجلد (الرابع عشر) الذى صدر سنة ١٣٦٣ هـ وما كتبه الأستاذ بعد ذلك قد جاء خاصا بتعاليم الإسلام ، وهدية العالمى وإن جعله تحت عنوان « السيرة المحمدية » ولو كنت مكان الكاتب لجعلت تعاليم الإسلام خاصة بموضوع مستقل عن سيرة الرسول ، وهى كذلك أيضا فيما كتب ، ولكنه تمسك بعنوان السيرة المحمدية فشمّل هذه الفصول جميعا ! وماذا عليه لو جعل السيرة مستقلة بأحداث الرسول فأمتد بالعنوان إلى نهاية المجلد (الرابع عشر) ، ثم بحث عن عنوان جديد لهذه القوانين الهادية والاصلاحات المفيدة التى أتى بها الإسلام . لو كان لى أن اقترح

على مَنْ يتفضل بجمع هذه القُصُول لاقتُرحت أَنْ يصدرها في جزئين متوالين ، يخص كل الأول سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقفا عند نهاية (المجلد الرابع عشر) ، ويخص كل الثاني في الحديث عن هداية السلام ! وسأقتصر الآن في مجال التحليل على الجزء الأول لأنّه من موضوعنا في صميم الصميم !

إن أول موضوع بدأ به الباحث هو موضوع النبوة والأدلة العلمية على حدوث الوحي ، وهو موضوع عالجه الباحثون من قبل ، ولكن معالجة الأستاذ محمد فريد وجدى كانت جديدة من وحيه الخاص ، وقد قال : إن الأدلة المنطقية على صحة النبوة كثيرة ، ولكن العقول المعاصرة تتطلع إلى الأدلة العلمية الملموسة لا إلى الأدلة المنطقية المعقولة ، وعلى من يريد أن يتقدّم بالدليل العلمى الشاهد فى رأى الباحث أن يتساءل عن أمور ثلاثة :

- ١- هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة الكائنات نفثا فى الروح من غير طريق الخواص .
- ٢- هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها .
- ٣- هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة يسوغ اعتبار الوحي أمرا ممكنا؟^(١) .

(١) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ص ٩٠

هذه هي الأسئلة التي تصدر الأستاذ للإجابة عنها بما يملك من جهد فكري ، فقال عن السؤال الأول وهو الخاص بمعرفة بعض الكائنات لأشياء كثيرة نفث في الروع عن غير طريق الحواس ، قال : إلهام الحيوان أمر ظاهر لاشك فيه . فالفراش متى وصل إلى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على أوراق خضراء ، وهذا البيض لا يفقس إلا في الفصل الثاني بعد وفاة الأم فتهيا الوليد الجديد ليأكل من الورق الأخضر ، ويتساءل الكاتب من الذي علّم إناث الفراش أن صغارها تحتاج إلى الغذاء ، هل هديتها الأمهات إلى ذلك وهي لم تر أمّاً في حياتها ، هل هديت إليها بعقولها ؟ إنها ليست ذات عقول فلم يبق إلا القول بالإلهام .

ثم استعرض الأستاذ حشرات وحيوانات شتى مثل : (النيكروفر) التي تموت بعد أن تبيض مباشرة وتجمع جثثاً حيوانية لأولادها الصغار قبل أن تموت ، ومثل : (البومبيل) من أكلة الحشائش ، وقد هيأت لها الأم ما تتغذى به من الحيوانات لأنها في الفترة الأولى من حياتها لا تستسيغ الحشائش ؟ فمن أدراها أن صغارها ستخرج من أكلة الحيوانات ؟

أمثلة شتى استعرضها الأستاذ ليثبت أن الإلهام يأتي نفثاً في الروع لدى الحيوان ، فلا يستبعد لدى الإنسان ، ولم ينس أن يذكر ما قاله الطبيعيون في الرد على ذلك ، بأن هذا الإلهام عادة موروثه ، فهي داخلية إذن ، فقال مفنداً هذا الرد : كيف

يعقل أن تتفق عليها هذه الحيوانات في كل زمان ومكان ، وكيف تورثها لأحلافها وقد ثبت علميا أن الوراثة للصفات والعادات غير ممكنة ؟ وأنا أزيد على الأستاذ فريد وجدى فأتساءل ؟ إذا كانت هذه الاحتياطات عادات موروثة ؟ فكيف اهتدى إليها الموروث الأول ؟ ومن الذى دلّه على أن يكتشف غيبا لا يكتشفه إنسان مفكر فضلا عن حشرة صغيرة ! إن الإلهام الخارجى ثابت إذن .

وفى الاجابة على السؤال الثانى الذى يتساءل عن حوادث إنسانية يقرّها العلم نفسه تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها ذكر الأستاذ ما عرف عن عقليات تتصف بالعبقريّة تأتى بقفزات مذهشة ! والأستاذ لا يستشهد بالعبقريّة ليثبتها لمحمد صلى الله عليه وسلم . فهو يرى أنه نبي موحى اليه ، ولكنّ مظاهر العبقريّة لدى بعض البشر ، وهى الأمر الخارق للعادة ، والصفة التى لا تخضع لقانون ، هذه العبقريّة قد وُجدت فعلاً ، فرأينا من الناس - وقد شاهدنا ذلك عيانا فى مصر - من يضرب رقما حسابيا مكوّنا من خمسة أعداد فى رقم مماثل ؛ ويأتى بالنتيجة صحيحة فى سرعة عجيبة ! فكيف اهتدى ذلك الشخص الى الجواب ، وقد يكون أميا ؟ لاشك أن اتصالا راقيا كان يمدّه بما لا يستطيع أن يقوم به كبار النابغين بديهية دون عدّ ، ومتى ثبت أن هناك اتصالا للبعبرى ! فأولى أن يكون هذا الاتصال العلوى للنبي ! مرّة أخرى ، أقول : إن الأستاذ (وجدى) لا يثبت العبقريّة لمحمد ليجعلها أساس

النبوة ، ولكنه يقول : إذا تصوّرنا العبقري في الحياة بأعماله الخارقة ! فمن المعقول أن نتصور النبي بإلهاماته الصادقة فما العبقري حينئذ إلا مثل مقرب فقط .

وقد استعرض الأستاذ أمثلة شتى لأناس من الغرب أدهشوا العالم بخوارقهم الحسائية والرياضية والموسيقية والشعرية ناقلا قوله عن الشهود لهم من كبار الأكاديميين في (انجلترا) و(فرنسا) لينتهى إلى وجود اتصالات روحانية باطنية تمدّ الانسان عن طريق العقل العادى .

أما السؤال الثالث عن اعتراف العلم بعالم روحانى فوق المادّة ، فقد تحدث عنه الأستاذ (وجدى) بإشباع مستفيض في كتاب «على أطلال المذهب المادى» ثم أوجز حديثه في مقال مركز ليثبت ما قاله الروحانيون من أساتذة الجامعات الأوربية عن القوى المجهولة التى تظهر آثارها امامهم ، ويحارون في تحليلها ، ولكنهم على تحيرهم في التعليل لا يستطيعون أن ينكروا وجودها ، وهى تأخذ عليهم كل سبيل .

لقد بذل الأستاذ جهده في إثبات الإلهام بما استطاع من الأدلة العلميّة ، وإذا كان لكل كاتب من ينقده في بعض قوله ! فحسب الأستاذ أن أضاف جديدا يصلح للنقاش ، وأذكر أن السيد محمد رشيد رضا قد تحدث في كتابه الرائع (الوحي المحمدى) عن إمكان الوحي السهاوى بأدلة فكرية غير التى اهتدى اليها الأستاذ ! وللقارىء الحريص أن يستوعب ما قاله الأستاذان ، وأن يتابع ما دار حول ذلك من نقاش مفيد ، وقد

قال الأستاذ (وجدى) فى خاتمة حديثه : (ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد إلى اكتشاف هؤلاء العلماء فيما وراء الطبيعة ، فقد اثبتنا وجوده بالحس من الغرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا دلالة على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيه فتوحات الروح من طرق النبوة وفتوحات العقل من طريق العلم^(١) .

على أننا إذا تأملنا ما أورده الأستاذ فى هذه النواحي الثلاث فإننا نجد الناحية الأولى ثابتة بنص القرآن : إذ قال الله - عز وجل - (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . . آية ٦٨) أما اختلاف العقول قوة ونبوغا وابتكارا - وهى الناحية الثانية - فمن المشاهد الملموس الذى لا ينكره أحد ، فإذا نظرنا ثالثا إلى تمسكه بما انتهت إليه الدوائر الروحية فى جامعات الغرب من شواهد دالة على وجود العالم العلوى ، فإننا نجد هذه الشواهد مما يستأنس بها فحسب ، كما قرر ذلك بنفسه ، أما حقيقة الروح فهى من أمر الله ! وقد قال الله - عز وجل - :

— ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾
وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

وجميل أن نقف عند هذا الحد .

وإذا انتهى الأستاذ من التدليل العلمى على ثبوت الوحي ، فقد إنتقل إلى التدليل على ثبوت النبوة ، فينكر أشد الإنكار أن يذهب الماديون إلى أن النبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الاولى ، ويرى أن الحاجة إلى النبوة أصيلة في النفس البشرية ، لأن المجتمع الانساني كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما لا حاجة إليه فيه ، ولم يستطع فى أى طور من أطوار حياته أن ينفى رغبته فى العزاء النفسى أمام ما يصيب الانسان من الكوارث ، وهو عزاء لا بدّ منه أمام الكوارث المتتالية ، والخطوب المستمرة ، فقد يستحوذ الانسان على المال والجاء والسلطة ثم يعوزه العزاء حين يقعده المرض أو يصيبه الموت فى أعز الناس لديه ، فما يغنى عنه الثراء أو السلطان شيئاً ، ولكن عزاء يكمن فيما جاءت به النبوة من وجود ملتقى نهائى فى عالم الغيب ، به يجتمع الشمل ، ويهون الفقد ، هذه الحاجة الماسّة إلى العزاء وجدها الانسان فى تعاليم النبوات - كما يقول الأستاذ (وجدى) - فهى التى تتولاه ، وهو أشد ما يكون احتياجاً الى كلمة طيبة تشرق عليه بالأمل ، كيلا يظل يائساً يصرطع فى نفسه الهموم ، فيحاول صرفها بالشراب والرحلة والاندماج فى الملامى دون جدوى ، لأنها لا تبرح نفسه أنى سار ، ولو لا ما جاءت به النبوة من العزاء ما وجد السلوان .

ومن أقوى ما كتبه الأستاذ فريد وجدى ما تحدث عن نفسية الرسول قبل النبوة وبعدها ، ليردّ على من يذهبون الى أنه ادعاها إدعاء دون وحى منزل . . فيقول الكاتب : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يشتهر قبل البعثة بين قومه بمميزات تدعوه الى التطلع للرياسة الدنيوية . فقد كان لدى العرب قبل بعثته من يتصدرون لكشف المستور بما يحترفون من قيافة أو كهانة أو طب ، وكان للناس فيهم معتقد كبير . إذ يسألونهم عن المجهول فيجيبون ، ولم يكن لمحمد صلة بهؤلاء حتى يتسامى للحديث عن عالم الغيب تبعا لكهانة أو سدانة ، كما أن كل إنسان كتب له النبوغ في عمل من الأعمال ، فإن دلائله تظهر عليه مبكرة منذ نشأته الأولى ، وكلما تقدمت به السنون تضافرت الدلائل على موهبته حتى يصبح علما في بابه ، في الخطابة أو الشاعرية أو الحكمة ، ولكن نشأة محمد الأولى لم تكن لتدل على أنه يتهيأ لرسالة السماء في شيء ، ولم يظهر لديه أى ميل للتفكير في هداية الناس إلا قبيل البعثة مباشرة ، حين حببت اليه الخلوة في (غار حراء) ، فكان يكتف وحده متأملا مفكرا في ملكوت السموات والأرض يقول الكاتب الكبير^(١) ببعض التصرف :

(إن هذه النفس الحائرة الثائرة التي لم تجد في العالم المحسوس ما تعمل عليه أخذت تتلمس بلال غلتها في عزلة الكهوف

وظلمة المغاور وهي محرومة من ملاذ المطاعم والمكاسب لى نفس لم تطبع على غرار النفوس العادية ، وإلاّ فماذا كان ينقص محمدا بعد أن بلغ مبلغ الرجال وأصبح له زوجة وأطفال حتى يؤثر حياة العزلة في (حراء) . على متع الحياة الاجتماعية ، أكان يتطلع من وراء هذا الزهد إلى زيادة موارده المالية . وتحقيق ذلك لا يكون إلاّ في الأسواق العامة للتجارة دون الاعتزال .

وبيئته العربية لم تكن لتهمم بالمسائل الروحية ، ولا ترى السيادة في قريش لذوى التحنث والإخبات ، فلماذا لجأ محمد إلى حراء قبيل البعثة ؟ إن القلوب الكبيرة تلهم إنها مستقر لأبرار خطيرة وهذا ما ألهمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين حببت إليه الخلوة فأثر الاعتزال .

لقد أصيب محمد بالخوف حين جاءه الملك لأوّل مرة فما سرّ ذلك ؟ ثم أصيب بالحزن حين فتر عنه الوحي حتى عاد إليه فأمره بالدعوة إلى الإسلام ! أيمكن قد تخيل أو اختلط عليه ؟ إن المتخيل والمختلط عليه لا يأتي بقرآن معجز محكم . وإنما قصاره أن يهزى بما لا يفهم ، وقد جاء محمد - عليه الصلاة والسلام - بتجديد الدعوة الإلهية خالصة من الشرك ، ونجح أكبر النجاح في تجلية حقائقها ، وإفحام خصومها ، فكيف يكون مختلطا عليه فيما يبلغه للناس من كتاب الله ، والمختلط عليهم من الهاذين والمسحورين لا يأتون بعمل إيجابى ؟ !

في أمثال هذه المعاني كتب المؤلف فصلا عن دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه . فند فيه كل شبهة يتفوه بها منكر . لينتهي إلى قوله الرائع - ببعض التصرف :

(اللهم ما أقوى سلطانك وأسطق برهانك ، أمى في أقصى بيثة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادئ ، وبين ظهراى قوم لم يألفوا النظام ، ولم يأنسوا بالوحدة ، ينتدب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوهم للكلمة الجامعة ، ملّوحا لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المأرب ، الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، ومدلّلا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، ضاربا لهم المثل العملى بتأليف أمة عالمية ليس فيها ظلّ من نكرة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، وبتوزيع العدالة ، وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسّوية ، أمة خالصة من جميع علل الاجتماع يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، رأس مالها المعرفة ، دينها العقل ، سلاحها الحكمة ، غايتها المثل الأعلى - أمى في أقصى بيثة عن العمران يأتى بكل هذا بنصوص صريحة لا تحتمل الصرف والتأويل لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ! بل لابد أن يهبط عليه من عالم علوى ، إذ هى أرقى مما سبقها من فلسفات الأقدمين مجموعة متضافرة ، ومن العجيب أن موجى هذه التعاليم يقرر سبقها لزمانها ، وأن الناس سيعرفون فضلها بعد حين

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق^(١))

أى دليل على الوحي أقوى من هذا الدليل^(٢) سورة الشورى
٥٣

بهذا المنطق المتسلسل دعم الأستاذ فكرة الوحي أولاً وفكرة النبوة بعامة ثانياً ، وفكرة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ثالثاً ! فجلا القتام عن حقائق خافية وهدى إلى خير جزيل .

لقد كانت إحاطة المؤلف الكبير بشبهات الغرب حول رسالة نبي الإسلام ، وتوثبه لتفنيدها في مدى تطاول إلى أكثر من نصف قرن ، كانت هذه الإحاطة دافعة إلى وقوفه المتمد أمام ما يلوكونه من هذه الشبهة ، وكانت للكاتب عفة قلم تجعل ألد خصومه يصيخون إليه في احتفال ، كما كان منطقهم بين الوضوح بحيث لا يُميز لنفسه أن يلجأ إلى الدروب الملتوية ، والمسالك المعوجة ليخبر مناظره ، بل يلقاه على قارعة الطريق واضحا سافرا ، يفجؤه بالرد الحاسم النافذ في غير جلبة أو ضجيج ، وإذا كان ادعاء هؤلاء المتخرصين قد تكاثر حول القول بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد جاء في فترة توثبت فيها الجزيرة العربية للنهوض وتطلعت إلى الإصلاح الديني

(١) سورة الشورى آية ٥٣ .

(٢) « مجلة الأزهر » : المجلد العاشر ص ٤١٢

والاجتماعى والثقافى نافرة من جاهليتها الجهلاء ، وقد لمس النبى هذا الشعور فقاده بسهولة جعلت رسالته هينة الأداء ، سهلة المجتنى ، لم ترهقه عسرا فى أمره ، حيث لم يزد فى منطق هؤلاء على أن قاد جماعة تريد أن تتجه إلى الإصلاح مشوقة إلى مشارق الضياء ، إذا كان هذا الادعاء قد تكرر لدى من يحاولون إنكار هذا الجهاد النبوى الشاق ، وقد تواصلوا به حتى أخذوا يكررونه كالشئ البدهى الذى لا يحتمل النقاش فإن الأستاذ فريد وجدى قد أعطى قدرة حاسمة على العصف بهذا الادعاء الواهم ، حين قال : إن هؤلاء المضللين قد نسوا أنه لو كان الأمر كما يزعمون لما استنكر المشركون دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا التفوا حوله مذعنين ، ولكن بيئة النبى فى مكة وهى أرقى قبائل العرب إدراكا قد ثار ثائرها وجنّ جنونها وطفقت تحارب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتابعيه بالاستهزاء والإيذاء والاضطهاد والمقاطعة . حتى اضطّر المضطهدون إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة ، وبعد أن عانى المسلمون ما عانوا من عتو قريش ؛ فرّوا مهاجرين بدينهم إلى المدينة ، وما كاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقيم مع أصحابه فى يثرب حتى تعرّض لحروب طاحنة مع المشركين ، فهل يعقل أن يكون هؤلاء الذين حاربوا محمدا بالسيف والدم كانوا يتطلعون إلى دعوته كى تقودهم إلى النور ، فلما هتف بها انجذبوا إليه طائعين ؟ .

يقول الأستاذ فريد وجدى فى شرح هذه القضية - ببعض التصرف القليل - :

(هل لم يبلغ الخصوم أن قريشا وهى القبيلة التى يُرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحد والنهوض قد بقيت محاربة للدعوة الإسلامية تؤلب عليها العرب ، وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها ييثرب لتبيد خضراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - أن يدعى إلى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عنوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تثير على خلفائه الحروب وتنفر منهم القلوب ، فإذا كانت فى بلاد العرب هذه الفكرة عن النهوض أكانت تتخطى صميم العرب من : قريش ، وخزاعة ، وتميم ، وهوازن ، وتأوى إلى أهل يثرب ؟ وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت فى رؤوس بعض مفكريهم فماذا ، قالوا فيها من شعرونثر ، وقد تكلموا فى كل شىء حتى الفسق والفجور ، الحق الذى لا مرية فيه أن بلاد العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة إلى التوحيد ولو وجدت لوصلتنا أنباؤها إذ لا يمكن أن تظل خفية فهى شعور تولده الحاجة فى الجماعات ! أما وقد ثبت ذلك بكل دليل فإن مصداقه من القرآن قوله الله تعالى :

(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون)^(١) .

هذا الاعتراض المتردد في دوائر الاستشراق قد تكرر ردّ الأستاذ فريد وجدى عليه أكثر من مرّة فيما كتب من موضوعات السيرة ، كما كرره في مقالات أخرى سبقت نشر هذه البحوث بسنوات ، إذ كان لا يترك مناسبة تعن حتى يفرد المقالات الضافية يتحدث عن أثر الإسلام في إصلاح المجتمع الإنساني ! وكان علي الأستاذ - رحمه الله - أن يشير في هذا الموضع إلى مَنْ عرفوا في الجاهلية قبيل الدعوة بالحنفاء وهم بضعة نفر لا يزيدون على خمسة أشخاص كانوا يتعبدون على دين إبراهيم - عليه السلام - ، وقد خاصمهم الجاهليون وأعرضوا عنهم لاثمين ، فكانت عبادتهم خاصة بهم ، ولعل الأستاذ حين قال : إن بلاد العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة ، كان يدرك أن دعوة الحنفاء كانت خاصة بهم ، فليس لها شيء من هذا العموم ، ولعل قرأت له في غير هذا المجال ما يشير إلى دعوة الحنفاء ، وتلاشي تأثيرها في غير أصحابها وهم لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ! ولو كان محمدا - صلى الله عليه وسلم - واحدا منهم فقط لما زاد عليهم في شيء ، ولكن الله قد اختصه برسالته فجاهد وناضل حتى أخرج بها الناس إلى النور من حوالك الظلام .

تابع الأستاذ أحداث السيرة فتكلم عن نشأة النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة ، ثم عن جهاده في أداء الرسالة عقبها ، وعما تعرّض له من الإيذاء والاضطهاد صابرا مثابرا ،

وعمن أسلموا معه وشاركوه عبء الجهاد مقتدين به ، وإذا كان ذلك معروفا لدارسى السيرة النبوية فلا مناص للأستاذ من ذكره ليحلل ما تضمن من عظات ، وينير ما خفى من دلائل ، حتى إذا انتهى من هذا السرد الواضح المؤثر في غير جلبة رنانة ، بل في هدوء واثق مطمئن ، عقد فصلا رائعا تحت عنوان : « نظرة في مناهضة المشركين للدعوة الإسلامية » كرر فيه ما سبق أن قاله بشأن مقاومة الجاهليين للرسالة المحمدية ، ودلالاتها على عدم تهيؤ الجو الاجتماعى للدعوة تلقائيا دون وحى منزل ، كما تحدث عن صلابة الذين دخلوا فى الإسلام بحيث لم تستطع أعنف ضروب الإيذاء أن تصدهم عن الدين الجديد ، وقد يكون الحديث فى هذه الناحية غير جديد .

أما الجديد فهو ما شرحه الأستاذ خاصا بما أحدثه الإسلام من انقلاب لا نظير له فى النفس العربية ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بعد همود ، لأن العرب فى مكة وما حولها لم يخضعوا لأناس يتخصصون فى شئونهم الدينية ويقومون بالدعاية لها كما عهد لدى المتدينين فى أكثر بقاع العالم ، كما لم يكن لديهم صحف أو نقوش تسجل ما يقومون به من الشعائر الدينية ، وهذا يدل على أنهم يعبدون أصنامهم عن تقليد متوارث من ناحية ، وعن ضعف الشعور الدينى عامة من ناحية ثانية ، فإذا استطاع الإسلام أن يبعث شعورا دينيا جديدا كالذى بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مثل هذه البيئة ذات العبادة المظهرية فحسب ، فذاك انقلاب خطير لا يعهد نظيره

فى تاريخ البشرية ، فإذا أضيف إليه غلبة الدعوة الإسلامية على ما عداها فى حياة رسولها المحدودة فقد تمت المعجزة الخارقة للدين لأن ما تقدم الإسلام من دعوات دينية لم تتح له السيطرة التامة فى حياة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل مضت حقبة طويلة حتى استطاع أتباع هذا الدين نشره على فترات ذات أبعاد ، فالسرعة العاجلة فى انتشار الدعوة آية من كبرى آياتها الخوالد .

هذه النظرات الاجتماعية العميقة تدل على ذاتية مستقلة لدى الكاتب ، ونحن نعرفه من باحثى علم الاجتماع ودارسيه وقد انتفع بدراسته الاجتماعية انتفاعا مهذا له سبيل التحليل البصير والتعليل الدقيق بحيث أتى فى هذا المجال بما يخالف المعهد مما يعلم الدارسون ، فنحن نعلم ما قيل عن سبب انتشار الإسلام بين الأنصار فى المدينة ، وكانوا يتحاربون تحاربا ضاريا لا هدنة فيه ، حتى جمعهم الإسلام على الحب والإخاء ، وقد قيل فى سبب استجابتهم السريعة إلى الإسلام أن مجاورتهم من اليهود كانوا يحدثونهم عن نبيّ حان ظهوره فى بلاد العرب وأنهم سيتبعونه ابتغاء العزة والاستعلاء فلما سمع المتقاتلون من الخزرج والأوس بظهور رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وعرضت عليهم دعوته نشطوا لاتباعه ليسبقوا إلى ما أمله اليهود فيعتزون بالنبيّ ويستعلون ، هذا ما جاء فى كتب السيرة من تعليل لانجذاب الأنصار بالمدينة إلى الإسلام ، ولكن الأستاذ محمد فريد وحدى لا يقبل هذا التعليل لأمر معقولة أهمها : أن

أهل يثرب لم يدخلوا في الإسلام ولم يقوموا بالدفاع عنه إلا بعد ثلاث عشرة سنة من وجوده ، فأين كانوا في هذه المدة وهم يسمعون من اليهود بحديث النبي المنتظر ؟ وإذا صحَّ أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبي في بلاد العرب وأنهم يعولون على الانضمام إليه أفكانوا يصرّحون بذلك لأعدائهم من الأوس والخزرج غير خاشين أن يسبقوهم إليه مع ما نعهد في بني إسرائيل من الحرص على كتمان السرّ وعدم اطلاع أعدائهم على ما ينوون ؟ ثم هل كان الأوس والخزرج من السداجة بحيث يصدّقون كلام أعدائهم من اليهود ولا يظنونهم مخادعين . وبخاصة إذا كان النبي القرشي لا يزال مضطهدا في قومه ، وأصحابه مستضعفون في أكثرهم لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟ ولماذا يميل إليه الأنصار وهم إنما يطلبون رجلا قويا ذا أنصار أقوياء يستعينون بقوته على الخصوم ! وإذا كانت الحرب بين الأوس والخزرج هي التي دفعتها معا إلى الإسلام ليتحدّا تحت رايته فتحتجز الدماء ، أفما كانوا يدركون أنهم بمناصرتهم نبي الإسلام تجنبا للحرب قد فتحوا أمامهم جبهة حربية جديدة هي جبهة قريش بمكة وحلفائها بالجزيرة العربية ، وستكون العاقبة أكثر وبالا ! كل ذلك مما يجعل التعليل المدوّن في كتب السيرة واهي الحجة في منطق الأستاذ فريد وجدى ، ليذهب إلى أن مشيئة الله وحدها قد شاءت أن تأق بالأوس والخزرج عونا للمسلمين في ظروف حرجة بالنسبة للمهاجرين والأنصار معا فألقت في قلوبهم حب الإسلام الخالص بعيدا عن كل اعتبار

دنيوى ، بل طمعا فى جنة الله ، ولعل مما يؤيد الأستاذ (وجدى) فى ذلك وإن لم يذكره فى مجال التعليل أن أصحاب (بيعة العقبة) حين سألوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - عما ينتظرون بعد تأييده ، وعدهم بالجنة وحدها ! لا بسيطرة دنيوية وسلطان أرضي ! وقد قال الأستاذ فى خاتمة هذه التساؤلات المحيرة عما دفع بالأنصار إلى الإسلام :

(لو كان لمحمد مال أو مدد من الرجال أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال لقلنا أن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر فى قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خيره ، فماذا الذى جمعهم على التطوع لنصرته والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ، ألهم إني عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية^(١) .

وقد تساءل الأستاذ فى بحثه ، لم أحجم اليهود عن المسارعة إلى قبول دعوة الرسول ، وقد بلغتهم قبل إسلام الأوس والخزرج ؟ وهو تساؤل أجاب عنه كاتبو السيرة من السابقين حين ذكروا أن اليهود كانوا يتوهمون أن النبی المنتظر من بنى إسرائيل ، فحين علموا أنه من قريش ركبوا رؤوسهم وأنكروه وقد بشرت به التوراة فحرفوها مدلسين ، على أننا نعرض

ما أثاره الأستاذ (وجدى) بشأن اندفاع الأنصار إلى الإسلام لا لنذكر أنه لا يقبل النقاش ، بل لنقدّم وجهة نظر لباحث أطال التفكير حتى انتهى إلى أن هذا الاندفاع آية إلهية لا تخضع لتعليل صريح ! ولنعرض غطا من التساؤل الحائر الذى يقف بأصحابه أمام سدّ منيع يحاولون اقتحامه فلا يستطيعون .

لقد اهتم الكاتب بموضوعه اهتماما يظهر فى استقلاله الذاق أمام تفسير الأحداث وتعليلها حتى فيما اشتهر منها غاية الاشتهار ، فموضوع كموضوع الهجرة النبوية لم يحظ موضوع مثله باهتمام الدارسين ، حتى خصصت به الأعداد الموسمية من المجلات الأدبية والإسلامية فى كل عام فى شتى بلاد الإسلام ، وحتى أصبح المتحدثون عن هذا الحادث الجلل لا يكادون يجدون مايقولون ، فيبتعدون عنه مضطرين إلى موضوع نبوى آخر ، أو يتكلفون له صياغة أدبية فنية تلمّ به إماما يتجدّد فيه الشكل البيانى وحده ، أما الموضوع فلم يعد يتطلب المزيد ! هذا الموضوع الذائع الجهير قد فتح الله فيه على الكاتب بمدّ جديد حين وقف وقفة مستأنية أمام انصراف المشركين عن غار (ثور) يوم الهجرة دون أن يلجوه وقد انقطعت أمامه آثار الأقدام ، وتعبّن أن يكون مأوى للمهاجرين ، فيذكر الكاتب أن القرشين كانوا أحرص الناس على العثور على النبى تخلّصا مما سيجره عليهم من الحروب والمنازعات لو سلم بنفسه واستقر بالمدينة ، وقد دلّهم القائف على أن آثار الأقدام قد انتهت عند الغار ، وكان

للعرب ثقة مطلقة في قافتهم فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار ومع عدم استحالة الولوج فيه من أعجب ما يروى من الأحداث .

يقول الكاتب مستطردا : (١)

(رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيؤوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالي حتى يتحققوا من خلوه وإلا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال في أمر يعدونه أخطر الأمور .

ولسنا نكتفى بهذا ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا في كل طريق يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كبكة من الفرسان تقطع الطريق على خصمهم ، فإذا لم يفعلوا مع تخيلهم بأرفع صفات الحيلة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولكنى التزمت في هذه السيرة ألا أتجاوز أصول الدستور العلمى فلا ألتجأ إلى الظن في موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبی « صلى الله عليه وسلم » حافلة بالآيات الدامغة فلا حاجة بها إلى ما يمكن الخصوم من تجريحه لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش عما هم بضدده كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ،

كانهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبي إلى حيث لا يراه العرب في موسم الحج فيفتتن بعضهم بشدة بيانه وقوة عارضته) . ولنا عند هذا الكلام وقفة ! فقد قال الكاتب إنه لم يذهب في تعليله هذا النكوص عن تتبع الرسول « صلى الله عليه وسلم » إلى أن الله قد صرفهم عنه عماشة للعلل الطبيعية والتزاما بأصول الدستور العلمى ! لأنه قدّر في نفسه أنه يخاطب بكتابه خصوم الإسلام الذين يضيّقون بكل تعليل غيبي لا يماشى ما يلبثهم حسيّا مع الأحداث ! مع أنه في تحليله لموقف الخزرج والأوس من المسارعة العاجلة إلى الانضواء تحت راية الإسلام وهم يعرفون ماسترصدتهم من تبعات ثقل عقب هذا الانضواء !

أقول : أنه ذهب في تحليله هذا الموقف إلى أنه آية إلهية فوق البحث ! وإذا تعدّدت مواقف الدعوة الإسلامية التي لا تجد العلة الطبيعية المسلمة فإن تعددها المتوالى يكون أصلا علميا جديدا هو خضوع الأحداث لقوة إلهية كبرى أعظم من أن تدركها عقول البشر بالتحليل ! والاعتراف بهذه الحقيقة يلزم من ينكرون هذه القوة المسيطرة أن يأتوا بتفسير علمى لما يرون من مظاهرها القاهرة التي لا تنقيد بعرف أرضى ! فإذا عجزوا عن ذلك وقد ظهرت آثار هذه القوة الإلهية ماثلة للعيان ، فعجزهم هو العيب الشنيع الذى يجب عليهم أن يتداركوه ، وليس لنا أن نستجلب رضاهم بالوقوف عند التعليقات الحسية وحدها ! ولماذا لا تكون المعجزات النبوية

التي ترادفت على أيدي الأنبياء جميعهم مسألة علمية لها دستورها المطرد الذي يتجاوز الطبيعي إلى غيره ، فهي قياسية بالنسبة للأنبياء ودليل صحتها العقلي والعملى ماصحبه من توفيق استمر أثره قرونا بعد قرون ، ولن يوفق محترف كاذب في أمر خدع به الناس ، وكم رأينا في صحف التاريخ من أناس خدعوا أتباعهم فترة محدودة من الزمن ثم تكشف الأحداث في حياتهم أو بعد مماتهم المباشر عن خديعتهم البلقاء فأصبحوا موضع التحقير والازدراء ! وهذا نقيض ما حصل للرسول - عليهم الصلاة والسلام - إذ عرف لهم الناس صدقهم الحقيقي وانتشرت دعواتهم بعد رحيلهم انتشارا يحمل عناصر صدقها البالغ ! فثبت الدعوة الإسلامية واطرادها المتقدم على توالى العصور مما يؤكد هذه المعجزات الإلهية ، بل مما يجعل هذه المعجزات دستورا علميا خاصا برسل الله !

على أنى أرى أن كفارا قريش إذا كانوا قد أهملوا اقتحام الغار كما قال الكاتب البخّانة فإنهم لم يهملوا إقتفاء الرسول وتتبعه ، فقد بذلوا في ذلك ما استطاعوا دون جدوى ! ثم فرضوا المغريات من الأموال لمن يستطيع العثور عليه حيا أو ميتا ؟ وحادثة سراقه بن مالك أشهر من أن تعاد ! وإذن فقد أهملوا شيئا وقاموا بشيء ! وأينا يأخذ الحذر في جميع أموره فإنك تجد أشد العقلاء احتياطا يفكر مايفكره ويتخذ التحفظات الواقية ، ويقيم الموانع الحاجزة ظانا أنه قد عمل

لكل شيء حسابه ، ثم يفاجئه الموقف بما يدل على نقص التدبير ، ووجود الثغرات ! مع أنه احتاط ثم احتاط ، يخيل إلى أن الأمر في مسألة الهجرة بالذات قد جاء على مانطق به الشاعر الحكيم حين قال :

وقاية الله قد اغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الإطم

ولسنا بهذا التعقيب نضائل من اتجاه الأستاذ التحليلي ، ولكننا نضيف شيئا إلى شيء ليطرد الحديث ..
على أن ما إمتاز به الكاتب من النظر البعيد في الأحداث النبوية إذا أفحم المعارضين بدقته العلمية فإنه يزيد المؤمنين إيقانا فوق إيقان ! إنه يقف بعقله المنقب أمام الحدث المشتهر فيقلبه ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تكاد تخفى عليه خافية منه ، ليستلهمه فنونا من التحليل الصادق تقنع القارئ المنصف بديهة بقوتها النافذة ، وتحليلاته للغزوات النبوية هي الشاهد الأروع لما نقول إذا اختط لنفسه أن يذكر أحداث الغزوة كما يعرفها الناس جميعا ، حتى إذا بلغ مراده في أتم ما يرتجى من مثله من الوضوح المشرق جعل يرسل نظراته الجديدة مشعة بضياء جديد ، بيده القارئ بطرفاته وقوته !
ونمثل لذلك ببعض نظراته الصائبة في « غزوة بدر » حين قارن بين قوة المشركين العددية وضالة الكم العددي الذي لا يتجاوز الثلث لدى المسلمين ، وحين استعرض أسلحة الفريقين

ليؤكد هذه الضالة أيضا ! ثم يقول عقب ذلك إن القائد الذى يدفع برجاله إلى معركة يعتقد أن عدوه متفوق فيها بكمه وسلاحه ، ويقول لجنوده مع ذلك : (أبشروا والله لكأنى أرى مصارع القوم) هذا القائد الذى يدفع بجيشه للحرب مع توافر أسباب الضعف المادى لا يعقل أن يكون صادرا فى معركته عن مغامرة إلا إذا كان يريد المجازفة بما يملك من نفس ومال وأهل ، يقول الكاتب متسائلا :

(وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ، فلا قومه قالوا له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم كانوا هم الذين يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ، ولا مشروعه كان سيتعرض للفشل لو رجع دون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن قوته لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ، ولا هو - أى رسول الله - كان يخشى أن يتفرق عنه أصحابه إذا عاد ولم يلقى ملجأ ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه . فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به ، فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ثقة منه بما وعده الله من الفوز بإحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربّه فى الأخرى . فدفع أصحابه إلى منازلها واثقا بالنصر ثقة لا حدّ لها ، لأن الله لا يخلف وعده : (فلا

تحسين الله خلف وعده رسله) فحقق الله ظنه وآتاه نصرا أيّد به حجته^(١)

هذا نموذج لبعض ما أشرنا إليه من نظرات الكاتب الدقيقة وإنها لكثيرة تزدحم بها الصفحات .

وقد أتاح نشر هذه البحوث مسلسلّة على صفحات (مجلة الأزهر) لكثير من العلماء أن يناقشوا بعض أفكارها في الصحف المصرية بعامة ، وعلى صفحات « مجلة الأزهر » نفسها ، فكان الأستاذ وجدى يترقب كل ردّ يوجه إليه ليعقب عليه في المجلة التي نشرته تعقيباً يتسم بسعة الصدر ، وحسن التقبل للاعتراض ، وقد يكون فى الناقدین من يدفعه الشطط إلى تهجم مسرف يقبح أن يتجه إليه من أمرهم القرآن بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن ، ولكن الأستاذ فى ردّه يترك هذه الأشواك المعترضة دون أن يجازى ناقدّه بمثلهما ، بل كثيراً ما يلتمس له العذر بشدة الغيرة ، وعنف الحمية ثم يهدف إلى اللباب الخالص ليعلن الحمية ثم يهدف إلى اللباب الخالص ليعلن وجهة نظره دون لبس ! ولعل الذين يشتطون فى النقاش دون موجب أن يتخذوا العبرة من سلوك الأستاذ (وجدى) فيفيثوا إلى الهدوء المتئد ، لأن الزبد يذهب جفاء ، والقارىء الجاد يضيق بالتطاول والتزيد ، ويرى صاحبهما دون المستوى الجدلى اللائق ، ومن الذين ناقشوا الأستاذ (وجدى) على صفحات (مجلة الأزهر)

(١) مجلة الأزهر الحادى عشر ص ٣٦٩ .

فضيلة الأستاذ الجهنى - رحمه الله - حيث ذهب الأستاذ (وجدى) فى حديثه عن الكتب التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء لعهدده إلى الشك فيما روى من أن قيصر الرومان حين جاءه كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا إليه أبا سفيان بن حرب ونفرا من ذوى التجارة القرشية كانوا بالشام حينئذ فسألهم عدة أسئلة عن الرسول وعن آبائه وهل عهد عنه الكذب من قبل ؟ وهل ارتد أحد من دينه بعد اعتناقه ؟ وهل كان النصر له فى المعارك دائماً أو سجالاً ، وبم يأمر أتباعه ؟ وقد أجاب أبو سفيان عن كل ما سأل ! ثم قالت الرواية أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق الأبواب ، وقال لهم إن الفلاح والرشد فى متابعة هذا النبى ، فهاج الحاضرون ، وصاحوا صيحة حمر الوحش ، ونفروا إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر هياجهم طمأن خاطرهم وزعم أنه كان يختبرهم فحسب ، هذه الرواية الذائعة لم تجد ارتياحاً لتصديقها من نفس الكاتب فأعلن أنه يشك فيها ، وأن إجماع كتب السيرة عليها لا يمنع دون نقدها ، إذ لا يعقل فى منطق الكاتب أن يكون قيصر الروم من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ، ولم يسألهم عما يجب أن يسألهم عنه ذو دين قائم عن الأسباب التى دعت إلى نسخ دين يتمسك به ، بدین جديد :

« وإذا لم تكن هذه الرواية مختلفة كلها ، فيمكن أن تحال إلى

ما يمكن حدوثه عادة كأن يظن أن حب الاستطلاع حمل
امبراطور الروم أن يستحضر من كان في مملكته من التجار
ليسألهم رأيهم عن الدين الجديد ، أما أن يتحول إليه بهذه
السرعة ويدعو إليه قومه وهم من أشد المسيحيين تمسكا
بالمسيحية ، فما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه » (١)

هذا ما اتجه إليه الأستاذ (وجدى) ، وهو ما لم يصادف
قبولا لدى الأستاذ محمد عبدالله الجهنى شيخ المعهد الدينى
بالقاهرة ، فكتب نقدا هادفا نشره الأستاذ (وجدى) (بمجلة
الأزهر) يقول فيه ما ملخصه : إن الأستاذ يرى أن تمسك
النصارى الشديد بدينهم يحول دون سرعة التصديق المباشر فى
غير اثنا وأن هرقل لم يكن من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى
إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغهم من الصدق ، ويرد
الأستاذ (الجهنى) على ذلك فيقول :

(إن المطلع على صحيح البخارى يرى أن (هرقل) سأل
عما يجب أن يسأل عنه ، وأسئلته فى منتهى الدقة تدل على عقل
ناضج وعلم واسع حتى أعجب به رواة الحديث ، وقد علم أن
أبا سفيان ومن معه أعداء للنبي - صلى الله عليه وسلم -
فكلامهم الذى يشهد له لا يجوز أن يكون موضع ريبة لأنه
شهادة عدو . ثم تساءل الأستاذ (الجهنى) : هل كان
النصارى يعتبرون أن ديانتهم قد تمت ولا نبى بعد عيسى وأنهم

كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أن أحدا منهم يسلم بسهولة ويسر ، أو أن الأمر بالعكس ؛ أى كانوا يترقبون نبيا آخر ، وأن منهم من هو سريع الانقياد إلى الحق متى ظهر ؟ ويجب الأستاذ على تساؤله بالاستشهاد بقوله تعالى :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُوَدَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ
قَسِيصٌ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا أَنزَلَ إِلَى الرُّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

- فالقرآن - كما يرى الناقد - يقرر جملة حقائق عن النصارى :
- ١ - أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين وهذا يستلزم أنهم أقرب لهذا الدين .
 - ٢ - أن شيمتهم التواضع وعدم الاستكبار والاستنكاف عن قول الحق .
 - ٣ - وأن منهم من إذا سمع القرآن فاضت عينه بالدمع . (١)

ويتبع ذلك كله في منطق الأستاذ أن يكون هرقل قد استجاب سريعا إلى كتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن يكون قد دعا قومه إلى الإسلام فحاصوا حصيه حمر الوحش . هذا لباب ما قاله الأستاذ (الجهني) مع أشياء جزئية تتصل بالحواشي والأطراف ، وقد ردّ الأستاذ (وجدى) على مقاله متبعا كل ما جاء فيه ، وكلا يمتد بنا الحديث إلى شعب كثيرة فإننا نكتفى بالاستشهاد بما ردّ به على موقف المسيحيين بعامة من الرسول حيث قال :^(١)

(لم ير فضيلة الأستاذ من حقى أن أرتاب في سرعة تصديق امبراطور الرومان ، معتمدا في ذلك على الآية القرآنية التي قررت أن النصرارى أقرب مودة من سواهم إلى المسلمين ، لأن من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار ، فهي تمدحهم بهذه الخلال ، ولا يقرن هذا المدح بالذم بأن يتهموا بسرعة التصديق ، وقد مدح الله المشتبين المطالبين بالدليل ولم يمدح سريعى التصديق .

ولو استعنا بالتاريخ في هذا الموطن لرأينا أن النصرارى كانوا أبعد تصديقا من جميع الأمم ، وقد وقفت دولهم للإسلام في أول ظهوره وقفات ، لولا أن كتب الله له الغلبة والانتصار لقصت عليه وليدا ، وقد دخلت أمم برمتها في الإسلام كالفرس والديلم والترك ، وجماعات غفيرة أخرى ، تعد

مكتبة
المهتدين

(١) « مجلة الأزهر » المجلد الثانى عشر ص ٥٠١ .

بعشرات الملايين في الهند والصين وغيرها ، إلا الأمم النصرانية
فإنها تمسكت بعقيدتها إلى أبعد مدى .

أما قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَسْمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٢)

فهو قول صريح في أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد
آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من قبل ، وآمنوا
بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس
هذا بعجيب من قوم تذوقوا طعم اليقين) .

هذا نمط من النقاش يغني فيه ما ذكرناه عما تركناه لأنه يدل
على اتجاهه ويشي بمنحاه ، وليس لي أن أفصل بين المتناقشين ،
فقد وقف معي القارئ على أدلة كل مناقش ، وله أن يتجه إلى
ما يرضاه ، وقد امتد النقاش في مقال آخر متجها إلى أمور
ذكرت عرضا في المقال الأول وتطلبت الرد الحافل بالنصوص
والمراجع وقد ختمه الأستاذ (وجدى) بقوله : ^(١)

(إن غرضنا من هذا كله أن ننفي عن السيرة النبوية كل ما يثير أعاصير الجدل مكتفين بالمسلمات من الحجج ، والمقررات من البيانات ، وهذا أفعل في التأثير من الاستكثار مما يهيج المنازعات ويدعو إلى المناظرات) . وإخال الرجل على صواب في منحاہ ، إذا توجه بحديثه إلى الخصوم ، أما إذا خاطب الكافة من المسلمين ، فله أن يتبسط كما يشاء ، وقد أخذ الأستاذ (وجدی) لنفسه عبرة بالغة في التحرى الدقيق ، إذ وجد كتباً مريبة ألفها المبشرون ومَن لَفَّ لَفَّهُم تجمع الغرائب المنكرة مما سجله السابقون بحسن نية في كتبهم فنقلوها على علائها مطردة إلى مصادرها ، وقدموها لقرائهم على أنها حق واقع كتبها علماء المسلمين من المتخصصين دون أن يتزید عليهم متزید ، ومن أمثلة ذلك ما قام به الكاتبان الفرنسيان : (لوميريس) (وجاستون دوجاريك) من وضع كتاب في السيرة المحمدية ذكرا في مقدمته أنها يوردان سيرة نبي الإسلام كما كتبها أتباعه لايزيدان حرفاً واحداً ، وهو خبث مقصود إذ يوحى للقارئ الأوربي أن هذه الأساطير المكذوبة ، والروايات الملفقة حق لا مرية فيه ! وأى سب للإسلام أبلغ من أن نجعل الخرافات المكذوبة تاريخاً لنبیه ومقوماً أصلياً من مقوماته ، وأى تشويه لتاريخ المسلمين أنكى من جمع هذه الخرافات التي كتبت في مصادرها الأولى بنية حسنة ، ثم جاء من استغلها استغلالاً دنيئاً فجمعها في كتاب كبير وحرص على إذاعتها بين أيدي الأعداء والموتورين ، وتلك خيانة علمية لانظير لها ، لأن

جامعى الكتاب يعرفان قيمة هذه الروايات عند رواتها ويعلمان أنها يجمعان كل ما قيل لا على أنه حق ، بل على أنه أشياء تحتل التصديق والتكذيب وأن إسنادها إلى رواتها يعفى الجامع من مسئوليتها ! فإذا كان هذان الجامعان المغرضان يعرفان طريقة التدوين فى الكتب الأولى ؛ ولم يكشفاف عنها لقراءتهما ، بل سردا المكذوبات وكأنها حق ، فلا تدليس أشنع مما ارتكباه ! ولورزق الأوائل حذرا حريصا فى اختيار ما يقال لأعفوا من شر كثير .

وقد اكتفى الأستاذ (وجدى) بالسرد التاريخى فى أبواب قليلة لم يجد لديها ما يستحق الوقوف المتثد كحديثه عن السرايا وعن (غزوة يهود خبير) ، (وجلاء بنى النضير) ، وعن الوفود المتعاقبة على المدينة وغير ذلك ، وكأنه رأى فيما ذكره من التحليلات فى الفصول المماثلة ما يغنى عن الإعادة ، ولكل كاتب هدؤه الذى يدفعه إلى البسط والتحليل ، وتعجله الذى يدفعه إلى السرد المتسرع ، إذ ليست ظروف الكتابة لدى من يزاولونها مما تسير على غلط واحد لاتعدّاه ، وكاتب السيرة التحليلى يشعر بتهيب شديد فى كل ما يخطط مخافة أن يزل إلى خطأ غير مقصود فيتحمل تبعة نفسية تؤرقه وتضنيه ، إذ ليس من يؤرخ لنبي الإسلام كمن يؤرخ لبطل عادى من رجال التاريخ ، فمؤرخ النبي يتحدث عن رسول قدوة فى فعله وعمله وأى تفسير مخطيء لموقف من مواقفه يكون مظنة خطورة محققة ! ولكن له أن يخطيء دون حذر فى تفسير مواقف غير

الرسل من يخطئون ويصيبون ، فتقف أخطاؤهم عند تاريخهم ولا تتعداه إلى اقتداء واحتذاء ، لعل هذا الحذر البالغ هو الذى جعل الأستاذ يقتصد فى تعليقه إذا لم تنفسح أمامه أبواب الكلام عن طبيعة لا عن تكلف فيها ولا احتيال .

ولا نترك القارئ دون أن نلفته إلى ما افتتح به الكاتب حديثه عن فتح مكة حيث أفاض فى إبداع ذاتى هداه إليه التوفيق السديد ، إذ حُلَّ سهولة هذا الفتح ، ويسره الهين على غير المتوقع المنتظر ، إذ كان المظنون بعاصمة الشرك أن تكون حصينة منيعة لاتقع فى أيدي الغازين إلا بعد أن تسيل حولها أنهار الدماء ، وهما هى ذى قد أسلمت مفاتيحها دون مقاومة تستأهل الذكر ، فكيف تأتى ذلك على غير توقع ؟ لقد مدَّ الأستاذ مسباره التحليل إلى أعماق الأحداث ، فرصد الأسباب الحقيقية التى أسقطت الثمرة الناضجة دون جهد ، وحصرها فى خمسة أسباب ، نشير إليها فحسب دون أن نلخصها ليرجع إلى استيعابها مَنْ يشاء ، وقد ختم حديثه عن الفتح الأعظم بكلمة رائعة للكاتب الانجليزى (كارليل) فى كتابه (البطولة والأبطال) حيث قال عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تقدير وإعجاب :

(ماذا يطلب من رجل يدعى أنه نبي من دليل على دعواه أكبر من أن يبنى بيتا يأوى إليه الناس ، وقد جاء محمد فادعى أنه نبي ونشر دينا اتبعه مائتا مليون (لعهد كارليل) من النفوس ووجدوا فيه سعادتهم ، وبقي هذا الدين قائما أكثر من ألف

ومائتي سنة ، فأى دليل يراد منه أن يقيمه على نبوته بعد هذا؟ (١)

نطيل الاستشهاد لو حاولنا أن نسجل ما اهتدى إليه الأستاذ من إبداعات فى التحليل النفسى والتشريح الاجتماعى لما يتناول من أحداث ، لأن توفيق الله يصاحبه كثيرا فيما يزاوُل من هذا التحليل ، وقد أوتى مقدرة فائقة على أن يتدسس إلى نفس قارئة بأيسر اللمسات ، فيستولى على تقديره حين يوجز وحين يسهب معا ، ولعل من خطراته الرائعة ما عقب به على تقسيم الغنائم (يوم الطائف) ، حين غمر الرسول المؤلف قلوبهم بالعطايا ، وترك كبار المهاجرين والأنصار ، وقد رضوا بذلك حين استمعوا إلى وجهة نظر الرسول ! وقد تعمق الكاتب فى هذا الموقف تعمقا اهتدى به إلى قوله السديد .

(لا يبدوَن إلى ذهن القراء أن المجتمع الإسلامى قام على تصيد الأنصار بالمال أو بالإرهاب ، أو بغيرهما من الوسائل المادية التى تستهوى النفوس وتستولى على الأهواء ، فإن نظرة عجلت إلى ما حدث فى هذه الواقعة تنفى ذلك بدليل محسوس ، وذلك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أعطى الأموال التى غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين ، وإلى الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وحرَم منه أنصاره ومؤيديه الذى حصل له هذا المال باستماتتهم فى نصرته ، وتعرضهم لأفدح

الأهوال في تأييد دعوته ، فلو كان أمر المجتمع الإسلامي قائما على هذه الأغراض الزائلة لكفى هذا العمل في حلّ جماعته أو على الأقل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر ، وقد شوهد أنه لم يحدث شيء من ذلك ، على أن من يرجع للتعاقد الذي حدث بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب . يرى أنهم لم يعطوا مقابلا لجهادهم غير ثواب الآخرة ؛ فإنهم لما اجتمعوا في الهزيع الأخير من الليل في بعض شعاب مكة ، وعرض عليهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ما يطلب منهم أن يبذلوه من التضحيات في سبيل الاسلام . سألوه : وما لنا على ذلك يا رسول الله ؟ فقال لهم : الجنة ، فأجابوه : رضينا بذلك ، ثم انصرفوا^(١) .

وللأستاذ إبداع مماثل فيما افتتح به الحديث عن (غزوة مؤتة) ، وفيما عقب عليه من حديث (حجة الوداع) . إلى أن ختم حديثه النبوي بالكلام عن التحاقه - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى وتركه أصحابه على المحجة البيضاء . إلى هنا تم حديث الأستاذ عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه شاء أن يتحدث عن مبادئ الإسلام تحت العنوان الذي اختاره ، وهو (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) فشرع في كتابة بحوث متتالية قال إنه يخصصها ببحث

الروابط التي جعلت من الأمة الإسلامية وليداً مستكمل الخلقة صالحاً للبقاء على أكمل وجه ^(١) فكتب ما يقرب من بضعة وعشرين فصلاً في تقرير مبادئ الإسلام وإيضاح أثره العالمى في إصلاح الكون وهدايته ، وما دعا إليه من حوافظ قويّة تحمى الإنسانية من الانهيار ! ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه البحوث من خير ما كتب عن رسالة الإسلام في القديم والحديث ، ولكنها لا تتصل اتصالاً عضوياً متلاحماً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل من الخير أن تنشر في كتاب مستقل يحمل عنواناً مثل : (رسالة الإسلام) .

ونحن في نهاية حديثنا عن جهد الكاتب الكبير في تدوين السيرة النبوية على النحو التحليل الذى اختاره ، نرجو أن يوفق الله من يجمع هذه المقالات في سفر خاص ليسهل تداولها بين الناس !

والأستاذ (فريد وجدى) علم من أعلام الفكر المعاصر وقد قام وحده بتأليف موسوعته الحافلة (دائرة معارف القرن العشرين) في عشرة مجلدات ضخام ! ولم يكد يمر عليه يوم واحد دون أن يخرج للناس جديداً ، من نقد اجتماعى أو توجيه علمى ، أو نقاش فكرى ، حتى عمرت الصحف والمجلات بمقالاته طيلة حياته ، غير ما أخرجه من الكتب المستقلة الحافلة إلى أن اختاره الله لجواره الكريم . فلقى لديه جزاء ما قدّم من صنيع ، وهو - سبحانه - لا يضيع أجر العاملين .

(١) « مجلة الأزهر » المجلد الخامس عشر ص ١٣٣

« عبقرية محمد » - للأستاذ العقاد

اتهمت نفسى بعد أن فرغت من قراءة هذا الكتاب القيم للمرة الأخيرة حين هممت بالكتابة عنه ، وكنت قد قرأته عقب صدوره منذ أكثر من ربع قرن ، كما قرأت نظائره من الكتب التى تحدثت عنها من قبل ، ولكن إحساسى بعظمة هذا الكتاب بعد قراءتى الأخيرة كان من القوة الطاغية بحيث عرضنى للانتظار بعض الوقت ، لأراجع ما كتب عنه يوم صدوره ، فقد أكون مبالغاً فى تقديرى لكتاب أعقد أنه فريد فى بابهِ ، وأن موضوعه (القديم المشتهر) قد بدا جديداً فى كل سطر من سطورهِ ، وما هكذا نظائره التى كتبها (هيكِل) و (طه حسين) و (توفيق الحكيم) و (فريد وجدى) ، فكل كاتب من هؤلاء يعجبك بتفوقه فى منحاه الكتابى ، ولكنه لا يدهشك هكذا دهشة بالغة تميل بك إلى أن تتهم نفسك ، وتضطر إلى مراجعة ما كتبه عنه المفكرون حين قرءوه فى أوائل الأربعينيات ، والكتاب بُعد لطيف الحجم إذا قيس بنظائره ، ولكن حجمه اللطيف لم يحل دون رصانته الدقيقة ، وعمقه التأمل ، وغوره العويص ، مع رفرقة طائفة فى مواقف التأثير الوجدانى ، تلك التى تلتطف سطو الإقناع الملزم ، ويأس الافحام الصارم . لمن يسلك سبيل العناد فيركب رأسه أمام عظمة نبي هو سيد الأنبياء دون استثناء .

أقول إننى اتهمت نفسى ، فرجعت إلى ما كتبه الكاتبون الكبار ، أو إلى ما استطعت العثور عليه مما كتبوه ، وفى طليعتهم صاحب (الرسالة) الأستاذ أحمد حسن الزيات فوجدته يقول :

(صورة محمد فى نفسه هى الناحية التى طوف حولها الرواد ولم يدخلوا ، وحوم فوقها الرواد ولم ينزلوا ، وهى التى قدرتها على التخمين فى خطة (العقاد) ، ثم قرأتها على اليقين فى (عبقرية محمد) ذلك لأن (العقاد) كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ، فإذا درسته أقرأته على ضوء هذا الإيمان تكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض فى رأى ولا يتعثر فى الأداء . ولا يتكثر باللغو ، ولا ينزل عن طبقته حتى فى المقاصد المتبذلة والمعانى المطروقة . . فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحى هذا الإيمان عن عبقريته (بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب المسلم وكفى ، وبالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان ، عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميزان الشعور ، وعظيم عند مَنْ يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الأدمية) والحق الذى لا تجوز فيه أن كتاب (عبقرية محمد) هو التفسير الملهم المحكم لقول الله تعالى لنبيه الكريم : (وإنك لعلى خلق عظيم) ولا يدهشك

أن أقول إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الغور والمدى والدلالة في التفسير والتاريخ ، حتى جاء (العقد) فصوّرها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأنطق ما يكون المثال ، وأصدق ما تكون الحجة^(١)

هذا بعض ما قاله صاحب (الرسالة) ، والزيات وإن اتصف برعاية حقوق الصداقة فيما يكتب عن زملائه فإنه يقول دائماً ما يعتقد في ثوب حريري يمنع المؤاخذة ، ولم يجد في كتاب (العقد) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يضطر إلى التلميح به كعادته إذ وجده في مستوى رفيع ، صاحبه فيه توفيق الله ! وعلى هذا النمط من الثناء الحفيل ، جرى قلم الاستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني فيما كتبه عن (عبقرية محمد) ، في جريدة (البلاغ) المسائية ، وإذا وهم القارئ أن الزيات صديق (العقد) ، أن المازني صديقه ورفيقه في مضمار النقد الأدبي والتجديد المنهجي ، وأن في العلاقة الشخصية ما يوجب المجاملة ، فقد جهل أن (العقد) يفسح صدره لكل ناقد إذا لمس فيه إخلاص السريرة وموضوعية النقد ، وحب الحقيقة ، وتلك حال واضحة يعرفها أصدقاؤه عنه . وما كان للمازني أو الزيات أن يجهلا عن صاحبهما ما يعرفه قراؤه الغرباء ، فيقولوا غير ما يعتقدان . ولعل الاستشهاد بما قاله الأستاذ توفيق الحكيم عن (عبقرية

(١) « الرسالة » العدد (٤٦٢) ١١ مايو سنة ١٩٤٢ .

(محمد) لا يجد شبهة تشير إلى توقع مجاملة تستر النقد الموضوعي لديه ، فقد كتب مقالة عن (عبقرية محمد) أثناء معركة فكرية قامت بينه وبين (العقاد) على صفحات (الرسالة) . حول الصفاء في علاقات الأدباء ، وقد وقف منه (العقاد) موقفا لا يخلو من عنف ، وتوفيق الحكيم أحد الذين سبقوا (العقاد) في الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى في هذا السبق ما يدعوه إلى استقبال الكتاب الجديد على صفحات مجلة (الثقافة) استقبالا مؤيدا قال فيه^(١) :

(فمن الفصل الأول أدركت أن الاستاذ (العقاد) لديه ما يقول وأن الكلام الذي عنده يرغبنا على أن نصغى إليه ، وأن كل ما عرف من قبل عن النبي - محمد صلى الله عليه وسلم - لن يغنيا عما عند (العقاد) ، لأن (العقاد) قد درس وفكر واستنتج لنفسه . ثم صنع للنبي - صلى الله عليه وسلم - صورة (قلمية ؟) لا يمكن أن يرى نظيرها على هذا التهام في صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم ، إنه لم يكتب سيرة كما فعل الذين سبقوه ، ولم يرو لنا قصة ولم يسرد تاريخا ، ولكنه رسم ملامح وخط قسما أبرزت ذلك الوجه الشريف الجليل . . على أن الحرى أن الذي يجب أن نلتفت إليه هو الطريقة التي جرى عليها (العقاد) في تحقيق غرضه ، فهو لم يكتف باستخراج الوقائع من بطون كتب السيرة لأنه يعلم أن

(١) مجلة الثقافة العدد ١٧٥ ٥ من مايو ١٩٤٢ م .

هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس . بما ظهر من كتب حديثة العرض عصرية الأسلوب ، فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداما آخر جديدا ، واستنطقها معاني أخرى طريفة ، ولم يرض أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة ، بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم والتفكير المستقيم في طريق كلها ضوء ونور ، وفي الحق أن أظهر ظاهرا في الكتاب هي قوة الاستنتاج العقلي التي تستولد من الحوادث الصماء خصائص ومقومات لتلك الشخصية الإنسانية الكاملة ، التي دق فهمها على كثير من أهل الشرق ، وأساء فهمها كثير من علماء الغرب وجاوز الأستاذ (العقاد) التمهيد والاستقراء إلى البحث المقارن في أغلب الأمور ، عارضا حال الأمم الأخرى في مختلف العصور ، ليعين على وجه التحقيق مركز الفكرة التي يجليها من التاريخ الإنساني العام .

ثم قال الأستاذ بعد استشهاد طويل ببعض ما كتب (العقاد) : لا أحسبني قد كونت للقراء صورة واضحة للكتاب ، ولكنني أردت أن أغري القارئ وأنصح بمطالعة . . . لأن هذا الكتاب خير مرآة مصقولة نبصر فيها طيف هذا النور ، فقد استطاعت كتب السيرة السابقة قديمها وحديثها أن تفعم القلوب بحب محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكن ما من كتاب في نظري استطاع حتى الآن أن يملأ العقول بفهم محمد مثل كتاب (العقاد) ، ولعل الفهم أرفع أنواع الحب .

هذا بعض ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد طمأننى كل الاطمئنان إلى ما شعرت به من التقدير البالغ لهذا الكتاب الممتاز ! وعبر عن معان دقيقة شعرت بها كل الشعور فى جميع ما قرأت من فصول الكتاب ، إذا كان الدكتور (هيكمل) والأستاذ محمد فريد وجدى ومن حذا حذوهما ممن كتبوا السيرة كتابة من يتعرض للمفتريات داحضا باطلها بما أوتى من سداد وقوة نظر ، قد وفقوا إلى صواب كثير فيما يحاولون فإن الأستاذ (العقاد) قد جاوز ما صنعوه إلى آماذ فسيحة لم يصلوا إليها حين افترض بينه وبين نفسه - كما يخيل لى - أنه لا يكتب كتابه للمسلم وحده ، ولا للمحايد وحده ، بل يكتبه إلى ألد أعداء الدعوة الإسلامية ورسولها الكريم ، فهو يتصور أمامه خصما ألد الخصام يقف معاندا متذرعاً بما يملك من أقوى الحجج ليرمى رسول الإسلام بما افترته الأجيال الحاقدة من أكاذيب ، ومعه حضارة العصر ، ومدنية العلم ، وثقافة التطور ، وقد وجد غفوة عريضة من حماة الإسلام عشت فيها الباطل وأفرخ وحاك ما عن خياله من التخرصات ! تصور (العقاد) هذا الخصم الجموح المغرض يقف أمامه بما يحمل من أهواء الغرض المريض ، مدعومة بمنطق مشتهر تداولته ألسن المناوئين ، وكررته أقلام المبشرين حتى أصبح بتكراره المتتابع وكأنه حق تقرر ، لا باطل اشتهر وتردد ، فأعد الكاتب الكبير خطته الواعية الدقيقة لياتى على هذه الأراجيف بما يعصف بها عصفا دون تلبث ، ولن يكون ذلك وليد أمد تطاول إلى مدى ثلاثين

عاما كما ذكر في مقدمة الكتاب حين اقترح عليه بعض زملائه الأدباء أن يكتب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل ما كتب الأديب الانجليزى الشهير (كارليل) عن بطل الأنبياء محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - فوعد أن يفعل راجيا أن يتم ذلك في عهد قريب ، وقد امتد العهد إلى ثلاثين عاما كانت تأملا ينقطع حيناً ويعود حيناً آخر في تاريخ صاحب (الرسالة) ، وفيما يقرؤه عنه من أقوال مؤيدة وأخرى مهاجمة ، وتأمل مفكر جاد (كالعقاد) لا يضيع بددا في الهواء ، ولكنه يتولد وينمو ويتكاثر في قوة وحيوية حتى يبلغ غاية معلومة يؤق أكله الطيب في ثمرة مشتهاه ! وقد جاء هذا الأكل المشتهى فيما خطه في كتاب (عبقريه محمد) ، إذ تحدث بعد المقدمة الشارحة عن علامة المولد النبوى فسررد الجو العالمى والداخلى للرسالة النبوية ، وتلاه بفصل قوى عن عبقرية الداعى وما امتلكه من الفصاحة والثقة والإيمان والغيرة والوسامة ، تلك السمات الحية التى أدت إلى نجاح دعوته على أحسن وجه ينتظر ، واتسع المجال لديه ليتحدث عن (عبقريه محمد) العسكرية ، حديث من درس المواقف المتشابهة والمتعارضة ، وما قيل فى تأييدها ومعارضتها لياتى بالقول الفصل عن براعة واقتدار ، وقد امتد حديثه فى هذه الناحية ليشخص ويعلل ويدحض ، وليزيح غبارا قد تكاثف حتى شوه وجه الأفق ، فاحتاج إلى إعصار كاسح ، كما امتد حديثه فى فصل تال عن محمد الزوج . لأن بابى الحرب وتعدد الزوجات قد أخذنا من

خصوم نبي الإسلام رقعة فسيحة . ملئت بالتزيد والافتراء والشطط ، واحتاجت لمثل عقل (العقاد) يقذف بالحق على الباطل ليدمغه فإذا هوزاهق ، وبين باب الحرب وباب الزواج تحدث الكاتب في فصول معتدلة عن (عبقرية محمد) السياسية ، وعن عبقريته الإدارية ، وعن محمد البليغ ، ومحمد الصديق ومحمد الرئيس ، حديثا كله طرافة وابتكار في التوجيه والتشريح والمقارنة ، ثم انتقل بعد حديثه عن محمد الزوج إلى محمد الأب فمحمد السيد ، فمحمد العبد ، فمحمد الرجل وبذلك شارف الغاية التي انتهت بالحديث عن محمد في سجل التاريخ ! وأبواب الكتاب كما عرضها الكاتب جديدة في نسقها المتسلسل ، وموضوعاتها المتماسكة ! أما جدتها فيما حوت من أفكار وما انتهت إليه من نتائج فلن نقدر على تصويرها في وضعها الأمثل ، ولكننا سنحاول أن نشير إلى بعض ما يدل على معدنها النفيس .

لقد سبق أن نقلنا صفوة ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم عن (عبقرية محمد) ، ويمكننا أن نركز ما ذكره الكاتب الكبير في هذه النقاط .

أولا : أن كل ما عرف قبل ما كتبه (العقاد) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لن يغنينا عما عند (العقاد) من حديث .

ثانيا : أن (العقاد) لم يكتب سيرة ، ولم يرو لنا قصة ، وإنما

رسم ملامح وخط قسّمات ، أبرزت هذا الوجه الكريم وعكست ما في أعماق تلك النفس الرحبة العظيمة .

ثالثا : أن (العقاد) استخدم الوقائع استخداما جديدا واستنطقها معاني أخرى طريفة .

رابعا : أن (العقاد) ولّد من الحوادث الصماء عن طريق الاستنتاج العقلي خصائص دق فهمها على الباحثين .

خامسا : أن ما كتب عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما سبق (العقاد) من كتب الرواد قد استطاع أن يفعم القلوب بحب محمد صلى الله عليه وسلم - أما كتاب (العقاد) فقد استطاع أن يملأ العقول بفهم محمد - صلى الله عليه وسلم - . وسنؤيد بالاستشهاد ما أشار إليه الأستاذ توفيق الحكيم .

ليعلم الناقد المنصف أنه لم يرسل القول على عواهنه ، بل كان يقول ما يعنيه حقا ، وإن كان الاستشهاد مما يربك المستشهد إذ يجد أنماطا رائعة لا سبيل إلى ترجيح أحدها على الآخر ، إذ كلها تتساوى في الدقة والإحكام ، ويريح نفسه كثيرا حين يعلن أنه لا يختار شيئا أفضل من شيء وإنما يخضع لضيق المجال حين الاكتفاء إذ ليس من المعقول أن ينسخ جميع صفحات الكتاب .

لقد قال الحكيم أن كل ما عرف عن سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل ما كتبه (العقاد) لن يغنينا عما قدمه من حديث ، ولا أدل على ذلك من كلام (العقاد) عن الأحوال السياسية والاجتماعية عند البعثة النبوية ، إذ أن هذه الأحوال من الذبوع والاستفاضة في كتب التاريخ قديمة وحديثة . بحيث

تضطر الكاتب إلى الولوج في حديث معاد يعرفه طلبة المدارس كما يعرف المهتم منه كل متخصص في هذه الدراسة ، ولكن (العقاد) يعرف ما يعرف الناس لا ليلقيه إليهم في كتابه كما قرءوه في كتب التاريخ من حديثة وقديمة ، بل ليتصوره تصورا واضح الدلالة ، فيقيم منه بناء متماسكا ذا أساس قوى الدعائم تتعالى لبناته في وضعها الطبيعي لينهض أمام النظر ، معتدلا لا نشوز فيه ولا انحراف ، حتى إذا بلغ القارىء نهاية الفصل وجد المقدمات تؤدي إلى النتائج المحتمومة تأدية لا فكاك منها ، ولكنه الإلزام كل الإلزام لمن يعتصم بمنطق الحق دون لجاج ، لقد أخذ (العقاد) يتصور العالم كله عند البعثة النبوية تصور من ينتقل من الأعم إلى العام ثم إلى الخاص فالأخص في ترتيب منطقي يسلم منه الجنس إلى الفصل ، وسياق رياضي تتوالى فيه الباء بعد الألف تواليا محكم التسديد دون فجوة تتطلب الامتلاء ، لقد تحدث عن العالم وعن الأمة وعن القبيلة وعن البيت وعن الأب وعن الرجل حديث من يضع هرما هندسيا يبدأ بالقاعدة العريضة صاعدا في مراقبه إلى القمة المتألقة بسيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - في إيجاز لا تفوته شاردة هامة ، وكأنه بساط متسع مديد .

فالعالم - في منطق (العقاد) - « كان متداعيا شارف النهاية فقد طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلى قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعف ، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلى دولة تقضى بالشرعية وتخيف العائثين بالفساد ،

فببزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم ، وتضاءلت سطوتها فى البحر والبر ، حتى طمع فيها من يحتذى ببوارها ، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس ، وكمنت حول عرشها بواعث الفتى ، والحبشة ضائعة بين أوثن تستعار من الحضارة تارة ، ومن الهمجية تارة أخرى ، ثم هى ليست بذات رساله فى الدنيا ولا بذات طور فى التاريخ .

عالم يتطلع إلى حال غير حاله وبتهى للهدم ثم البناء . هذا هو العالم ، أما الأمة فليست بذات دولة ولكنها تتأهب لها ، إذ فى أيديها تجارة العالمين كلها فإذا سارت قوافل فارس من الخليج إلى بحر الروم فهى فى حراسة العرب الأحرار ، لا سلطان عليهم للدول المتداعية رومية وفارسية ، فهم بحراستهم يملكون الزمام ، يرضون فتتصل الأرزاق ، ويغضبون فتبور التجارة ، وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام ، أو من بحر القلزم إلى بحر الروم . ففى حراسة الأعراب من كلتا الطريقين .

أمة تيقظت لوجودها وعرفت من يحيط بها ، والتفتت إلى ما يهددها من خطر خارجى أو خطر داخلى مثل ما قام به (أبرهة) .

فى هذه الأمة مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة ! حالة لا استقرار فيها فمن هنا الترف والطمع والخمر وتسخير الأقوياء للضعفاء ، ومن هنا الفاقة والحسرة والشك فى صلاح الأمور .

حالة لا تستقر ، وأمة يقظى ، وخطر محقق .
هذه هى الأمة ، أما القبيلة فى تلك المدينة فلها شعبتان :
إحدهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم ،
والأخرى من أصحاب التقوى والسباحة والتوسط بين مقام
القوى الذى يجور ويظنى ، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى
ويصبر على الكريهة .

والبيت فى تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق
وليس له لؤم الثروة الجاحمة ، والكبرياء الجانحة ، بيت
عبدالمطلب رجل النذر ، وزعيم قريش فى مواجهة (أبرهة)
وذو الإيمان المطلق برب البيت ، أما الأب فلا يغنى لتلخيص
فى حديثه شيئا عن روعته ، فلتنقل نص (العقاد) بحروفه
حين قال :

(إذا كان عبدالمطلب جدا صالحا لنبي كريم فابنه عبدالله
نعم الأب لذلك النبي الكريم ، لكأنما كان بضعة من عالم
الغيب أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه . .
ثم تعود كأن إنسانا من طينة الشهداء ، يتجه إليه القلب
الإنسانى بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة ، فهو الفتى الذى
اسمه عبدالله ، والذى اختير للفداء ، فجاشت له شفقة قومه
حتى تركه لهم القدر إلى حين ، وهو الفتى الذى تحدث الفتيات
فى الخدور بوسامته وحيائه ، وودت مئآت منهن لو نعمن منه
بنعمة الزواج ، وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام ثم
سافر ليتجر ، فإذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون ،

وهو الفتى الذى مات وهو غريب ، وولد له نسله الكريم وهو دفين ، وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة آباء الأنبياء ، والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا ، وبين عالم البقاء وعالم الفناء (١)

كل ذلك مقدمة منطقية تنتهى بهذه النتيجة الحاسمة : عالم يتطلع إلى نبي ، ومدينة تتطلع إلى نبي ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب النبي ، فمن هو ذلك النبي ؟ . نبيل عريق النسب ، ليس بالوضع الحامل فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب ، فقير ، ليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء الأغنياء ، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار ، يتيم بين رحماء . فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين .
خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة ، تربى في الصحراء وألف المدنية ، ورعى القطعان ، واشتغل بالتجارة ، وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء ، أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوة على غير علم من الدنيا التى ترقبها ذلك محمد بن عبدالله - عليه السلام - (٢)

(١) عبقرية محمد الطبعة الرابعة ص ٢٣ دار الهلال .

(٢) عبقرية محمد الطبعة الرابعة ص ٢٤

ماذا رأى القارئ فيما كتب (العقاد) عن حالة العالم المهينة لظهور النبي ؟ ألم يقرأ مئات الصفح غير ما كتبه (العقاد) أولاً ، ثم ألم ير الجديد في العرض والترتيب والاقناع والتصوير والاستنتاج في صفحات محدودة تقوم مقام أضعاف الأضعاف ! ألا يرى مع الاستاذ الحكيم أن كل ما عرف من قبل عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لن يغنينا عما لدى (العقاد) ! يرى ذلك في هذا الشائع المشتهر بين العوام والخواص ! أما في غير الذائع المشتهر فما أقدر (العقاد) على الاقناع والامتناع .

فإذا انتقلنا إلى قول الحكيم : إن الأستاذ (العقاد) لم يكتب سيرة ولم يرو لنا قصة وإنما رسم ملامح وخط قسبات أبرزت لنا هذا الوجه الشريف الجليل ، وعكست ما في أعماق تلك النفس الرحبة فإننا نجد الناقد الفاضل قد حدد رسالة العبقريات كما أرادها كاتبها ، فهو لم يرد أن يكون مؤرخاً يجمع شتى الأحداث ليحكم عليها ، وإنما شاء أن يرسم صورة صادقة لا تأتى إلا بعد قراءة طويلة ، يقوم بها الكاتب في معزل عن القارئ حتى اذا تمألاً مما قرأ ، خلا بفكره للموازنة والترجيح والاختيار ليتخذ من كل ما طلع على كثرته ما يغني عن غيره في التصوير الصادق لهذه الملامح ، ولا معابة عليه حين يختار خبراً واحداً ويهمل عشرات سواه ، إذ يجده أكثر دلالة على ما يريد ، ومن هنا أخالف من نقدوا (العقاد) بأنه يختار من الروايات ما يريد ، ويترك ما يريد لأن اعتراضهم ، لا يوجه إلا للكاتب يؤرخ لا للكاتب يرسم ملامح شخصية ، وقد يكون

لاعتراضهم بعض الوجاهة إذا اختار (العقاد) رواية ضعيفة ليرجحها على غيرها ، وهذا ما تورط فيه من نقده بذكره بذلك دون أن يتقدموا بمثال لما اعتمد عليه من الرواية الضعيفة ، وقد يكون الناقد ممن يرى ضعف الرواية المختارة في اعتباره ، ولكن من أين جاءه أن (العقاد) لم يفحص ويختبر ويدقق حتى رجحت لديه تلك التي ضعفت لدى سواء ! كان على ناقدى (العقاد) في هذه الناحية أن يضربوا أمثلة لما يقولون لا أن يكتفوا بالكلام السريع ، أذكر أن الناقد الشاعر الأستاذ صلاح عبدالصبور قد تعرض لعبقریات العقاد بنوع عام فقال :

(إن عبقریات (العقاد) ليست كتباً في التاريخ ، فإن المؤرخ الفاحص حين يجمع مادته التاريخية وحين ينسقها ، يتبع منهاجاً هو إلى الحيادة أقرب منه إلى التحيز ، فهو لا يقبل المادة التاريخية لأنها تستهويه وتوافق طبعه ، ولا يرفض هذه المادة التاريخية لأنها لا تروق له ، ولكن يزن كل حقيقة أو خبر بنفس الميزان المنصف الذى ينظر فى رواية المادة التاريخية ويناقش أشخاص الرواة ثم ينظر المادة التاريخية نفسها ، ويقيم من عقله ومن صورة العصر فى ذهنه ميزاناً آخر يعرف به مدى صدق هذه المادة التاريخية .

والمؤرخ الفاحص لجوانب العصر كله من سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية يرسم من هذه العناصر كلها صورة متكاملة واضحة الخطوط موحية الظلال ، وهذه الصورة هى التى

يتحرك الأشخاص في ظلالها ويتركون على صفحتها الواسعة آثار
خطاهم^(١) .

إلى أن قال بعد كلام يجري هذا المجرى :
كان (العقاد) ينظر في المادة التاريخية دون مقياس أو ميزان
حتى يستعين بها في كتابة عبقرياته ، فهو يقبل من هذه المادة
ما يوافق هواه ورغبته لا ما يوافق البحث التاريخي المنصف ،
ويرفض ما لا يوافق هذا الهوى وتلك الرغبة ، ولذلك كانت
العبقریات كتباً غير تاريخية بالمعنى المتعارف عليه حين يكتب
التاريخ^(٢) ماذا يبقى منهم للتاريخ للأستاذ صلاح عبدالصبور
ص ٤٩ .

وأنا أجل الأستاذ صلاح عبدالصبور أن أزعـم أنه لا يفهم
وجهة (العقاد) في تأليف العبقریات ، وهو الناقد الدارس
المتأمل أتراه يعتقد أن (العقاد) في العبقریات مؤرخ كمحمد
حسين هيكل حتى يلزمه بذكر جميع الروایات ، وأدلة ما اختار
ترجيحه على غيره ؟ لم يقل (العقاد) إنه مؤرخ تقليدي في
عبقرياته ، ولم يقل ناقده انه يكتب تاريخاً دقيقاً لمن يتحدث
عنهم ، وإنما قال (العقاد) وقال ناقده إنه يرسم ملامح
شخصية ، ويختار من مواقفها ما يساعده على الدقة في رسم
هذه الملامح وقد قرأ ما يقرأ المؤرخ ليختار ما يسعفه في الرسم
والتشخيص ! (والعقاد) لم يتحيز عن هوى لمن تحدث عنهم في

(١) ماذا يبقى معهم للتاريخ للأستاذ صلاح عبدالصبور ص ٤٥

(٢) ماذا يبقى معهم للتاريخ للأستاذ صلاح عبدالصبور ص ٤٩

العبقريات ، ولكن ما قرأه عن أعمالهم أنطقه بما يجب لهم من التعظيم ، فهل كان لابد له كى يرضى ناقدية المتعالين أن يخلق مثالب يلصقها بمن رآهم موضع القدوة - وهم حقا كذلك لدى المنصفين - كى ينفى عنه تهمة التحيز ! لعل الأستاذ صلاح عبدالصبور لم يقرأ مقدمة (عبقرية عمر) ليرى كيف رد (العقاد) على من أرادوا له أن يبحث عن التهم وأن يتكلف العثور عليها إن لم توجد ، وكيف استشهد بقصة القاضي الذى قضى على الحاكم ظلما بالادانة ليرى الناس أنه أدان الحاكم فيصفوه بالعدل ظلما وهو فى حقيقة أمره ظالم غير أمين ! لقد اهتدى (العقاد) إلى أرفع النماذج فى دنيا الناس ، ويبحث عما روى من أخبارها واختار من الأخبار ما يساعد على جلاء صورها للقراء ، فكيف نطلب من صاحب منهج حدّده وبين أبعاده أن يفعل ما يفعل كل مؤرخ تقليدى ، وإلا كان متحيزا يختار ما يشاء ويهمل ما يشاء دون اعتبار خاص ! كان على الذين يتهمون (العقاد) بمثل ذلك أن يستشهدوا بروايات ضعيفة رجحها (العقاد) تحكما دون برهان ، ولكن الأستاذ صلاح عبدالصبور أتعب نفسه حتى عثر على مثال واحد هو تصديق (العقاد) لقصة سارية مع الجبل حين هتف باسمه من فوق منبر المدينة فسمعه سارية فى فارس ! (والعقاد) قد استشهد بهذه القصة لأنه يرى صدقها مستندا إلى ما اهتدى إليه الباحثون من حقائق مؤكدة عن التلبانى ! وإذن (فالعقاد) لا يرجح دون مرجح ، إنما تنهض لديه الشواهد على ترجيح

ما يختار ، وإذا كانت قصة سارية لم ترجع لدى الأستاذ صلاح عبدالصبور ، فكيف يوجب على (العقاد) أن يكون صورة منه شعورا وتفكيراً واتجاهاً فلا يرجح إلا ما يرجح ، وإذا ضاقت (عبقریات محمد) و (أب بكر) و (عمر) و (على) و (خالد) عن أن تسعف الأستاذ صلاح عبدالصبور بغير مثال سارية إذ لو كان لديه ما هو أقل ضعفاً منه لسارع إلى تسجيله إذا ضاقت ستة كتب تتحدث عن ست شخصیات عظام عن أن تمد الأستاذ بمثال غير مثال سارية ! فكيف يكون العقاد متحكماً يفعل ما يشاء ويرفض ما يشاء دون دليل ، ولا أدري إذا كان الأستاذ صلاح قد قرأ من كتاب (يسألونك) للأستاذ (العقاد) ما بين ص ١٦٨ وص ١٨٢ ليرى كيف اعتقد (العقاد) صحة ما ارتآه في التلباني وكيف اقنع مخالفه بما يؤكده صدقه في التدليل ، أيكون (العقاد) بعد هذا التحليل العلمى قد استشهد بحادثة تاريخية ضعيفة لم تثبت لديه حقيقتها تعسفاً دون اهتداء ، لنفرض جدلاً أن أدلة (العقاد) لم تقنع الأستاذ صلاح عبدالصبور أما يكفى أنها اقنعت فاعتقدها ، واستشهد بما يؤمن بحقيقته وإن خالفه سواه ، ثم ألا يرى الأستاذ صلاح أن بعض من يتقيدون بطريقة المؤرخ في سرد الروايات المختلفة قد رجحوا وقوع حادثه عمر مع سارية ! دون أن يصفهم أحد بالتحيز للأشخاص والتحكم في الاختيار .

ولم يكن الأستاذ صلاح عبدالصبور فريداً في تحامله على منهج (العقاد) في كتابه (العبقریات) عن اقتناع صادق بعيد

عن أى تأثير منحرف ، فهناك من تحاملوا عليه لأمر مذهبية تتصل بانحرافهم السياسى نحو الشيوعية ، وموقف (العقاد) منها مما يثير فى نفوسهم ضغنا على مؤلف (العبقريات) يتكافأ مع ما يحملون من ضغن على عباقرة الإسلام أنفسهم ، إذ يسيئهم أن تفرد الكتب الحافلة بتمجيدهم ، وهؤلاء الموتورون من الخير أن نسكت عنهم وأن نمر بحقوقهم مَر الكرام دون الالتفات ، ولكننا نتعرض لأصحاب الرأى المخلص مهما اشتطوا فيه ، كالدكتور إحسان عباس حيث نقد منهج (العقاد) فى كتابة العبقريات نقدا ترى بعض ملامحه فى قوله عن أصحاب العبقرية : (إنهم حين يتحدث عنهم (العقاد) يتعدون كثيرا فإذا هم صنف آخر من البشر ، وقد حدّد (العقاد) من حرّيته فى الكتابة ثلاث مرات ، مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول أن يبرر ما يحسبه الناس خطأ ، ومرة أخرى حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الأشخاص العاديين ، وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، فإذا وجدها وجد الاضطراب الكثير ، ونتج عن ذلك أنه لم يكتب سيرة وإنما كتب فصولا بعضها يتميز بالنظر الدقيق الناقد ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء فى الفحص والتدبير ، كما هى الحال فى كتابه : (عبقرية محمد ، عبقرية عمر) ولكن العاطفة الدينية قد حصرتة فى دائرة ضيقة فليس هو (العقاد) الناقد الطليق ، وقد أصاب سيد قطب فى بعض قوله عن هذه العبقريات : (هى

ليست سيرة على طريقة السيرة العربية ، وليست ترجمة على طريق التراجم فى اللغات الاوربية ، إنما هى صورة تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمة يبرز من خلالها انسان) أصاب فى قوله ان (عبقریات العقاد) ليست سيرا وأخطأ فى قوله إنه أراد أن يبرز من خلالها إنسانا ، فالصورة الانسانية لاتبرز بمثل هذه التقارير الحاسمة التى يرسلها (العقاد) ، ولا تبرز بتلك المقدمات التى يديجها فى أول كل فصل ، ولا تظهر بوضوح من وراء تعالى (العقاد) نفسه فى عرض شخصياته) .

وهذا كلام غال مسرف فى الغلو ، لأن العقاد لا يعاب ، حين اختار نماذج ممتازة حقا ، يرى فيها القدوة المثلى ، وهى فى واقعها الدينوى كذلك ، إنما يعاب حين يختار نماذج شاحبة لأناس من عامة الناس لا يمتازون بشيء ، ثم يحاول أن يخلع العبقرية ، وأتى قيمة سامية يستطيع تقريرها حيثنذ إذا تحدث عن غمار الناس ! وأين هو الخطأ الذى يحسبه الناس خطأ وهو يحاول تبريره فى عبقريتى ، محمد وعمر ، اللتين أشار إليهما الكاتب ، ولماذا لا يأتى بمثال واحد يوضح وجهة نظره فقد يكون هو المخطىء لا العقاد ؟ وما أخا غير مخطىء وهو يحكم بأن العقاد ، يتحدث عن شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، يالله أضاع تاريخ محمد حتى أصبح من يتحدث عنه لا يملك الشواهد الدقيقة على ما يتحدث أين كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهما وحدهما كافيان لتسجيل

ما تجب معرفته من سيرة نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم -
وفيم أتعب ابن هشام وابن سعد ، والواقدي ، والطبري ،
والمسعودي وعشرات المؤرخين أنفسهم في جميع الروايات
المسندة عن الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام . إذا لم تنظر في
موسوعاتهم الحافلة بشواهد صادقة لتاريخ محمد وخلفائه ! إن
الدكتور إحسان عباس . بذلك يوجب ألا نتحدث عن رجل
من الماضين بحال ، فكل رجال التاريخ من القدامى لم يفز
المحظوظ منهم بمعشار ما كتب عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ! لماذا لا يقول الدكتور إحسان صراحة إن التاريخ خرافة
وأنة لا حقيقة لكل ما نقرأ عن السابقين في كتب التراجم
والطبقات ! ولماذا يؤلف عن الحسن البصري والشريف الرضي
مفترضا صحة ما دونه المؤرخون عنها ؟ أفيكون اهتمام
الكتاب : بالحسن والشريف أكثر من اهتمامهم برسول الله
صلى الله عليه وسلم . وهم مؤمنون برسالته ومتشوقون إلى
الاستطلاع بلوائه يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ أرايت إسرافا
أكثر من هذا الإسراف ؟ ! ثم إذا كان الدكتور إحسان قد قرأ
مقال الأستاذ سيد قطب ووافق على بعضه فلم يناقشه فيما رأى
خلافه فيه . بل اكتفى بالحكم النهائي دون حيثيات شافية تبلغ
مبلغها من الإقناع ! لقد تحدث سيد قطب عن كاتب
العقريات حديثا متكررا ما فتىء يردده كلما أقدم على تحليل أثر
أدبي ، للعقاد ، وخلاصة ما قال الأستاذ سيد قطب يتركز في
هذه السطور المضيئة من قول الشهيد - رحمه الله - (١)

(١) « مجلة الرسالة » العدد ٥١٠ ، ١٢ ابريل سنة ١٩٤٣ .

(لقد قلتها مرة : إن (العقاد) دارس الشخصيات الأول حين لاحظت أن أفضل مواهبه تنصرف إلى هذا اللون من الإنتاج ، وأن ميزته فيما يدرس أنه يعطيك مفتاح الشخصية التي يتناولها فتعرف على الفور (من هو) هذا الإنسان الذي يحدثك عنه ، وتبين سماته وملاحظه من بين الملايين أو من بين الألوף الذى ينتمى إليهم ويندمج فيهم . كما تستطيع أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث والأعمال التي تنسب إليه أو عدم صحتها ولولم ترد في دراسة (العقاد) ، لأنك أصبحت تعرفه وتذكر خصائصه ، وتلاحظ مزاجه ، وتعلم ما يمكن أن يأتي به أو يدع من الأمور ، شأئك في ذلك شأن الصاحب الذى أطال عشرة صاحبه ، فعرف أعظم خوالجه وأدق لوازمه) .

فإذا جاز للدكتور عباس أن يناقش ذلك - وقد فعل - فإنه يتعسف حين يقرر أن (العقاد) لا يكتب سيرة على (الوجه الأكمل حين يقدم لك صورة إنسان^(١) وأنه من المستحيل أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث التي تنسب لبطل السيرة لأنك لا تعرفه إلا من خلال نظرات (العقاد) . وترجيحاته^(٢)

وموضع التعسف أن جميع المحبذين لمنهج العبقريات يعلمون ويقررون أن (العقاد) لا يكتب سيرة ، ولكنهم مع ذلك العلم المقرر لا يفهمون أن تقديم الصورة لا يتوقف على تدوين جميع

(١ ، ٢) « فن السيرة » للدكتور إحسان عباس ص ٦٥ .

الأخبار ، بل على اختيار الكاتب الموفق لما ينفع في رسم الملامح ورصد القسمات ، وليس من المستحيل أن تجزم بصحة أخبار تتوقعها من إنسان تعرف سلوكه الشخصي واتجاهه العقلي من خلال مرآة صادقة صنعها كاتب لا حظ له في الزيف والبهرجة ، بل حظّه الراجح في قوة الملاحظة وشدة التدقيق .

آن أن نفرغ - بعد هذا النقاش المفروض - إلى الاستشهاد على ما قرره الأستاذ توفيق الحكيم من صدق (العقاد) في رسم الملامح النفسية وخط القسمات الروحية التي أبرزت هذا الوجه الشريف الجليل - وجه أفضل الأنبياء - وعكست ما في أعماق نفسه الرحبة - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - .

لنختر ما كتبه عن علاقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمن يملك أمرهم من الخدم والعبيد ، ولنعرض نمطا من هذه المقدمات التي يدبجها في كل فصل ولم تحز قبول الدكتور إحسان عباس ، وفي رأينا أنها ستحوز قبول المنصفين ممن لا يتقيدون بفكرة خاصة تصدّهم عن قبول الحسن المطبوع من الأفكار والتركيب .

قال العقاد :

(قدمنا الكلام في فصول هذا الكتاب عن محمد - صلى الله عليه وسلم - رئيسا ومحمد صديقا ومحمد زوجا ومحمد أبا . . . وبقي جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الإنسانية في العلاقات بينها وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التي تكون بين الرجل ومن هم دونه ، ممن يملك أمرهم ويقبض على

زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعه وخلقه ،
ونريد بهم الخدم والعبيد الأرقاء ، وهى معاملة لها من الدلالة
على الأخلاق ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها تأتى من
طبائع النفس وعقائدها ولا تأتى بأمر أمر أو بدعوة داع .
فالصدقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين لا يستطيع
أحدهما أن ينسأها زمنا طويلا ، إلا إذا ذكره بها مذكر من
صديقه الحافظ لحقوقه ، القادر على مقابلة الجفاء بمثله ولو فى
طوية نفسه ، والرياسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ،
وتفرض على المرعوسين واجب الطاعة ، غير أنها قل أن تنطلق
بغير وازع من خشية الغضب ، أو خشية الانتقاص ، يحسب له
الرئيس كل الحساب أو بعض الحساب .

والأب يعطف على بنيه ، فلا يعجب الناس لعطفه ،
لما ركب فى طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وإن
اختلف الآباء فى صفات العطف وفى استحقاقهم لبر الأبناء ،
وكذلك الزوج يرفق بزوجه ، وليس له كل الاختيار فى رفقه لما
يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ويستغنى بها
أحيانا عن القوة والرياسة .

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما فى نفس سيده من
رحمة وخير ، وإنه لمن الرحمة أن يتبع السيد أمر الدين مع عبده
وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر فى هذه الدنيا ، بل إنها
الرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الآلهية ، فإذا تجاوزتها
إلى طواعية فى الخير لم يفرضها الدين ، ولم يطلبها العبد نفسه

فتلك هى الرحمة فى أصدق معانيها ، وهى أدل الدلالات على
لباب (الأخلاق) (١) .

فما رأى القارىء فى مقدمة تحليلية دقيقة كهذه التى أفتح بها
(العقاد) حديثه عن الرسول السيد ؟ أيعاب (العقاد) على
انفتاحه العقلى وتغلغله النفسى ، فىرمى بالتكلف والافتعال ؟
وإذا كان هذا الثمر الناضج وليد التكلف المفتعل ؟ فأى ثمر
يعلوه لدى غير المتكلفين .

فإذا أراد القارىء المثال الذى يوضح المقدمة فليسمع .
(لو وقف النبى عند هذا الحد - الحد الذى شرعه القرآن -
فى معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل ، وامتاز بأمر دينه على كل
محسن إلى الأرقاء فى زمانه ، إلا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد
شعرة حين نقول . إن كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم
خييرا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده ، ومن من
الآباء يحسن إلى أبنائه خيرا من إحسان محمد لزيد بن حارثة
وابنه أسامة .

فقد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيلة من أقرب قريباته
إليه ، وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا
لزوجها بها وحظوته لديه ، فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه
المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه إلى المنزلة الاجتماعية التى
يرتفع إليها السادة ولا يُثبته شئ كما يثبته شرف المصاهرة .

ثم حفظ هذا البر الأبوى لابنه أسامة فولاه جيش الشام ،
وهودون العشرين ، وفي الجيش طائفة من كبار الصحابة ، فلو
كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولد لما تكفل به أحسن من
هذه الكفالة ، ولا ميزه أشرف من هذه التمييز .

نعم لم نعد الواقع ولا تجوزنا في الوصف حين قلنا إن الابن
لا يتمنى خيراً من معاملة محمد لعبده ، فقد عرف زيد فعلاً أن
محمدًا خير من أب ، ومن أسرة كاملة ، يرجع إليها وترجع
إليه ، فبقى معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه هيثراً لبركة
النبوة فإن محمدًا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره
على جميع آله ، وإنما بقى معه لأنه الإنسان الذي يعرف حتى
العبد الرقيق أن آصرة الإنسانية عنده أوثق من آصرة الأبوين
عند آخرين) .

هذا غلط من البيان الحى المؤثر بصدقه وصراحته ووضوحه
تأثير الحق الجلى المتألق الشعاع ، وإذا كان بعض ما يصور منهج
(العقاد) فى التحليل والتعليل فعلى الذين خالفوه أن يتأملوا
ما كتب من جديد ، ليضعوه موضعه الصحيح .

لقد أوتى (العقاد) ملكة الإيجاز المحكم فى أكثر ما ديج من
فصول هذا الكتاب ، أوتى ملكة الإيجاز التى تجمل حوافل
المعاني فى أسطر محدودة ، فتحسب كل كلمة تضم عالماً من
الأفكار القوية ، وإنك لتقرأ الصفحة الواحدة من هذا الإيجاز
المحكم فى أخطر القضايا التى خاض فيها المرجفون حول رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فتحسب كل كلمة قذيفة منطلقة

تصرع حصونا من الأوهام المفتراة ، فتهوى مندكة البناء وقد تداعى الأساس !

لقد أفك الخراصون بما أفكوه حول تعدد زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وانبرى من كتاب المسلمين من خصّ هذا الإفك بكتاب مستقل يدحض شبهاته الأثمة ، فاستحق ثناء العارفين ، ولكنّ (العقاد) يستطيع بإيجازه الدقيق أن يرمى القذائف الماحقة فلا تدع من باطل أتت عليه إلا جعلته كالهباء ، لقد كتب أربع صفحات عن أسباب التعدّد ، أزالته كل لبس يحتمل ، ثم ختمها بقوله عن هؤلاء الأفكين المشهرين الذين نسوا كل حقيقة صريحة من حقائق حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - الزوجية ، التي سجلت بأدق تفاصيلها ، ولم يذكروا إلا أنه جمع بين تسع زوجات يقول (العقاد) : « نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه ، فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق في غير مشقة عندهم ولا معابة . نسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسّر له تيسره لكل فتى وسيم حبيب منظور إليه بين الأسر والفتيات . نسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين . نسوا أنه اختار أحسابا في حاجة إلى التألف أو الرعاية ، ولم يختار جمالا مطلوبا للمتاع .

نسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوه من تغليب لذات
الحسّ لم يكن يشبع فى بعض أيام من خبز الشعير ، ولم يجاوز
حياة القناعة قط لإرضاء نسائه أو إرضاء نفسه ، ولو شاء لما
كلفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى
يديه .

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي
جمع بينهن - عليه السلام - فلماذا نسوه ؟ .

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يقولوا وأن ينحرفوا عن
الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها لو
أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا النسيان ^(١) .

لنتقل إلى أمثلة أخرى نبرز كيف استخدم (العقاد) وقائع
السيرة استخداما جديدا واستنطقها معانى أخرى طريفة .
لقد قرأنا لعشرات الكتاب ما قالوه عن (صلح الحديبية) ،
وجلهم قد سلسل الحوادث كما أطردت فى تطورها الطبيعى ،
وعلق بما فتح الله به عليه مبينا سلامة قصد الرسول - صلى الله
عليه وسلم - وشوق أصحابه إلى الحرم ، وتطلع المهاجرين إلى
رؤية ديارهم ، ومعارضة قريش وبيعة الرضوان ومناقشة سهيل
بن عمرو ثم اختلاف الصحابة ومناقشة عمر ، وإرجاء العمرة
إلى العام القادم ، فإذا جاوزوا هذه الوقائع إلى نتائج الصلح
المشتهرة التى غنمها المسلمون حين اعترفت قريش المشتركة لأول

(١) «عقبة محمد» ص ١٥٤ .

مرة برسول الله كصاحب قوة عملية لها أثرها البارز في مجرى الأحداث ، وحين انفسح المجال أمام محمد - صلى الله عليه وسلم - لمراسلة الملوك واستقبال الوفود دون حذر ، كل ذلك قد قاله القائلون عن صلح الحديبية ، ولكن أحدا لم يقل ما قاله (العقاد) حين استخرج من صلح الحديبية مبدأ ونهاية معاني طريفة ، لم تعرف قبل ظهور (عبقرية محمد) ، ولا نستطيع إيجاز ما قال الكاتب الكبير لأن تعبيره الموجز المحكم يفسده كل اختصار ، ويضائل من إحكامه المبين ، وقصارانا أن نجتزئ ببعض عن بعض فننقل مما قال هذه الفقرات :

(بدأ [رسول الله صلى الله عليه وسلم] بالدعوة إلى الحج فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين برسالته ، بل شمل كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعى إليه فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد ، والرسالة الإسلامية ، فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبتطلون مفاخرها ، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين أجدادهم فإذا خالفوا قريشا في شيء . فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن

المتنفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو شأن القبائل
أجمعين .

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إغصاب
العرب على الإسلام بما ادعوه من قطعه [رسول الله]
للأرزاق ، وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها
الغادون إلى مكة والرائحون ، فهذا هو ذا محمد نفسه يأخذ معه
المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير
المسلمين قصاد البيت الحرام ، فإذا حال بينهم وير
ما يقصدون إليه ، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه ، وعلى
قومه ، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على
المسلمين (١) .

على هذا النمط الرائع الذي يمده البصر النافذ الثاقب سار
(العقاد) فيما فتح الله عليه من جديد ، وليس لي أن أشير إلى
كل ما ينحو هذا المنحى فذلك بعيد .

فاذا تركنا موقف الحديبية إلى موقف نفسى غير سياسى فإننا
نجد هذا التبرير أقوى وأشد وأحكم ، فقد قرأنا عشرات
البحوث حول وفاة إبراهيم نجل رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وحزن والده الكريم عليه ، ولكن هيهات أن نقرأ مثل
ما كتب (العقاد) حين قال :

(مات الطفل ولم يدرك الستين مصاب صغير إن كانت
المصائب تقاس بسنوات المفقودين ، ولكن المصائب في الأعزاء

(١) «عبرية عمد» ص ٧٨ .

إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه ، وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير ، وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول في بداءة الطريق ، وقد يقصر في منتصف الطريق .

إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين ، وأى مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه .

ما تخيلت محمداً في موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ، ذارف العينين ، مكظوم الوجد ، ضارعا إلى الله .

نفس قد نفثت الرجاء في نفوس الألف بعد الألف ، وهى في هذا الموقف . قد انقطع لها رجاء عزيز ، رجاء - وأسفاه - لا يحويه كل ما ينفته المصلح من رجاء .

وكأنى بمحمد يوم ذلك كان أقرب إلى نفوس الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ومع أقرب الناس إليه . كان أقرب الناس إليه زوجاته . أمهات المسلمين ، وكن يحببته غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن إياه لم يكن في هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب آثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ، وفاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة ، وبمقدار ذلك الحب ، ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان ، وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه .

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء . ينسيهم إنه أب من الأباء ، بل إنه أب أرحم من سائر الأباء .

ظنوا أن النبی - صلى الله عليه وسلم - لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وإن الكريم لا يعرف قيمة المال ، لكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى لا يخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لا يحزن لا فضل له فى الصبر ، وإنما الفضل فى الحزن ، والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المال والإيثار عليه .

اللهم إن هذا بصر نافذ إلى أغور الأغوار ، وشعاع موصول بأعمق الأعماق ، وليس (العقاد) فيه بأديب كاتب فحسب ، بل أديب كاتب عالم فيلسوف^(١) .

وأذكر أن بعض النجباء من القراء قد استكثر أن يقول (العقاد) [مات ذلك الطفل الصغير . ومات ذلك الأمل الكبير] ثم عقب بما فحواه أن هذا يأس ينتزه عنه مقام الأنبياء ، والشبهة واردة لا محالة وقد عقب عليها (العقاد) بقوله :

« إن هذا ليس بياس ينتزه عنه مقام الأنبياء ، وإنما هو علم بأن الحياة قد أصبحت للإشاحة ، والإدبار ، ومحمد - عليه

السلام - كان يقول : (إن معترك المنيا بين الستين والسبعين ، فلا يأس في انتظاره إدبار الحياة بعد الستين ، إنما اليأس الذى يتنزه عنه مقام النبى - عليه الصلاة والسلام - أن ييأس من أداء الرسالة التى بعث بها إلى الناس ، وهذه قد تمت يوم مات إبراهيم ، فلا يأس فيها ولا حرج أن يقبل النبى بعدها على أخراه ، وما قلناه عن محمد (عليه السلام) بعض ما قاله بلسانه الشريف حين قال : « إن مابه من موت إبراهيم ليهد الجبال » ثم استرجع ، وما يكون الاسترجاع إلا أن يذكر الإنسان فى كل عمر أنه تارك الحياة ، وراجع إلى الله ، على أنى أقف عند قول (العقاد) : إن اليأس الذى يتنزه عنه مقام النبى - صلى الله عليه وسلم - أن ييأس من أداء الرسالة التى بعث بها إلى الناس ، لإعارضه بقول الله - عز وجل -

﴿ حَتَّىٰ

إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرٌ مِّنْ نَّشَأِهِمْ ﴿١﴾

إلا أن يكون يأس الرسل فى الآية مقصورا على اليأس من النصر فى معركة معينة ، لا أن يكون يأسا من تمام الأداء^(١) - هل لى بعد هذه الاستشهادات المكيئة أن استطرد إلى غيرها ؟ لقد بقى أن أستدل على قول الأستاذ الحكيم ، أن

(١) سورة يوسف آية ١١٠ .

(٢) بين الكتب والناس ص ٣٣٠

(العقاد) يولد من الحوادث الصماء عن طريق الاستنتاج العقلي خصائص جديدة دق فهمها على الباحثين ، والحق أن الكتاب كله ناطق بالأمثلة الشاهدة ، وفي بعض ما أسلفناه من الاستشهاد ما يدل ، لأن الفواصل ليست قائمة إلى حد يمتنع التواصل فيما ذكره (الحكيم) من الخصائص ، بل قد يكون النص الواحد من كلام (العقاد) متسعا لأن نستخرج منه كل خصائص فنه الكتابي إذا نظر إليه الناقد من نواح مختلفة ، ولم يقتصر على أبرز ما يهدي إليه من السمات ، ولعلنا نكتفى بمثال موجز لهذا التوليد المحكم حين نعرض قول (العقاد) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «سمع خصومة بيباب حجرته فخرج إليهم . فقال «إنا أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم فلعل بغضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق على مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها» .

يقول العقاد تعليقا على هذا الموقف^(١) اليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر . ومحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ، ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة .

فهذا الذي يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير ، قد

جرى عليه حكم النبي - عليه الصلاة والسلام - قبل أربعة عشر قرناً ، وشرعه لأمته في أحاديثه حين قال . عليه السلام : (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) أما دقة فهم (العقاد) لحديث الرسول وشرحه له بما لا يأتي به غير من يتمتع بمقدرته العقلية الفائقة ! أما هذه الدقة الحصيفة النافذة فتمثل لها بشرح لقول رسول الله : - صلى الله عليه وسلم - (كما تكونوا يول عليكم) قال الكاتب : أى قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات ؟

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه . لأن الجهل . جهلها الذي تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه ، وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ، ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيد القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية . ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل . فلا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأحرى ألا يغير الوالى قوما ، حتى يتغيروا هم قبل ذلك . وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه . ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال ، وذلك هو الإبلاغ الذى ينفذ من وجهاته كل نفاذ^(١) .

ليت شعرى لو وقف الكاتب العميق أمام جميع أقوال الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقفته أمام هذا النص الشريف ، فأى فيض من الحكمة والقانون والسياسة والاجتماع . يهديه إلى المشرعين والسياسيين والاجتماعيين ، وأى أقمار مشعة يضيء بها الغياهب حين تشبه المسالك ، وتحفى الدروب ؟ أجل لقد استطاعت كتب السيرة النبوية قبل (العقاد) أن تغعم القلوب بحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستطاع (العقاد) أن يملأ العقول بفهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والفهم الصحيح طريق الحب الصحيح دون نزاع .

بقى أن نقف أمام من يأخذون على (العقاد) أن يصف محمداً بالعبرية ، خشية أن يرى أحد أن هذه العبرية هى التى جعلته نبيا ، وبسببها وفق إلى إصلاحه الكبير ، وهو احتراس يدل على غيرة مؤمنه ، نقدرها حق قدرها ، ولكنه فى رأى توقع لما يستبعد أن يتوقع ، لأن العقاد الكبير يرى أن العبرية صفة تلحق بالأفراد الطبيعيين ، فيأتون بروائع العلوم والمعارف ، ولكنها وحدها لا تصل بهم إلى مقام النبوة المهداة من السماء لمن

يخصهم الله برسالته ، فليس كل عبقرى بمستطيع أن يكون نبيا ، ولكن النبى له مقومات كثيرة ، منها العبقريّة ، فكيف يظن ظان أن العبقريّة هي التي هيأت له دعوة الإسلام . وماهى إلا صفة واحدة من صفات محمد - صلى الله عليه وسلم - العبقري والإنسان والسياسي والإداري والمصلح ، لاتزيد عن موضعها بحال ، وإذا كانت العبقريّة لا تتجاوز حدها المعقول عند سائر العباقر ! فكيف نحذر أن تكون أداة النبوة ، ومثّات العبقريين في مد الزمن المتطاوّل . لم يكونوا أنبياء إلا إذا اختار الله منهم أمثال : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لرسالة يقوم بتبليغها ملك من السماء ، فقيم الحذر في غير مجال الحذر ، وفيه هذا التوهم الذي يرفضه التمحيص ويأباه البرهان ؟ فالعبقريّة لدى العقاد هي إحدى الصفات الممتازة لدى النبى العظيم كالفصاحة ، والإخلاص ، والحزم والرحمة والإنسانية ، وهى من قبل ومن بعد . لا تقدر على أن تمنح صاحبها نبوة ربانية ، فإذا ظن ظان إنها قد توحى بفهم ذلك لدى بعض المتسرعين ، فالخطأ حينئذ يكون من صاحب هذا الفهم المتسرع لا من العقاد .

ديوان مجد الاسلام أو الإلياذة الإسلامية

للشاعر الكبير أحمد محرم

حين ازدهر الشعر العربي بعد ريادة البارودي . تنوعت أغراضه ، فاتجهت في بعض ما اتجهت إليه . إلى تدوين مفاخر الإسلام ، وإحياء سير السلف الأول في صدر الدعوة الإسلامية ، وكانت سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مددا لا ينفد لمن يستلهمون أحداثها الوضيئة ، فكنت ترى المجلات الإسلامية تفرد صفحات كثير لقصائد نبوية تتحدث عن الهجرة والمولد النبوي والإسراء والمعراج وبدر وفتح مكة . في مناسباتها التاريخية ، فتكون لدينا من مجموع ذلك ديوان حافل ينفع بأريج النبوة ، ولكن هذه المتفرقات المتنوعة لا تنظم سيرة الرسول من المبدأ إلى الخاتمة . انتظاما يقف بالقارئ أمام كل حدث من أحداث النبوة ، ليراه في مرآة شاعر يستوحيه ! حتى جاء الأستاذ أحمد محرم فنظم الإلياذة الإسلامية . على نحو مستوعب ، وكانت له وثبات عالية ترفعه إلى أوج فسيح ! أما كيف وفق الشاعر الكبير إلى ما أراد . أو إلى بعض ما أراد على وجه التحديد ، فهذا ما سنلم به في إيجاز مفيد .

لقد كان الأستاذ محب الدين الخطيب - رحمه الله - من أوائل من أحسوا بضرورة تسجيل الأجداد الإسلامية في ديوان شعرى حافل ، إذ هاله أن يكون مجد الإسلام في عصر النبوة الوضئ . بعيدا عن مطارح الإلهام ، فلا يعكف عليه شاعر متمهل يرصد نواتره ويستوحى خوارقه ، إلا ما كان من قصائد المناسبات ، وهى - وحدها - تتكرر وتتردد حتى ليأخذ موضوع واحد كالهجرة عشرات القصائد دون أن يتحدث شاعر واحد عن معركة رائعة كغزوة الخندق ، أو غزوة تبوك أو غزوة حنين ، ومهاجمة الطائف ، مع أن كل موقف من مواقف النبوة يستطيع أن يمد الشاعر المؤمن بفيض لا ينفد من الأخيلة والمعاني والتصوير !

لقد ظهرت ترجمات عربية للإلياذة اليونانية والشاهنامة الفارسية لتمجد بطولات وهمية يهيم بها من تنسب إلى آبائهم هذه البطولات ، فكيف لا ينهض شاعر مسلم بتسجيل بطولات حقيقية . قام بها رسول الإسلام وصحابته الأخيار ؟ يقول الأستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة (ديوان مجد الإسلام) للأستاذ أحمد محرم : ببعض التصرف .

« ولما توطنت مصر الحبيبة ، وتأسست جمعية الشبان المسلمين . جمعنا مجلس من مجالسها بشوقى أمير الشعراء . فاقترحت عليه أن يكون أعظم أحداث إمارته فى الشعر إهداء تاريخ الإسلام بأسلوبه الشعرى إلى أبناء العروبة ، وإستمع شوقى إلى هذا الحديث ، ولم يعد ولم يرفض ، ثم زاره وفد فى

منزله لتجديد الحديث معه ، فبقى عند موقفه من الصمت والابتسام ، وظهر بعد ذلك . كتيبه عن دول الإسلام ، ولعله كان من أثر هذا الاقتراح ، ولكن المطلوب كان أعظم من ذلك ، وقديما قيل : إذا عظم المطلوب قل المساعد .

فلما عقد الله الصلة والمحبة بينى وبين الأستاذ أحمد محرم ، وجهت إليه هذا الاقتراح ، وقلت له : لعل الله - سبحانه - قد ادخر لك هذه المهمة واختارك لها ، لأنك أقرب شعرائنا إلى إخلاص القول والعمل ، وأكثرهم توخيا لمرضاته ، فاستجاب - رحمه الله - لهذه الدعوة ، وجاشت نفسه بهذه الفرائد الغر من ديوان (مجد الإسلام) فأخذت أنشر أوائلها على الناس من صحيفة الفتح ، ثم نشرت عنها قطعاً في مجلة الأزهر كما كنت أشرف على تحريرها (١) .

أجاب محرم داعي الواجب ، إذا شعر بانسجام نفسى بينه وبين ما يراد منه ، فهو أكثر شعراء النهضة المعاصرة هياماً بالإسلام وتسجيلاً لروائعه ورثاء لما أصاب بلاده من الضعف على أيدي المستعمرين ، فأخذ يوالى نظمه البارع في خطة رسم خطواتها وأعد برنامجها عن يقظة رأى ، وصفاء خاطر ، وصدق واستشفاف . حتى استوى له من ذلك سفر خالد أسماه (ديوان مجد الاسلام) وأسماه الناس (الإلياذة) الإسلامية التى سجلت روائع السيرة النبوية فى رياحين تعبق بالعطر وغصون تهطل بالثمار .

لم يكن محرم فى إلباذته صاحب خيال يستوحى الاساطير كما كان هوميروس فى إلباذته ، وكما كان الفردوسى فى (شاهنامته) وأمثالها ممن دونوا جانباً من التاريخ المختلط فى قصص تروى واشعار تقال ، فقد أغناه واقع الإسلام الوضىء عن تلفيق الخيال ، والاسترسال مع الوهم إلى أبعد مداه ، فأكب على دراسة هذه الحقبة الرائعة من تاريخنا الأول فى مصادرنا الیقينية المتعمدة . ليسلسل روائعها الباهرة فى أناشيد تتردد ، وأحمد محرم شاعر محافظ ملتزم الجو التقليدى فى نسجه الشعرى . فسبيله فيما يتعرض له من أحداث التاريخ سبيل السالفين من شعراء العرب كأبى تمام فى فتح عمورية والمتنبى فى سيفياته . انه يستلهم الواقعة الحية بأحداثها وأبطالها ليفصح عن خواطره نحوها فى ظل ما أحدثت من نتائج ، وما تضمنت من أحداث ، تاركاً لخياله ان يستلهم هذه الواقعة ليفصح عن خواطره نحوها ولئن جازت الأسطورة فى ملحمة تتحدث عن عنزة العبسى او المهلهل ، فلن تجوز فى ديوان يسجل مجداً حقيقياً نهض به أعظم داعية أرسله الله - عز وجل - ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن هنا بالغ الدكتور شوقى ضيف حين قال عن إلباذة محرم .

وقد نظم أحمد محرم السيرة النبوية وسماها الإلباذة الإسلامية وهى مجموعة كبيرة من القصائد لارابطة بينها ولا حياة ولا خيال ، وهى ضرب من الشعر التاريخى تسجل فيه حوادث التاريخ ، أو هى ضرب من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه

تاريخ العلوم ، وليس بشيء من الشعر القصصى الذى يخلق فيه مادة الشعر خلقا جديدا .

فانت ترى الناقد الفاضل يصف ديوان مجد الاسلام بأنه قصائد لا رابطة بينها ، وهذا ما يخالف الواقع ، لأن الديوان يتحدث عن سيرة نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم حديثا مترابط الاحداث ، وقد سلسل الشاعر حديثه تسلسلا زمنيا إذ ابتدأ بالحديث عن سيرته في مكة باقتضاب ليس له ما يبرره ولكنه توسع توسعا جميلا حين بدأ فى احداث المدينة المنورة على مدى عشر سنوات حافلة بجلال الاعمال من غزوات وفتوح ووفود ومواقف . واذا كان الشاعر يسرد تاريخا معيناً ترتب زمنه ، وتسلسلت احداثه حدثا وراء حدث . فأين هو عدم الترابط ؟ السنا حين نترجم لانسان فنسرد ماتعورف عن مولده ونشأته وشبابه وكهولته نكون قد مررنا بسلسلة حياته حلقة حلقة ، فاذا جاز لاحد ان يقول فى هذا التابع الزمنى : انه غير مترابط فليت شعرى اى ربط يعينه ؟

ثم اذا تركنا القول بعدم الترابط الى قول الناقد (ان الديوان قد خلا من الحياة والخيال فهو ضرب من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه تاريخ العلوم) . فاننا نعجب لقاتل هذا الرأى ؛ لأن النظم التعليمى فى فتونه المشهورة لا يمت بسبب قريب أو بعيد إلى الإلياذة محرم ، وقد طبعت جميعها فى أكثر من أربعمئة وخمسين صفحة تسجل أحداث السيرة تسجيل الشاعر المستلهم لا الناظم الجامع ، فلم يكن محرم - فى الكثرة الكاثرة من

قصائده - صائغ أحداث تتعاقب كما كانت دون أن يبرزها في مشاهد أخاذه ينتقل بها القارئ إلى عالم الشعر الحقيقي بصورة وأخيلته واستلهاماته ومسابحه ، ولدينا حديثه عن الغزوات وقد تعددت ، نقرأ كل غزوة في ديوان مجد الإسلام على حدة فنجد الشاعر الكبير قد اتخذ من المادة التاريخية سبيلا إلى الحديث الشعري عن انفعاله الثائر ، وانطباعه المستوعب ، ولو اقتصر على نظم الوقائع - وحدها - ما كان الشاعر الفحل الذي أجاب الدعوة في إيمان واقتدار ، ولكن ناقدى محرم لا يريدون أن يفهموا من ديوان مجد الاسلام إلا ما فهموه من إلباذه هوميروس . فلا بد ان يخلق الشاعر أسطورة ، وأن يخلق بجناحه الى حيث تتولى الالهة والشياطين والشهب والزلازل والخوراق ، وهنا يكون الشاعر عندهم ذا خيال .

أما أحد محرم فيتحدث عن بطل مشهور الوقائع لا ليخلق مع أحداثه الرائعة المعترف بها لدى المؤرخين أحداثا تضاف إليها ؛ بل ليصورها في جوها الشعري كما صور أبو تمام أحداث عمورية ، وكما صور المتنبي وقائع سيف الدولة ، أليس ذلك من أقوى ما عرف الشعر العربي من بيان ؟

ثم ان الشاعر الاسلامى الكبير مع ذلك كله أحد شعراء البعث الذين أدوا دورهم القوى في تجديد الديباجة الشعرية ، واعادتها إلى بهائها السالف في عهد الفحول من السابقين ، وصنعه كشاعر يحتذى أمراء الشعر العباسى ، ويراهم مثله الأعلى في الصياغة الشعرية صنيع أبى تمام وأبى الطيب وأضرابهما

من الفحول مع فارق واضح هو : أن هؤلاء قد تحدثوا عن المواقع الحربية في ظل المدائح الرسمية لخليفة أو أمير ، أما الشاعر الكبير أحمد محرم فقد تحدث عن معارك الإسلام الأولى في ظل إيمانه القوي وصدقه الوطيد ، فلئن خالف هوميروس أو فرجيل أو الفردوسي فماشد قيد شعرة عن سنن شعراء البطولة في الأدب العربي ، وكلهم فحول كبار ، ولهم مكانتهم المرموقة لدى الدارسين .

أفنجبر الشاعر إجباراً أن يخرج عما يرتضيه من نطاق الشعر العربي الخالص ليرضى من يهيمون بالأساطير !

نستطيع ان نأخذ على الشاعر أنه ضغط الحديث عن الفترة المكية في قصيدة واحدة . مع ان وقائع هذه الفترة بما ضمته من تعذيب للمستضعفين ، وثبات للمجاهدين ، وهجرة الى الحبشة ، وامتحان لصاحب الدعوة في فقد أحب الناس اليه ، ورؤيته أتباعه يتألمون جوعاً حتى أكلوا أوراق الشجر في شعب بني هاشم أيام المقاطعة ! ثم حدث الاسراء الضخم بمعانيه وغرائبه وخواتمه . وهو بحقيقته الماثلة بعد يغنى عن كل أسطورة مكبرة مهما أغرقت في الخيال .

أقول : نستطيع أن نأخذ على الشاعر هذا العرض المقتضب حيث يتسع المجال لأبهى ألوان التصوير الأدبي ، فنزول الوحي ، وغار حراء ، ورؤية الملك في السماء ، وابتداء الدعوة إلى الاسلام على (الصفا) ، وجلال دار الأرقم في تواضعها

الإنسانى ، وإيجائها الربانى ، وإسلام حمزة ، وقوة عمر الفاروق ومصاولة المشركين فى اباء وشمم مما يحتاج الى إسهاب مثير ، ولكن الشاعر ألم فى القصيدة الأولى به إلمام المؤرخ الأديب ، والذى نسجله بعد ذلك هو إعجابنا بتوفيقه الزائد فى تصوير اكثر الاحداث المدنية تصويرا رائعا ، وإن كنا نتحفظ أمام شيء هام هو أن الشاعر قد التزم أن يسلسل أحداث السيرة بالمدينة وهو التزام أضعف من موقفه الشعرى فى تناول بعض الأحداث . لأن الشاعر عليه أن يستعرض الأحداث جميعها بينه وبين نفسه ، ثم يختار منها ما يصلح للتصوير الأدبى بروعة مفاجآته ، وسمو مغزاه ، وبالغ تضحيته أما أن يتحدث عن مشاهد ثانوية يستعصمها فى تباطؤ . فهذا مايؤخذ عليه فهو ليس بمؤرخ حتى يحصى الأشياء لإحصاء السارد ، ولكنه يستجيش خواطر قرائه استجاشة من يعرض عليهم أبرع اللوحات على مكامن الأحاسيس ، وليسمو بهم إلى أرفع المعانى الإنسانية التى أبلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصدق البلاء فى تحقيقها .

فتتابع الوفود فى ديوان مجد الإسلام . مما يغنى بعضه عن بعض ، وما كان للشاعر أن يتابع تسلسل وفد نجران ، ووفد الأشعرين ، ووفد ثقيف ، ووفد عامر بن صعصعة ، ووفد عدى بن حاتم ووفد ضمان بن ثعلبة ووفد بنى عبدالقيس ، ووفد بنى حنيفة ، ووفد كنده وأزْدِ شَنْوَة ، وبنى الحارث بن كعب ، وملوك حمير ، وبنى زبيدة ، وهمذان ، وتحيب ورفاعة ، ما كان له ان يتابع هذا التسلسل دون ان يشعر قارئه

بمعاني اسلامية جديدة هدف اليها نبي الاسلام حين قابل هذه الوفود !

لقد كان عليه أن يختار من بينها وفدين ذوى مغزيتين مختلفين ثم يفيض في الحديث عن رسالة الإسلام على السنة المسلمين ومن يناقشونهم من رؤساء الوفود . تاركاً لخياله أن يجيد تصوير المشهد بظلاله وإيجائه وألوانه عارضاً المفارقات لنفسية أحد الوفود حين يقبل كافراً قد أسود قلبه وجهمت سريرته ، ثم يرجع مؤمناً يتلأأ وجهه بنور الإسلام . وقد انسلخ من معاني الأثرة والعصبية والثأر والضغينة متجهاً إلى الإيثار والمودة والإخاء والمساواة ! وهنا يتأثر قارئه بالحديث عن وفد واحد أضعاف ما يتأثر بالحديث عن شتى وفود تتبدل وتتعاقب دون أن تضيف الجديد .

ومن الأوفق أن نمثل لبعض مالانوده - على قلته القليلة - من الديوان لتحدث بعد ذلك عن امثلة رائعة مما نعجب به - على كثرتها الكثيرة - فلديك مثلاً : حديث الشاعر عن (مسجد الضرار) إذ كان وكر النفاق ، هيماء ليجتمع به من يكيدون للإسلام من أعدائه وقد عبر عنه القرآن اعظم تعبير وأوفاه حين قال الله عز وجل - في كتابه العزيز :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
 يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
 عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
 عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
 فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

هذا الحديث ذو موقف انفعالي ضخم يستطيع الشاعر
 المحلق أن يصور فيه همسات الارتباب ، وتناجي الدسائس
 وتغلغل المكيدة ، ثم يتقل إلى الخداع الزائف بيناء مسجد
 ظاهره الإيمان وباطنه الكفر ، وقد حسب أصحابه أنهم قد
 خدعوا المسلمين بإيمانهم ، وأنهم قد استلوا كل هاجس شك في
 نفوسهم حين أقاموا المسجد لعبادة الله ! فإذا الوحي يهتك عن
 سرائرهم اللثيمة ما أضمرت من كيد ، وإذا بالضحي الساطع
 يسلط ضوءه على سرايب النفاق ليجدها مليئة بسم العقارب ،
 وأنياب الأفاعى القاتلات ، ولكن الشاعر قد مر بالحدث مرورا
 عابرا حين قال عنه :

يابني غنم بن عوف مالكم تجعلون الدين كيدا وضرارا
 اغضبتكم اذ بنى إخوتكم في قباء مسجدا يهدي الحيارى

فاتخذتم غيره تبغونه فتنة للناس جهلا واغترارا
وجعتم فيه من أشياءكم كل غاو يجعل السوآى شعارا
مفتر يهذى بقول الزور فى سيد الرسل ويؤذيه جهارا
يابنى غنم بن عوف إنها شيم الحمقى وأخلاق السكارى
استفيقوا انه قد جاءكم من جنود الله أقوام غيارى
قال مولاهم : هلموا فاهدموا مسجد السوء جدارا جدارا
وإبعثوا النار عليه جهرة اغما المؤمن من يصليه نارا
صدعوا بالامر وازداد الالى طاعوا الفاس ذلاً وصغارا
زين الفاحشة الكبرى لهم فأتوها لا يخافون البوارا

هذا كل ماقاله الشاعر عن مسجد الضرارا ، وله فى تسرعه
السردى نظائر قليلة فى الديوان ، ولكن هذا القليل - اذا جاز له
أن يكون موضع المؤاخذة النقدية - فلن يكون وحده موضع
الحكم الشامل على الديوان ؛ لأن بجواره الكثير الحافل بما
ازدهر بروائع الخيال ، وحفل بأمّتع الصور وأصدق
الانطباعات ، وإذا ألفت ناقد أحمد محرم . كتابا أجاد فى أكثر
فصوله وتحلف فى قليل منها عن مستواه المعروف . فماذا يقول فى
ناقد آخر ، يقرأ كتابه ليحكم عليه بمواضع القصور - وحدها -
على قلتها القليلة إذا قورنت بمواضع السبق والتبريز ، ولعل
الأوفق أن نستعرض من روائع الديوان ما يمتنع المحاييد
ويرضيه .

لنتخذ مثلاً من هذه الروائع قصة الإفك الظالم حين حاق

بعائشة - رضى الله عنها - حيث بدأه الشاعر الكريم بدءاً رائعاً فقال :

سند الرسل وأم المؤمنين بشر الأبطال بالنصر المبين
خرجت في الجيش ترجو ربها عصمة الراجى ، وعون المستعين
ينصر الحق ويقضى أمره أن رماه كل أفاك مهين
اصبرى إن جَلَّ أمر إنها يابنة الصديق دنيا الصالحين
أرأيت الأرض لما رجفت إذ هوى عقدك بل لاتشعرين
اقتشعرت وتمنت لو هوى كل عال من رواسيها مكين
انت في شأنك إذا تبغينه وهو في هم وغم وأنين
سوف يبدى الخطب عن روعته بعد حين ، فاصبرى حتى يحين
رفعوا الهودج والظن به أنها فيه وساروا مدلجين
وانجلى الليل عن الخطب الذى غادر الإصباح مسود الجبين
أين غابت ؟ أى أرض نزلت كيف غم الامر؟ هل من مستين
رجعت والليل في برده دائم الإطراق كالشيخ الرزين
ذهب الجيش وامست وحدها غير أصداء من الوادى الحزين
خَطَرْتُ في الجو من أنفاسها خطرات للأسى ماينقضين
ماج كالبحر طغت أثباجه وارتمت أهواله حول السفين
نام عنها الهم لما رقدت فهو في الأحشاء مكتوم دفين

ومضى الشاعر الكبير بعد هذا التصوير الرائع للجو النفسى
لدى عائشة في إطار من الجو الطبيعى في حندس الليل ،
يتحدث عن صفوان حين قدم فرأى عائشة
يرسل الطرف ويمشى نحوها مشية المرتاب في رفق ولين

عرف الخطب ، فما أصدقه حين يدعو دعوة المسترجعين
دعوة رنت ، فلو قيل اسمعوا لسمعنا اليوم ترداد الرنين

ثم مضى بالناقة ، يتتحي يثرب بالنور الذى يملأ الدنيا ،
وما رآه الناس حتى نشروا الإفك فسادا ، تحت مكيدة دبرها
شيخ المنافقين حين نفث السم ، وأشعل النار ، وقد مرضت
عائشة قبل أن يزعجها النبأ ، ومضت بعلقة تحدث عنها محرم
مبدعا فقال :

يا لها من علّة لو تعلمين إنها أبرح مما تشتكين
أعقب البشر عبوس وبدا من رسول الله ما لا ترتضين
غيروه فلولى من عطفه وطوى من لطفه ما تعهدين
وهو يخفى لك ما لا ينقضى من هوى صافٍ ، وشوق وحنين
سجن السرّ وكم من روعة لك يا أماء فى السرّ السجين
أنصتى فالليل مضغ أنصتى وقع الخطب فماذا تصنعين
جاشت النفس وبلت رعدة لم تدغ فى القلب من ركن ركين
مسطح لا قر عينا مسطح شَبّها ناراً تهول المصطلين
فضحته عثرة من أمه فانظري كيد ذويك الأقربين
لا تلوميهما إذا ما غضبت إنها تعلم ما لا تعلمين
أرسلتها دعوة واحدة ليتها زادت على حد المئين

فماذا يرى القارئ فى هذا التصوير ؟ وهل فات الشاعر
ما يمكن أن يأتى به من رسم الخوالج ونبض الأحاسيس ، لقد

استمر يتحدث - في هذا المستوى - عن هموم عائشة ،
واستئذنها لرسول الله أن تأتي بيت أبيها :

ذهبت يحزنها أن لم تكن طوّح الدهر بها في الداهيين
ثم قالت - وهي تبكي : عجا لك يا أمّاه ماذا تكتمين
أفلا نبأتنى مازعموا وبهم ، ما حيلتى في الزاعمين
ظلموني مارعوا لى حرمة ربّ كن لى ، ما أقل المنصفين
جزع الصديق مما نابه إنه خطب يهول الأكرمين
قال : أف لك من داهية مارمينا بك في ماضى السنين
أفلما زاننا دين الهدى ساءنا منك حديث لا يزين
كيف تيكم يالها من صاعقة أرسلت أرسلت من فم خير المرسلين
كيف تيكم ؟ كيف تيكم ؟ كلما جاء ، إن الله مولى الصابرين
ومضت الحادثة في مثل هذه الروعة إلى نهايتها حتى هبط
الوحي بالبراءة ! فإذا كان ذلك شبيها بنظم المتون ؟ فأين يكون
القصيد ؟

فإذا تركنا حادث الأفك إلى مثل آخر فإننا نختر (فتح
مكة) إذ نظم .أحمد محرم راعيتين بارعتين تتحدّث أولاهما عما
سبق الفتح الأعظم من أحداث ، إذ نقضت بنوبكر عهدا ،
وكانت مع قريش فى صلح الحديبية ، فعدّوا على حلفاء
المسلمين فى خزاعة ناكثين بما أعطوه من موثيق ، وقد تأهب
رسول الله لردع الظالمين ، تحيّر زعيم قريش أبوسفیان فيما
يصنع ، وخرج يتحسس الأمر فسمع عن جيوش محمد - صلى
الله عليه وسلم - ما أفزعه وروّعه ، ووقف يكابد هولا عاصفا

من جراء ما ارتطم فيه من مأزق ، ثم بدا له أن يعلن إسلامه
لحسم الشر المتوقع ، وقد ساعده رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وجعل منزله في مكة دار أمن ، هذا ما ترويه كتب
السيرة ، أفنظمه الشاعر الكبير أحمد محرم نظم المتون التعليمية
كما أراد الناقد أن يقول ؟

أم أنه طار في أفقه الشعري ليصوّر هواجس أبي سفيان ؛ إذ
رأى مهب الخطر فأراد النجاة ، لندع الشاعر يسمعنا قوله من
رائعته الأولى :

أبا سفيان ذلك ماتراه هو البأس المصمّ لا سواه
أليس الحلف قد وهنت عراه فكيف تشد بعدئذ قواه
أبا سفيان ليس لكم ذمام

دع الأرحام ليس لكم شفيع لقد حاولت ما لا تستطيع
رويدك إنه الرأي الجميع وإن الله ليس له قريع
تعلّ جده وسما المقام

رجعت وأزعجتك الحادثات فسرت تقول : هل قدم الغزاة
نعم قدم الميامين الهداة وتلك جيادهم والمرهفات
فدع دين الغواة وقُل : سلام

أبا سفيان هل أبصرت نارا كنار القوم إذ باتوا سهارى
أبت وأبوا فما تألوا استعارا ولا تُحصى وإن عُدت مرارا
هو الفزع المؤجج والضرام

لقد أُنذرت قومك فاستطاروا وراحوا ما يقرر لهم قرارُ
نبت بهم المنازل والديار وضاق سبيلهم فيها وحاروا
وقال سراتهم خطب جسام

فدعهم يا ابن حرب تلقِ رشدًا وبالحق اعتصم فالحق أجدى
سبيل محمد فاسلكه أهدي وخذه يا ابن حرب منه عهدا
لبيتك فيه من شرف دعام

لقيت محمدا حراً رشيدا فعُدت يمينه خلقا جديدا
هديت وكنت جبارا عنيدا هنيئا ، فاصحب الجد البعيدا
بما أولاك صاحبك الهمام

نظرت فهل رأيت أشد صبرا وأحسن منظرا وأجل قدرا
كتائب من جنود الله ترى تمرّ عليك واحدة فأخرى
لها من دينها العالى نظام

تكبر ربّها وتراه حقا وتبذل فيه أنفسها فتبقى
لك البشرى نعمت ولست تشقى فماذا من أيادى الله تلقى
لقد حلت فليس لها انصرام

فهذا تصوير جيد لهواجس أبى سفيان كان مقدمة محتومة لما
تم من إسلامه ، أحسن الشاعر صياغته فى غير تكلف أو
ادعاء ، والشاعر هنا يقصص أمراً واقعياً فما كان له أن يعدوه إلى
تلفيق الخيال واصطناع الوهم ، ولو فعل ذلك ما كان صاحب
ديون مجد الإسلام ؛ إذ يمتزى القارىء كثيراً فى بعض
ما يقول ، ولكنه الآن يرد معين الصدق ليرتوى من نغمه فيطالع
قراءه بما يلد ويفيد .

فإذا تركنا الرائعة الأولى التي نتحدث عن مقدمات الفتح إلى الفتح نفسه ، فإننا نجد الشاعر يحتفل بفنه ، فيترك هذه الخمسات الهادئة إلى بحر ذى اتساع ورنين يسمح لأمواج عاطفته أن تتدافع مزبدة كما تريد ، لقد بدأ بتصوير (خالد) الزاحف كالجبل إلى ديار مكة حيث ارتج لمقدمه ما بمكة من جبال ، فذلك طرد الشرك الراسخ يهوى لمقدم طود ما مس الأطواد إلا تناثرت كالهباء ، وذلك سيف الله يزهى باسمه فترهى به السيوف وتزداد به شرفا في عزها المنيع ! ثم هذه دعوة الإسلام إلى المسألة في عهد مضت أنواره تكتسح الدياجى من ظلمات الأباطيل ، لقد جاء نصر الله والفتح إذ مشى نبي الله إلى البيت خاشعا يسجد لربه ، وقد أخذ البيت يتحرك من مكانه ، لتنهض أركانه مشغوفة تتلقى الزائر الحبيب ، أما أصنام البيت فكانت موضع السخرية . . . نحن ؟ هاموا في عبادتها وبذلوا دماءهم في سبيلها غير مقصرين ، حتى رأوها مجللة بالهوان ، فنظروا إليها ساخرين ، وكانوا يظنون حماها لا يستباح ، فوجدوها قد سقطت تفاريق ، وانقضت محطمة ، نامت شياطينها عنها ، ويات ماردتها ملتحفا بالخزى والشنار ، أما هبل فما درى والطعن يأخذه من كل صوب هل غور الدمع من عينيه أم ذرف !

رباه - مرة ثانية إذا لم يكن هذا شعر فأين القصيد ؟ - إذ رمى به الله مدحورا على يد الشريد المهاجر الذى ظلمه ذوو قرباه ، إذ هموا بقتله فعاد إليهم صافحا يرد الظلامة فى رفق ،

وأراهم من عدله وإيمانه ما دفعهم إلى الانضواء تحت رايته
 مسالمين ، فاستقام على البيضاء من كان يضرب في العمياء ،
 وجرى طلقاً نشيطاً من غلته القيود ، وأدمته الأوهاق ، فأخذ
 يغشى موارد الإيمان الصافية ، وعاد رجسها طهراً ، وباع القوم
 أفواجا فأمنهم دين الإسلام ، هذا بعض ما أشار إليه الشاعر
 المبدع حين قال :

ديار مكة هذا خالد زحفا طود من الشرك خاتته جوانبه
 طود من الشرك خاتته جوانبه لما مشى نحوه الطود الذي زحفا
 إن الجبال التي في الأرض لو كفرت لدكها جبل الإسلام أو نسفا
 لما دعاه بسيف الله سيده زاد السيوف به في عزها شرفا
 ديار مكة أما من يسأله فلا أذى يتقى منه ولا جنفا
 لا تجزعى إنه العهد الذي انبعث أنواره تصدع العهد الذي سلفا
 مشى النبي يحف النصر موكه مشيعا بجلال الله مكتفياً
 لم يبق إذ سطعت أنوار غرته مغنى بمكة ، إلّا اهتز أو رجفا
 تحرك البيت حتى لو تطاوعه أركانه خف يلقي ركبته شغفا
 وإفاه في صحبة من كل مزدلف فلم يدع فيه للكفار مزدلفا
 العاكفون على الأصنام أضحكهم أن الهوان على أصنامهم عكفا
 كانوا يظنون ألا يستباح لها حمى فلا شمس أبدت ولا أنفا
 نامت شياطينها عنها مذممة وبات ماردة بالخزى ملتحفا
 هوت تفاريق وانقضت محطمة كأنها لم تكن ، إذ أصبحت كسفا
 ريعت جيوش قريش من قذائفها وريع منها الخزاعي الذي قذفا من
 رآته ينحط من عليائه فزعا بعد ما أفزع الأجيال مشترفا
 ومادري هبل والظعن يأخذه هل غور الدمع من عينيه أم ذرفا
 لو كان للدم يجري حوله دفعا طول المدى مشعب في جوفه نزفا

رمى به الله يحمي البيت من عبث يعاف باطله من عاف أو عزفا
للجاهلية رسم كان يعجبها في دهرها ففغت أيامه وعفا
لا كنت يازمن الأوهام من زمن أرخى على الناس من ظلماته سجفا
إن الشريد الذي قد كان يظلمه ذوو قرابته قد عاد فانتصفا
ردّ الظلامة في رفق وإن عفوا ولو يشاء إذاً لاشتد أو عفا
شكرا محمد إن الله أسبغها عليك نعمى ترامى ظلها وضفا
قد عاد يكلف بالإسلام من رشد من كان بالكفر من غى الهوى كلفا
ثم استقام على البيضاء يسلكها من كان يضرب في العمياء معتسفا
يغشي موارد للإيمان صافية ما امتاح من مثلها يوما ولا اغترفا

ومن أبرز سمات الجمال البياني في ديوان مجد الإسلام ما برع
فيه الشاعر من قوة التشخيص ، وخلع الحياة على الجهاد فهو
كالإنسان يحس فيفرع أو يتألم ، ويعبر عن مشاعره في كلتا
حالتيه ، فمكة - مثلاً - حين هاجر منها رسول الله ضجّت
تتنزى ألماً ، وتمنت هضابها أن تنتفض هائجة مائره ، ولولا إرادة
الله - عز وجل - وقوة مشيئته لارتجت تقذف الصخر ، وتزجي
هباءها المشور ؛ إذ هاجها من جوى الفراق ولوعة البعد ما هاج
البيت العتيق ؛ فقد تعاظمه ما تعاظم مكة ، وكان يهفو
متقلقلاً ، مضطرباً ، ولكن مشيئة الله أدركته فعاد وقورا -
رزينا !

هذا مثال أول للتشخيص الحى أجاده محرم حين قال مخاطباً
ربه تعالى :

يوم ضجت جبال مكة ذعرا وتمنت هضابها أن تمورا
تتنزى أسي ، وتمسكها تمنعها من ورائه أن تسيرا
هي لولاك لا أرمت تقذف الصخر وترجى هباءها المثورا
هاجها من جوى الفراق وخر الرو جد ما هاج بيتك المعمورا
كاد يهفو فزدته منك روحا فانشى راجح الجلال وقورا

هذه مكة ! جسة على الفراق ، وهياج للبعد ، وضجة تكاد
تميد بالجبال ! أما المدينة التى أقبل نحوها المهاجر الكريم فعلى
النقيض تنتفض فرحة ، كادت ديارها تترك أماكنها سائرة نحو البيد
لتشارك فى استقبال الوافد العظيم ، إن الديار لتزهها نشواتها ،
طربا وقد تحولت الى رياض نضرة ذات عنادل صادحة ، فكأن فى
كل منزل روضة ! وكأن فى كل دار بلبلأ غردا استمع الى كل ذلك
فى قول محرم مخاطبا رسول الله ! .

أقبل فتلك ديار يثرب تقبل يكفيك من أشواقها ما تحمل
طال التلوم والقلوب خوافق يهفو إليك بها الحنين الأطول
القوم مذ فارقت مكة أعين تأبى الكرى وجوانح تتململ
ماللديار تهزها نشواتها أهى الأناشيد الحسان ترتل
رفت نضارتها وطاب أريجها وترددت أنفاسها تتسلسل
فكأنما فى كل مغنى روضة - وكأنما فى كل دار بلبل
هن العذارى المؤمنات أقمنه عيدا تحييه الملائك من عل
فإذا تركنا التشخيص الى تصوير خلجات النفوس البشرية
فان للشاعر قد برع فى كثير من قصائده براعة تكاد تسمع بها

هجسات الضمائر ، ونجوى العواطف ، فهو - مثلاً - يتحدث
عن (بنى قريظة) حين حاصرهم المسلمون بعد معركة
الخنندق فى المدينة ، فيصّور تسترهم فى الحصون كالنساء ،
ويتغلغل فى رسم مشاعرهم الوجلة المرتاعة ؛ إذ بيت الهم
منتشرا عليهم فى الليل فيكون ليلا آخر ، وإذ يخاف اليهود أن
يحتسوا الرقاد فيروا فى المنام من الفزع أشد ما يلاقون فى
السهاد ، حتى الحصون أحست إحساس ساكنيها فحاق بها
الفزع والذهول !

إن هذا التلخيص المبسر لا يغنى شيئا عن قول الشاعر
المجيد .

تواروا كالنساء محجبات حمتها فى المقاصير البعول
خلا الميدان لا بطل ينادى : ألا بطل ! ولا فرس يحول
أقاموا محجرين على هوان أقام فما يريم ولا يحول
يرنق عيشهم خوف وجوع كلا الخطبين أيسرهُ جليل
يبيت الهم منتشرا عليهم اذا انتشرت مع الليل السدول
يلفهم السهاد فلا رقاد يطيب لهم ، ولا صبر جميل
يخاف النوم أكثرهم سهادا كأن النوم فى عينيه غول
إذا مالت به سِنَّة تنزى يظن جوانب الدنيا تميل
تطوف بهم مناياهم ظنونا توهج فى مخالبها النصول
بهم ويحصنهم بما دهاهم وحق بهم جنون أو ذهول

وبعد أن يتحدث عن استسلامهم فاستئصالهم يقول فى
براعة ، والقسم للاستهزاء والتهكم .

لعمر الهالكين لقد تأذى تراب في حفائهم مهيل
طوى رجسا تكاد الأرض منه تمور بمن عليها أوتزول
يساق السبي ، شردمة بنجد وأخرى بالشآم لها أليل
تجر على الهوان ، ولا مغيث بأرض ما تجر بها الذبول

وقارئ الشعر لا يغنيه استشهاد ، فعليه ان يرجع الى ديوان
مجد الاسلام ليرى كيف رسم الشعر المعاصر مواقف النبوة
الكريمة في أجمل لوحات الأدب ، وليعلم كيف فتح الأستاذ
أحمد محرم طريق الابداع لمن يستلهمون السيرة النبوية ممن تلوه
من الشعراء ، وإذا أدركه بعض الوَنَى في فترات يسيرة ، فلأنه
نظم الديوان في مدة يسيرة ، وكان عليه أن يترث ليكون أكثر
إبداعا ، ولكنه خاف انصرام الأجل قبل أن يُتِمَّ ملاحه فبذل
غاية ما يستطيع .

المقالة الأدبية لثلاثة من الرواد

ازدهرت المقالة الأدبية في الصحف السيارة ، والمجلات الدورية ، ازدهارا رفع النثر العربى في هذا العصر إلى أوج لا يتناول إليه ما سبق من نثر العصور ، ومن توفيق الله أن اتجهت المجلات الأدبية في عهد الرواد من الأدباء الى اصدار أعداد ممتازة عن سيرة الرسول ومجد الاسلام الخالد ، فكان العدد الأدبى الممتاز يصدر فى غرة المحرم أو فى شهر ربيع الأول من مجلتي (الرسالة) و(الثقافة) ، وما ينحو نحوهما من صحف الأدب حافلا بأشهى ثمار القرائح ، ولم يبق موضوع من موضوعات السيرة النبوية المطهرة إلاّ تحدث عنه كاتب كبير من جيل الرواد ، بحيث لو تُخصّص مطبعة عربية فى إصدار دوريات تختار هذه المقالات الجيدة وفق أحداثها الزمنية فى ترتيبها المتناسق لأصدرت مجلدات حافلة تنتظم سيرة الرسول الكريم انتظاما متعدد الأفنان متنوع الثمار ، وما منه إلا الرائع الخلاب الشهى المستطاب . وما كان لنا أن نغفل الإشارة الى هذه الأعمال الضخمة وان تناثرت فى المجلات دون أن تُجمع ؛ لأن المثقفين يحفظون هذه الأعداد الممتازة ، ويعيدونها مرجعاً أصيلا للبحث التاريخي عن سيرة رسول الله ومجد الاسلام العظيم ، لذلك رأيت أن أشير الى نماذج ثلاثة مما قدمته هذه المجلات لثلاث من أعلام الرواد ، لم يسبق أن تحدثنا عنهم فى

فصول خاصة بهم ، كما تحدثنا عن هيكمل وطه والحكيم ووجدى والعقاد ، وهم بعدُ فى مرتبتهم الأدبية عند القارئین ، هؤلاء الثلاثة هم إمام البيان العربى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى صاحب وحى القلم ، والأديب الأنيق الفنان الأستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة ، والعالم الكاتب الجاد الدكتور أحمد أمين صاحب ضحى الاسلام . رحمهم الله جميعا ، وهم من الشهرة الفائقة بحيث تغنيهم عن كل تعريف .

أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فسنختار له ما كتب تحت عنوان (درس من النبوة) مجلة الرسالة العدد ١٤٦ إذ تعرض الى موقف زوجات رسول الله حين رجع من غزوة الأحزاب ، وغنم تراث بنى قريظة ، وكن تسع نسوة . فقلن : يا رسول الله بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والاماء والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال . وأن يعاملهن بما يُعاملُ به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره الله تعالى إن يتلو عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قوله تعالى

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ

مَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

والرافعى فى مقاله مفكر فىلسوف . يىحث عن معانى
الحكمة فى الحادئاء ، كما ظهرت فى الانسانية الرفىعة لدى نبى
الاسلام فىقدم تحقىقا فىلسفيا دقىقا - كما قال - للأوهام
والحقائق ، لتكون الحادئة بفلسفتها الدقىقة نصّا تارىخيا رائعا
ىدافع به التارىخ الواقعى عن رسول الله فى أمر من أمور العقل
والغرىزة ؛ إذ ىدحض ما ىزعمه جهلة المبشرىن من أن رسول
الله قد استكثر من النساء لشهوة من الشهوات ، وهو زعم فنده
المنصفون بأدلتهم الحاسمة ، ولكن الرافعى رحمه الله قد أقى
بالجديد فى تفنىده المنطقى . حىن اهتدى الى عدة نقاط نسردها
فىما ىلى :

١ - إن الحادئ نفسه ردّ على زعم الشهوات ، إذ لىست هذه
لغة الشهوة ولا سىاسة معانىها ، ولا أسلوب غضبها ، فما بها
تملق ولا إطراء ولا نعومة ، ولىس بها شبه معنى من حرارة
القلب أو أثر من مىل النفس ، أو صوت من لغة الدم ، وهى
على منطق آخر غير المنطق الذى تستمال به المرأة ، فلم تقتصر
على نفى الدنيا وزىنتها عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك الى آخر
الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن بقصر الارادة منهن على هذه
الثلاثة ، الله فى أمره ونهىه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ،
والدار الآخرة فى تكاليفها ومكارهاها .

٢- إن الرسول لم يتزوج نساء لمتاع مما يتمتع به الخيال ، فلو كان وضع الأمر على ذلك ما استقام إلا بالزينة والفن الناعم في الثوب والحلية والتشكل ؛ لأن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوه ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يلقي بهذه القصة درساً في فلسفة الخيال ، وسوء أثره على المرأة في أنوثتها ، وعلى الرجل في رجولته ، وأن ذلك تعقيد في الشهوات يقابله تعقيد في الطبع ، وكذب في الحقيقة ينشأ عنه كذب في الخلق ، وأنه صرف للمرأة إلى حياة الأحلام والأمان والطيش والبطر والفراغ ، وتعويدها عادات تفسد عاطفتها ، وتضيف إليها التصنع ؛ فتضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها .

٣- يريد النبي أن يعلم أمته أن حيف الغريزة إفساداً لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها ، كانت حياتها استجابة لجنون الرجل ، وملأتها معاني التريد والتصنع فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، إلى أضداد هذه الصفات ، فيقوم أمرها على الأثرة والمصلحة ، والتفادى والضجر والتبرم والإلحاح والازعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ في نفسها من أصل الفطرة فيتبدل حياؤها ، وفي الحياء ردّها عن أشياء ، ويقل إخلاصها ، وفي الإخلاص ردّها عن

أشياء أخرى ، ويكثر طمعها ، وفي قناعتها محاجة بينها وبين الشر .

٤ - جعل الرسول نفسه بهذه القصة المثل الشعبي الأكمل في الزواج ، فهو يريد أن تكون زوجاته جميعا كنساء فقراء المسلمين ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع كل البراعة في الصبر والمجاهدة والاخلاص والعفة والصراحة . فلا تكون المرأة زينة تتطلب زينة تتمها في الخيال ، ولكن انسانية تطلب كمالها الانساني لتتم به في الواقع ، وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقد ، وكلما أسرفت المرأة في هذه أسرفت في تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني . كالأظافر والمخالب والأنياب غير أن هذه الوحشية الطبيعية الحية المفترسة ، وتلك الوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس ، ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول .

ثم يقول الرافعي - رحمه الله - «ليست قصة التخيير هذه مسألة من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ، فهي صريحة في أن النبي صلى الله عليه وسلم أستاذ الانسانية كلها ، وواجهه أن يكون فضيلة حية ، في كل حياة ، وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهديبا في كل غنى .

ومن ثمَّ فهو في شخصه وفي سيرته القانون الأدبي للجميع ، وكأنه - صلى الله عليه وسلم - يريد ليعلم الأمة بهذه القصة . أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي ، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي ، وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبعيته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط لا الخاضع ليكون أول استقلاله : استقلال داخله ، فليس ذلك فقرا ولا زهدا كما ترى في ظاهر القصة ، ولكنها جرأة النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية .

هذا نموذج مما قاله الراجعي في موقف من مواقف السيرة النبوية ، وهو نموذج لا يعطى معانيه للقارئ مرة واحدة ، بل يحتاج إلى معاودة وتأمل وتوقف ؛ لأن الراجعي يعتمد على عقله في اكتشاف أبعاد خافية . ثم يعتمد على أسلوبه في ضغط هذه المعاني في حيز الإيجاز الذي لا يمتد إلى المساواة فضلا عن الإطناب ، وينبغي أن يقوم لمثل هذا الأسلوب شراحه من أساتذة النقد الأدبي ، فليس مقال الراجعي بأقل من قصيدة واضحة يقولها شاعر كالمتنبي ، فيفرد لها المحللون بضع صفحات تحليلية ، وكأنهم يكتشفون كنزا ثمينًا خفيت جواهره تحت طبقات التراب ، وهم في الواقع يعيدون الشعر الواضح بلغة أقل من لغة الشاعر تركيبا وبناء وإن اشتركت معها في السفور الكاشف دون قناع ! ولكن الشعر يظفر بالنصيب الأوفى من التحليل ! وما كان للنثر الحكيم الذي يصوغه مثل الراجعي وابن المقفع وأبي حيان التوحيدي . أن يتعد عن دائرة

التحليل والتفسير ! تُرى لوجاء أستاذ سهل العبارة لمقالة الرافعى هذه وحاول بسط معانيها الدقيقة للطلاب فى المدارس والجامعة ، وكان فى منزلة عقلية تسمح له أن يلم بكل ما عناه الرافعى . تُرى لوجاء هذا الأستاذ وخَصَّ المقالات الاسلامية والفصول النبوية فى وحى القلم بهذا العمل المفيد ، أليس يكون جهده الأدبى موضع الاعجاب والتقدير لما يحمل من الفائدة المحققة لقارئه ؟

ونترك الأستاذ الرافعى لتحدث عن صديقه الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات وكلا الأديبين ينتميان الى تيار فى واحد ، هو (تيار البيان الأدبى المصقول) ، وإذا كان للرافعى عمقه وغوصه ودقة تحيُّله ، وغموضه أحيانا ، فللزيات صفاءه ورقته وحلاوة تصويره ، وتناسق موسيقاه ، ونفاذ تأثيره ، وقد تحدث الزيات فيما تحدث فى ميدان السيرة النبوية عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات ولده ابراهيم وكان الزيات عند كتابة هذا المقال مفجوعا بفقد ولده رجاء ، فكتب فى افتتاحية العدد الممتاز من الرسالة^(١) مقالا تحت عنوان (محمد الوالد) بدأه بالحديث عن الجو الاجتماعى والجو النفسى لصاحب الرسالة حين فوجئ بفقد ولده ابراهيم فقال :
تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم تبق إلّا فاطمة قرة لعينه ، وعزاء لنفسه ، وكانت جراحات

(١) مجلة الرسالة العدد (١٤٦) ٢٠ ابريل سنة ١٩٣٦

القلب العظيم لا تجد لمسها الممض فراغا بين آلام الرسالة فتندمل في سكون وصمت ، فلما عنت سورة الشرك في مكة ، وعلت كلمة الله في الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب في الوجود ، وأخذت نفحات السلام الألهى تنضح الجو المشتعل بالنار ، وتظهر الثرى المخضوب بالدم ، تنبته في الانسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت في العربي الرسول عواطف الأبوة ، وحز في نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة فبيوتهن التسعة حول المسجد المهلل الذاكر غرقى في السكون الرهيب ، والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفنيتهها مرح الطفولة .

لست أوافق الزيات - رحمه الله - على قوله «حز في نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة» فالرسول صابر محتسب في كل ما يأتي ويدع من أموره ، ولئن فرح واستبشر بميلاد ابراهيم ثم حزن على وفاته . فليس معنى ذلك أن ألما نفسياً كان يحز في روحه لأنه فقد الولد ، بل معناه أن المولود الجديد جاء على غير انتظار . فكانت له فرحة انسانية ، ثم حان ميعاد رحيله على غير انتظار أيضا ، فكانت له دمة انسانية ، وعن هذا المجال المحدود لا يجب الاسترسال .

ثم تابع الزيات حديثه ، فذكر أن أسرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - كإنسان - كانت قد شملت جزيرة العرب كلها وستشمل عالم الإسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل

كانت ألماً من الأم العبقريّة التي تتطلب عاطفة القلب للولد ،
وحاجة النفس الى التجدد ورسالة الحياة ، وهو ترديد لما سبق
أن اعترضنا عليه من حديث الكاتب الكبير ، ثم عاود الزيات
تصويره البياني الرائع ، وحديثه الشاعرى الممتع حين رسم
مقدمة ميلاد الطفل ثم إشراق وجهه السمع ، وأثر ذلك في
نفس النبی الوالد فقال في براعة جيدة .

(بين ظلال النخل والكرم ، وفي بيته (صلى الله عليه وسلم)
المصريّ على العالية من ضواحي المدينة . أتم الله نعمته على
رسوله ، فوهب له على الكبر ابراهيم ، يومئذ تنفس الصبح
بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال
الأجنحة المنيرة ، ومست يد الربيع المخضبة دوحة النبوة ،
وغرقت نفوس المؤمنين في مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون
والأنصار على المسجد المستبشر يهتفون النبی بالخليفة الوليد ،
والأمل الجديد والعوض المبارك ، ونهض الرسول الوالد الى
بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه ، وبضعة كبده ، فوجد في
طلعة ابراهيم الأنس الذي يعوزه ، والرضى الذي يرجوه ،
والخلف الذي يتمثله ، ففاضت غبطته لله حمداً ، وعلى المؤمنين
بركة ، وفي الفقراء صدقة ، دفع أمه الى مقام أزواجه ، ونفح
مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه ، ثم عَقَّ له
بكبشين أملحين ، وتصدّق بزنة شعره فضة ، وتعوّد كل صباح
أن يزور أم ولده . فيحمله عنها ليضمه ويشمه ، ويتذوق طعم
السعادة الأرضية في أريحه ، ويطالع نفسه العائدة في نفسه ، ثم

يدخل به على الأمهات اللاتي ولدن جميع المسلمين ولم يلدن فيباهى بحسنه ويقتبط بنموه) .

هذا التصوير الجيد تعقبه الحكمة الرائعة ، حكمة ابتلاء الله لأنبيائه ورسله . وهم موضع أمانته ، ومبلغو رسالته ، وقد أحسن الزيات تصويرها في دقة موجزة بليغة حين قال ممهدا لحادث الفقد المحزن وأثره في نفس النبي الصبور .

(ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ، دعوتهم الحق والحق ثقیل ، وعدتهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ، غرباء في الأرض لأنهم من السماء ، واغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عبر ، هذا ابراهيم حبة قلب أبيه ، وسواد عين أمه مسبوتا على فراش المرض تحت النخيل ، تذوى نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عرك الموت ، وأمّه وخالته قائمتان على سريره تشهدان منظرا أى منظر ، وهذا أبو ابراهيم يضعضه النبأ المروع ، فيتحامل على عبدالرحمن بن عوف ويمشى ثقیل الخطى لهيف الفؤاد الى الصغير المحتضر !

لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن ، ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح ، ولو كان في قلب الثاقل المحزون شبهة لجلتها محنة الله لرسوله !

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم ابراهيم من حجر أمه فوضعه في حجره ثم نظر من خلال الدمع الى قسماته المشرقة

تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج ، وفؤاد متاجع ،
واستسلام مطمئن (إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا) .
وواصل الكاتب البالغ يقول - في رقة حانية ووجد كظيم :
(يا لله لقلوب الوالدين ، إن النبي الذي ولد في مهد اليتيم ،
ودرج في حجر العدم ، وتقسمت عمره عوادي الخطوب ،
فكابد أذى قريش وحقد المنافقين ، وكيد اليهود ، وعالج مكاره
الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل ذلك
بصبر المجاهد ، ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ويصبه الله في
إبراهيم فيرفض عنه الصبر ، ويتملكه الجزع ويقف من الثكل
الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاء الناشئ
ينجيب . ثم يقول (إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزح ، وإنا
بعدك يا إبراهيم لمحزونون ، أما والله لولا أنه أمر حق ، ووعد
صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك بأشد من هذا
(وينال من الصحابة حزن الرسول ؛ فيتقدمون إليه يذكرون
ما نهى عنه فيقول : (ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن
العويل ، وإن ما ترون بي أثر ما بالقلب من محبة ورحمة ، ومن
لم يبد الرحمة لا يبدي غيره الرحمة عليه) .

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف
الإنسان ، لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه ، فصلّى على
ولده ، وسوّى عليه القبر بيده ، ثم رش فوقه الماء ، وأعلم
عليه علامة ، وقال : (إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين
الحى ، وأن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه) .

وعاد الزيادات الى مأساته الشخصية في فقد ولده «رجاء» في
لوعة .

(تعزيت يا رسول الله ، لأن الألم سبيل من سبل دعوتك ،
والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من
دمعك ، والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع
البائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له في يومه صبر ،
ولا في غده رجاء) .

وجواب هذا السؤال ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد
الرجاء وليس له في يومه صبر ، ولا في غده رجاء ، أن نقول
- للكتاب الكبير : إن البائس المحزون في منطق الاسلام
لا يأس من روح الله ، فعليه ألا يفقد رجاءه مهما ادهمت
الحوالك ! وإذا عدم الصبر ساعة الهول ففى الغد ما يحو
الجراح ، وبرىء الكلام !! وقد كتب الكاتب مقاله في أشد
ما مر به من حزن ، فإذا خانه القلم في عبارة فهو بشر محزون !
وننتقل الى الأستاذ الدكتور أحمد أمين لنجده أكثر من
المقالات النبوية فيما نشر في الصحف ، ثم جمع في كتاب
(فيض الخاطر) . إذ أن مناسبات الهجرة والمولد النبوي سنويا
كانت توحى للكاتب الكبير بفيض من تاريخ رسول الله ،
وأذكر أنه كتب مقالات جيدة عن «الهجرة» و«محمد رب البيت»
و«محمد والتوحيد» و«محمد المصلح» و«محمد والنفاق» و«محمد في
حروبه» و«اخلاق النبوة» و«غار حراء» وسيكون المقال الأخير
موضع اختيارنا الآن ، ونحن نعلم أن أحمد أمين مؤرخ بحائثة

ومقالاته الأدبية تنحو منحى الأسلوب العلمى المتأدب ، وهو ذو وضوح كاشف ، وكأنه يكتب كما يتحدث دون فرق ظاهر ، ومن هنا كثرت مقالاته الأدبية والاجتماعية حتى امتد فيض الخاطر الى عشرة أجزاء ، فى حين وقف وحى القلم للرافعى عند الجزء الثالث ووقف وحى الرسالة للزيات عند الجزء الرابع ، لأن الرافعى والزيات يتنوقان فى التعبير الأدبى تنوق الشاعر ، ويعتمدان على الخيال اعتماد الفنان . فلا بد من صبر طويل حتى تخرج المقالة الأدبية لدى كليهما عروسا حسناء . ذات اختيال ورواء ، ولها عند القارئ شوق المتطلع الى فن جميل ينفج بالعطر ويشرق بالنور ، أما الأستاذ أحمد أمين ، فباحث أديب ، له من الباحث ترتيب قضاياها وصحة نتائجه ، وسلامة منطقة ، وله من الأديب وضوح المعنى وتسلسله واطراده فى غير عناء .

بدأ الكاتب حديثه عن (غار حراء) فتساءل عما تقوله كتب السيرة عن خروج الرسول قبيل البعثة الى شعاب مكة ، وبطون أوديتها ليقضى شهرا فى غار حراء . ففيم كان يفكر ، وما الذى كان يطلب . وما الحالة النفسية التى استولت عليه ؟ وما الذى جعله يهرب من الناس وقد كان بهم أنيسا ؟ ثم قال مواصلا أسئلته : هل لنا أن نتساءل عن ذلك ؟ وإذا سألنا فهل فى استطاعتنا ان نجيب عنها ؟ هل فى استطاعة الجاهل - مثلا - أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ هل فى مكنة من لا يحسن الرياضة أن

يتخيل ما يفكر فيه الرياضي ؟ وهل للنملة أن تتساءل عما يفكر الانسان .

وهذا التساؤل احتياط واجب من الكاتب الكبير ؛ لأن الخوض الى نفس الرسول الطاهرة مما يتعذر على مَنْ هو دون مستواه النفسى بأبعاد مترامية فلم يبق إلا أن يظن الكاتب ظنا سلامة إجابته حين أخلص النية ، ونجرد للبحث النزيه سعيا وراء الحقيقة . أما أنه يتأكد تأكدا قاطعا لا لبس فيه ، فليس له أن يجزم بذلك فى أمور تتعلق بهواتف النفس الباطنة ، وخفايا الخلجات المستترة لدى أكمل انسان شرف به الوجود ! إن نظن إلا ظنا فى مجال كشف الأسداف ، أما الحقائق المتواترة فى الكتاب والسنة فهى اليقين كل اليقين .

يستعين الأستاذ أحمد أمين بحدسه العلمى فيعتمد على الله فى الاجابة ويقول^(١) .

(أكبر الظن أن محمدا صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة وعلى الأخص فى (غار حراء) ، كان فى حيرة ما أشدها من حيرة ، عبر الله عنها بقوله «ووجدك ضالا فهدى» .

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ، ولا نوع حياتهم ، وسافر الى الشام فرأى فيها مدينة الرومان بما لها وأعمالها التجارية ، وترفها ونعيمها ودينها الرسمى . فلم يعجبه شئ من ذلك ، لقد رأهم يعيشون كما يعيش السمك . يأكل بعضه بعضا !

(١) فيض الخاطر ج ٢ ص ١٩٤ ط

أو كما تعيش الذئاب والشيء في حظيرة واحدة ، رحماك اللهم !
ما هذه الحيرة ؟ لا البداءة بسذاجتها ونظامها أعجبت ،
ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبت ، فأين الحق ؟
لقد اطمأن الى شيء واحد ، هو أن كل ما رأى ضلال ،
وحيره شيء واحد ، هو سؤاله : أين الهدى ؟
حالة نفسية إذا تملكك نفساً مرهقة وشعوراً دقيقاً . ملكت
نفسه وغمرت قلبه ، فحلا له أن يعتزل الناس ؛ لأنهم يحولون
بينه وبين تفكيره ، ويقطعون عليه سلسلة مشاعره .

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يضمنون نفسه
فليهرب منهم ، وإن منظر الطبيعة بجبالها وبهائها ليحيى نفسه
فليطمئن إليها ! هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه
وسمائه ونجومه ، والعالم حوله كله نائم ، وهذا النهار- في أعلى
الجبل- يشرف منه على العالم من تحته ، فيهبزاً بالناس
وسخافتهم وهزواً مشوباً بالرحمة ، واستخفافاً ممزوجاً
بالعطف .

لقد عرف الباطل ويريد أن يعرف الحق
إلى هنا والكاتب يتابع تصوّره المنطقي عن عُزلة رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - في دقة شديدة الحذر حتى استطاع أن
يصل إلى كثير من الصواب حين قال :
لقد طلب الحق في غار حراء بعد أن تهيأت نفسه ،
واستعدت روحه ، وكملت مشاعره وتوجت بالحيرة فكانت
حيرته إرهاباً لليقين .

لم يطلب الحق عن طريق الشعر ، فالشاعر يتخيل ثم
يخال ، والشاعر يتخيل ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ،
والشاعر يغنى لنفسه أولاً ، ولا بأس أن يسمع الناس ،
والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه ، وليس هذا
من النبوة في قليل أو كثير .

ولم يطلب الحق عن طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما
عبد المنطق ، عبد الكتب ، عبد النصوص ، وقصارى أمرهما
أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ، ولكل إنسان
عقله ، ولكل إنسان تفكيره . إنما طلب محمد الحق من طريق
أسمى من ذلك كله ، طلبه من طريق القلب ، أعلن أنه لم
يطلب علماً ولكن طلب إيماناً ، فأعلن انه أمي وفخر بأميته ،
لأن القلب فوق اللغة ، وفوق القراءة ، والكتابة وفوق العلم
والمنطق ، وهو القدر المشترك بين الناس !

نستطيع أن نعارض الكاتب الكبير في هذه الفقرة ؛ لأن
رسول الله قد طلب الحق عن طريق القلب والعقل معا ! فما
كان تفكيره في ملكوت السموات والأرض إلا عن طريق
العقل ، وما كان عزوفه عن وثنية مكة واضطراب الشام
إلا وليد تفكير عاقل بصير .. وقد يكون الكاتب أقرب إلى
الصواب لو قال إنه طلب الحق عن طريق الإلهام الرباني ، لأن
الإلهام يقنع العقل ويرضى القلب معا ! والوحي إلهام ! وقد
جاء الوحي بقرآن يدعو إلى العقل ، ويحارب الضلالة
والجهل !

ثم تابع الكاتب حديثه يقول :
لقد اهتمدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ،
وتنهياً للأمر العظيم ، فلمعت في قلبه الشرارة الإلهية ، كما يتنهياً
السحاب فيلمع البرق !

لقد أضاءت له هذه الشرارة الالهية كل شيء ، وكانت
رسالته من جنس هدايته ، فرسالته أن يبعث الحياة في القلب ،
ويبعث الضوء الى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ثم
يعكس أشعته الجميلة على الناس يشترك في الاهتداء به العالم
والجاهل ، والذكي والغبي ، والفيلسوف والعامي ، على
اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعاً قدراً مشتركاً من القلب
صالحاً للاهتداء .

وعاد الدكتور إلى مسألة العقل ثانية فقال :
ليست العقول مساورة للقلوب في الرقى والانحطاط ، فقد
يكون مريض القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيح العقل
مريض القلب ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة
القلب لا صحة العقل ، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو
بن العاص ، وأسلمت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم
أبوسفیان !

ونعقب على هذا القول المتسرع فنقول : إن النبوة لها دليلها
العقل والقلبي معا ، وكل محاولة ترمى إلى جعل النبوة ذات
منحى خاص يخالف التفكير العقلي فهي محاولة مخطئة ، وإخال
أعداء النبوات من الماديين قد رَوَّجوا بحيلهم الخادعة إلى مثل

هذا الفصل بين النبوة والتفكير مستنديّن إلى أقوال ذكرها الفلاسفة ، لا إلى منطق سديد جاء به العقل الرجيج، وأيده النقل الصحيح !

ثم إن القلب في القرآن ، ويجب أن يكون كذلك لدى المسلمين هو مكان التدبر والتفكير ، يقول الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، ويقول - جل ذكره -) (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

فالقلب في منطق القرآن حسّاس مفكّر واع متأمل ! وإذا آمن بوساطته المسلم فقد آمن بعقله الواعي ووجدانه البصير . هذه نماذج من المقالات الأدبية التي كتبها فريق من الرواد حول السيرة المطهرة ، وقد أفسحت المجال لآلاف المقالات التي كتبها فريق من الشباب المسلم حول سيرة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - بأسلوب بارع ينتمى إلى كل الاتجاهات الأدبية في الكتابة الفنية المعاصرة ، ولا زالت الصحف الأدبية والمجلات الدينية تقدّم عطاءها الوافر في هذا الحقل المزدهر ، وهكذا أصبحت السيرة النبوية غذاء عقل ومرتعة وجدان ، ومنار اهتداء وإستبصار .

ما بعد الرواد

كانت هذه الكتب التي خصصناها بالدراسة العلمية-فيا تقدم-باعث نهضة كبيرة في التأليف الأدبي الخاص بسيرة نبي الإسلام الكريم ، فاتجهت الأقلام المخلصة في شتى ربوع الإسلام إلى تاريخ صاحب السيرة المطهرة بعد أن تشبعت بطرق الرواد في البحث ، ورأت في مؤلفاتهم طريقا ممهدا يدفع الى السير الحميد ، وهذه الثروة الهائلة في المكتبة النبوية الكريمة في حاجة الى دارس يخصصها بكتاب حافل ، ليصنفها تصنيفا علميا وفق اتجاهها التأليفى فيجعل طريقة الدكتور هيكل - مثلا - بابا كبيرا يضم ما نحا نحوه في التأليف النبوى، فإنه لكثير ، حيث جمعت هذه الطريقة بين السرد التاريخى والتحليل العلمى والروعة البيانية ! والسرد التاريخى متيسر لكل كاتب ! أما التحليل العلمى على وجهه الصحيح ، وأما الصوغ البيانى بنبضه الحار فلا يملكهما غير ذوى القدرة من المتمكنين. كما يتجه دارس المكتبة النبوية لتلاميذ الرواد الى تدبيج باب آخر يضم ما اتجه الدكتور طه حسين فى التأليف النبوى من المنحى القصصى ، وإنه لكثير أيضا سواء كان ذلك فى أجزاء متتابعة لكتاب صور إسلامية للأستاذ عبد الحميد المشهدى ، أو كان قصصا قصيرا نشر فى المجلات الأدبية ، وبخاصة فى الأعداد الممتازة منها ، إذ تدور كل قصة حول موقف لصاحبى جليل ،

أو مشهد من غزوة باسلة ، ولو جمعت هذه القصص المتفرقة
لملأت مجلدات ضخمة ! ونرجو من الذين يؤلفون كتب القراءة
للمدارس الثانوية في العالم العربي أن يكثرُوا من غناجهم ،
لتقدم للشبية الإسلامية زادا طيبا للروح ومتاعا مفيدا لأشواقهم
الظامئة الى مشارق الايمان .

أما المنهج المسرحي الذي تزعمه الأستاذ توفيق الحكيم فقد
وجد مقلديه ومحتديه على قلة ملحوظة ، إذا قيس هذا النوع
بالنهج القصصي ، وأذكر أن الأستاذ عبدالحليم عباس قد
احتذى الحكيم في كتابه «اصحاب محمد» كما احتذاه الأستاذ
محمد محمود زيتون في كتابه (جهاد نبى) وهو نهج يحتاج الى
حيطة بالغة ، ويقظة متبهة ، لأن المسرح يقوم على الخيال ،
والسيرة النبوية تعتمد على الحقائق ، وإدارة الأحداث ، وتدبيج
الحوار وتصوير المشاهد في حيز الحقيقة وحدها مما يحتاج الى
كاتب قدير ، له موهبته الأدبية الرائعة !
وذلك نادر عزيز .

فإذا انتهينا الى منهج العقاد في (عبقريه محمد) فإننا نراه منهجا
مستعصيا على التقليد ؛ لأن العملاق الكبير كان فوق موهبته
النادرة مزودا بثقافات موعلة في علوم الاجتماع والنفس والتربية
والسياسة والتاريخ ، وسائر الدراسات الإنسانية ، بل كان
مزودا بما لا ينتظر من مثله ، إذ قرأ العلوم التجريبية قراءة
بصيرة ، فشارك علماء الطبيعة والكيمياء والحيوان في بعض
ما يدرسون .

قد انتفع الكاتب الكبير بكل ذلك انتفاعا ظهرت آثاره الواضحة في مؤلفاته الكثيرة ، وكان نفاذ البصيرة ، وسعة الإدراك ، ولطافة الحس بموغزارة المعارف ، وتمام وفقه في كتابه عبقرية محمد ، إذ هي حصيلة جيدة لكل هذه الثقافات التي توارت عن القارئ المتسرع ، ولم تحجب عن الدارس الدعوب .

بقى أن نتحدث عن المنهج الفلسفي الذي اختاره الأستاذ محمد فريد وجدى ، وأشهد أن كثيرا من الدارسين قد انتفعوا به دون أن يشيروا إليه ، وقد ظهر ما يشبهه في المكتبة النبوية حين كتب العلامة اللبناني الأستاذ محمد جميل بيهم كتابه «فلسفة تاريخ محمد» فاستعان بما قرأه من علوم الفلسفة والاجتماع ، ولكنه اشتط متجاوزا حدود الاعتدال حين قال عن كتابه : (إنه دراسات علمية وتاريخية في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول الظروف العالمية والأحداث التي تقدمت عهد النبي أو عاصرته . سواء كان ذلك في جزيرة العرب أم في غيرها من أنحاء العالم ، تلك الظروف والأحداث التي مهدت لرسالته ، وأمنت نجاحها بمقتضى النواميس الطبيعية التي تربط الأسباب بالمسببات وترتب النتائج على المقدمات . . لأن محمدا - عليه الصلاة والسلام - ذلك الكائن العظيم الذي أصاب ما أصاب من نجاح إنما يعود نجاح رسالته إلى أسباب متصلة بالנוاميس الطبيعية^(١) .

(١) فلسفة تاريخ محمد ص ٦ للأستاذ محمد جميل بيهم

وهذا الكلام مصدر شطط كبير ، والفرق بينه وبين العقاد وهكيل ووجدى بعيد ؛ لأن هؤلاء الثلاثة لا ينكرون المعجزات ولكنهم لا يجعلونها وحدها مادة الإقناع للعقل المعاصر ، أما الأستاذ بيهم ومن لف لفه فيريدون أن يجعلوا النوايس الطبيعية كل شيء مرضاة لأناس يتوهمون أنهم يقتنعون بالمنطق المادى ! والواجب أن نحرص على مرضاة الحقيقة - وحدها - لا أن نحرص على استرضاء أناس قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر .

ومن المفيد أن نشير إلى كتابين جديدين حقا ظهرا في فترة ما بعد الرواد ، هما كتاب فقه السيرة للداعية الإسلامى الكبير الأستاذ محمد الغزالى وكتاب سيرة الرسول للأستاذ الباحث محمد عزه دروزه؛ لأنها انتحيا وجهة طريفة ذات إقناع وإمتاع فقد أراد الأستاذ الغزالى أن يجعل سيرة نبي الإسلام مدرسة ممتازة لتربية النشء المسلم فأخذ يستعرض أحداث حياته حدثا حدثا من مبدئها إلى نهايتها ليصور كل حدث بعواطفه النابضة وإخلاصه المتقد . وليأخذ منه العبرة البالغة في نظافة الخلق واستقامة السيرة عوطفارة النفس ، فالكتاب كتاب تربية مثالية وسلوك خلق رفيع؛ إذ يضرب الأمثلة الحية من السيرة النبوية الطاهرة على ما يجب ان يعتصم به المسلم من الأمانة والصدق والوفاء والكرم والرحمة والعدل والإخاء والحرية والمساواة إلى ما لا نستطيع حصره من رائع المثل ، وأمين الاحتذاء ، وقد هزنى جدا قول الغزالى الداعية في مقدمة كتابه :

إن المسلمين يعرفون عن السيرة قشورا خفيفة لا تحرك القلوب ، ولا تستثير الهمم ، وهم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد موروث ، ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤونته من عمل ، ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها .

إن حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليست بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ ، أو دراسة ناقد محايد ، كلا ، كلا ، إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها ، فأى حيف فى عرض هذه السيرة ، وأى خلط فى سرد أحداثها إساءة بالغة فى حقيقة الايمان نفسه^(١) .

أما الكتاب الثانى «سيرة الرسول» صور مقتبسة من القرآن الكريم ، وتحليلات ودراسات قرآنية ، للأستاذ محمد عزة دروزة ، فقد اعتمد على آيات القرآن فى توضيح مواقف النبوة إذ اختار من كتاب الله كل ما يتصل بنبيه من أحداث ومشاهده فاستطاع أن يجعل من هذه الآيات الكريمة تاريخا متسلسلا مطردا ، يعالج مسائل الوحي والرسالة والدعوة بمكة وعناد قريش ، والهجرة والانتقال إلى المدينة ، والغزوات الحربية ومكايد اليهود والمنافقين ، كما يتحدث عن شخصية الرسول الأعظم فى فصل خاص به يقوم على ما جاء عنه فى كتاب الله ! وفى الكتاب جهد علمى بارز ، إذ يلم بكثير من الأحكام الفقهية ، ويوضح الناسخ والمنسوخ ، ويضئ أحداث التاريخ

بلوامع جيدة يهتدى إليها دون اعتساف^(١) وحسبنا هنا أن نشير إليه دون تفصيل .

لقد بدأ الرواد كتابة السيرة النبوية على نحو أظهرنا محاسنه ، ولم نغفل مساوئه، وفي نقد أعمالهم الرائدة ما يدفع إلى مواصلة الحديث عمن تلاهم من الباحثين حين تنهياً الفرصة ، ويتسع المجال وندعو الله أن يوفقنا بفضلته الى تحقيق ما نأمله في هذا الحقل الفسيح .

د . محمد رجب البيومي



(١) سيرة الرسول للأستاذ محمد عزه دروزه



الموضوع	صفحة
مقدمة الكتاب	٣
الجزور البعيدة	١٥
ماقبل الرواد	٣٧
محمد المثل الكامل	٦٠
حياة محمد للدكتور هيكل	٨٤
احداث السيرة وطه حسين	١٣١
محمد لتوفيق الحكيم	١٧٥
موازنة بين الكتب الثلاثة	٢٠٥
محمد فريد وجدى والسيرة النبوية	٢١١
عبقرية محمد للاستاذ العقاد	٢٤٩
ديوان مجد الاسلام او الالياذة الاسلامية	٢٨٦
المقالة الادبية لثلاثة من الرواد	٣٠٨
ما بعد الرواد	٣٢٦

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٩١ / ٨٠٢٧



قضايا إسلامية معاصرة

تصدر عن

الأمانة العامة للجنة العليا
للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف

الفتاوى الإسلامية لقضايا العصر

لفضيلة الإمام الأكبر
الشيخ جاد الحق على جاد الحق
شيخ الأزهر

الأمين العام
للجنة العليا للدعوة الإسلامية
الشيخ / عبد المنعم أبو العطا عطية

طبع بمطبع دار أخبار اليوم